



مغامرات مع لورنس في جزيرة العرب

للرحالة الكاتب الأميركي، لويل توماس
ترجمة: د. أحمد إيش



روّاد المشرق العربي

مغامرات مع لورنس في جزيرة العرب

أثناء الثورة العربيّة الكبرى 1916-1918

تلكاتب الرّسالة الأميركي

لويل توماس

ترجمة وتعليق

د. أحمد إيش



© هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة، دار الكتب الوطنية
فهرسة دار الكتب الوطنية أثناء النشر

D568. 4. L45 T5312 2013

Thomas, Lowell, 1892-1981

مغامرات مع لورنس في جزيرة العرب: قصة الثورة العربية الكبرى 1916-1918 / للكاتب
الرحالة الأميركي: لويل توماس؛ ترجمة وتعليق: أحمد إيش. ط. 1. - أبوظبي: هيئة أبوظبي
للسياحة والثقافة، دار الكتب الوطنية، 2013.

ص. ٤ سم. - (رواد المشرق العربي)

ترجمة كتاب: With Lawrence in Arabia

تدمك: 7 - 173 - 17 - 9948 - 978

1. Lawrence, T. E. (Thomas Edward), 1888-1935

2. الثورة العربية الكبرى، 1916-1920. 3. العالم العربي -- تاريخ -- العصر العثماني،

1916-1924. 4. العالم العربي -- العلاقات الخارجية -- بريطانيا. 5. بريطانيا --

العلاقات الخارجية -- العالم العربي. أ. إيش، أحمد. ب. السلسلة. ج. العنوان.



هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة
ABU DHABI TOURISM & CULTURE AUTHORITY

إصدارات
esdarat

دار الكتب الوطنية

© حقوق الطبع محفوظة

دار الكتب الوطنية

هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة

«المجمع الثقافي»

© National Library

Abu Dhabi Tourism &

Culture Authority

"Cultural Foundation"

الطبعة الأولى 1434 هـ - 2013 م

الأداء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي

هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة - المجمع الثقافي

أبوظبي - الإمارات العربية المتحدة

ص. ب. 2380

publication@tcaabdhabi.ae

www.tcaabdhabi.ae

مغامرات مع لورنس

سلسلة

رواد المشرق العربي

نقدّم «هيئة أبوظبي للثقافة والتراث» للمكتبة العربية بوجه العموم، ومكتبة تراث جزيرة العرب بوجه الخصوص، كتاباً جديداً من هذه السلسلة الثقافية التراثية تحت عنوان: «رواد المشرق العربي». وهي من خلالها تعكس اهتمامها بتراث الآباء والأجداد، كمصدر فخر لشعب الإمارات وإلهامهم وعنوان أصالتهم وهويتهم الوطنية، وذلك من خلال الحرص على جمع كافة المصادر المتعلقة بتراث منطقة الخليج العربي وجزيرة العرب والعالم العربي في آن معاً.

فإذا استعرضنا تاريخ الحركة العلمية ونشر التراث العربي المخطوط، لنذيق بصل مجموعته إلى قرابة 3 ملايين مخطوطة في مكتبات الشرق والغرب. نجد أن جامعاتنا ومعاهدنا العلمية ومؤسساتنا الثقافية على امتداد الوطن العربي، أسهمت بنصيب وافر في خدمة هذا التراث ونشر أصوله، وخاصة خلال القرن العشرين. فتألفت من خلال ذلك مكتبة تراثية عريقة ثمينة وواسعة للغاية، حفظت تراث لغتنا العربية في مجالات شتى، منها على وجه المثال: الأدب العربي، الشعر، النحو، الحديث الشريف، الفقه، التاريخ، الفلسفة والفكر الإنساني، الفنون، وسائر العلوم عند العرب من فلك وطب وهندسة ورياضيات وصيدلة وكيمياء. ومنها أيضاً الأدب الجغرافي العربي وأدب الرحلات.

وما دُنا بصدد ذكر تراثنا الجغرافي، فلا بُد أن نؤكد على أن لغة تياراً موازياً له، بصارعه ويستقي منه ويتممه، يُضفي بالغ الفائدة والمنفعة على تراث العرب، ألا وهو:

أدب رحلات الأوربيين إلى مشرقنا العربي! هذا البحث مع الأسف لم يتم الترتيب
الكافي عليه حتى الآن، رغم ما يستحقه وما يقدمه من فوائد لمنثقي العربية ودارسي
تراثها وتاريخها الحضاري والسياسي والاجتماعي.

هذه الرحلات لم تتوقف أبداً منذ أقدم العصور وإلى انبلاج دعوة الإسلام الحنيف،
فطفقت جموع الرّحّالين تتنابح على زيارة المشرق منذ عصر حضارة الإغريق
(كرحلات هيرودوتوس ونيارخوس، ورحلة الأناباسيس لكسينوفون الأثيني)،
وكذلك في عصر الزومان (كرحلة إيلبوس غالوس، ونطراف البحر الإريثري). ثم في
انقرون الوسطى حلّ القطع محلّ الفضول، واجتاحت جحافل الغزو اللاتيني مشرقنا
الإسلامي في موجة الحملات الصليبية، فمكثت فيه على الشريط الساحلي لبلاد الشام
مدة 200 سنة. وحاولت احتلال مصر وتونس لكنها أخفقت وارتدت على أعقابها.

فلما أطلّ القرن السادس عشر، بدأت مرحلة جديدة في هذه الملحمة الثقافية
والحضارية من علاقات الشرق بالغرب، فتضاعف إلى حد كبير عدد الرّحّالين
الأوربيين. الذين قصدوا المشرق إما للتجارة أو المغامرة أو الاستطلاع، أو لمجرد
الخروج بمؤلفات إبداعية فريدة. أما جزيرة العرب، معدن العروبة وأرومة قبائلها،
ومهبط الوحي وموئل لغة القرآن الكريم، فلا عرو أنها نالت من اهتمام رّحّالي الغرب
وجهودهم المُنظمة ومغامراتهم الشّاقة الشّيء الكثير، عبر خمسة قرون (من القرن
السادس عشر إلى القرن العشرين).. فجابوا بواديهما وفيافيها ومجاهلها، ناهيك عن
مدنها وبنداتها وقراها ومضارب بدوها.

هذا الإرث الإنساني الثمين والممتع والمفيد، الذي يضمّ العشرات من نصوص
الرحلات النادرة، تنابع "هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة" اليوم نشره بالعربية، في
مشروع ضخم يهدف إلى نشر أكبر عدد منه، وتقديمه للقارئ العربي بأرقى مستوى
علمي من التحقيق والبحث، وأجمل حلّة فنية من جودة الطباعة وتقديم الوثائق
والخرائط والصور النادرة.

هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة

المؤلف والكتاب

قد يكون توماس إدوارد لورنس *Lawrence of Arabia* أشهر من أن يُعرف، لكن محاولة تعريفه تصطدم بحقيقة أن العشرات من الكتاب والباحثين انغمسوا حول شخصية (لورنس العرب)، فمنهم من يراه جاسوساً ذكياً اندس بين العرب لأغراض استعمارية، ومنهم من اعتبره أسطورة إنكليزية، وبين هؤلاء وأولئك، وقف فريق ثالث يحاول التوفيق بين الزأيين. لقد حازت شخصية لورنس على تألق فريد نتيجة لثورة الجدل التي قامت حوله ولا تزال، وعلى حجم مشاركته وأهميتها في ثورة العرب الكبرى التي فتجها الأشراف الهاشميون أثناء الحرب العالمية الأولى. والتذين تناولوا شخصية «لورنس» من الغربيين اعتبروه أسطورة، وأوصلوه إلى الذروة، حتى وقف مع «نابليون» و«نلسون» و«تشرشل» و«برنارد شو» وغيرهم، كما اعتبروه ثروة قومية قام بكسر شوكة الأعداء من الأتراك والألمان، مما أدى إلى تقسيم المنطقة العربية، وتقديمها لقمة سائغة للغرب.

أما الشرقيون الذين كتبوا عنه، فقد حملوا في أذهانهم صورة المستعمر والجاسوس البريطاني ومفسد الأمة ومحطم دولة الخلافة الإسلامية وفانع الشرق أمام المستعمرين البريطانيين والفرنسيين، فهو لا أكثر من شكل من أشكال المستعمرين، وإن كان قد قدم نفسه بذكاء ودهاء إلى أن وصل إلى صانعي القرار وفعل فعلته وانسل.

وهناك صورة رسمها لورنس لنفسه من خلال ما كتبه في مذكراته وكتابه،

والوثائق التي أفرجت عنها وزارة الخارجية البريطانية. غير أن بداية ظهور أسطورة هذا الرجل الغامض كانت في محاضرة ألقاها في كوفنت غاردن بلندن الكاتب والمغامر الأميركي لويل توماس بدءاً من 14 أغسطس من عام 1919. وكتاب نشره عام 1924 في كل من لندن ونيويورك بعنوان: *With Lawrence in Arabia* «مع لورنس في جزيرة العرب». وما هو ذا نقدمه لقراءنا الكرام في هذه السلسلة، وإن كنا قد غيّرنا في عنوانه قليلاً ليلائم الذائقة الأدبية العربية بثت أفضل.

أما مؤلف الكتاب لويل توماس Lowell Thomas فهو كاتب وصحافي ومذيع ومؤلف أميركي شهير، ولد في وودبنغتون بولاية أوهايو عام 1892، ومنذ كان في العشرينات من عمره عمل مراسلاً حربياً في أوروبا والشرق الأوسط، إبان الحرب العالمية الأولى وحروبها الطاحنة. يعود إليه التسبب في خلق أسطورة توماس إدوارد لورنس كبطل جماعي، باعتماد المبالغة والتزيينات الخيالية والحكايات الدرامية التي يخالف الكثير منها بُعد شاعري، ويرى الكثيرون من مثقفينا العرب أن ذلك كان ينطوي على مبالغة كبيرة وإغفال لدور العرب أنفسهم في حوض الحرب وإدارتها، ونسب فضلها الأكبر للورنس وزملائه من الضباط.

وبعد ذلك اشتهر لويل توماس بأحاديثه الإذاعية على راديو CBS وبرامجه التلفزيونية التي بدأت منذ عام 1930 ودامت لجيلين كاملين منذ بداية عصر التلفزيون، وعدا ذلك صدر له أكثر من 50 كتاباً حول رحلاته ومغامراته القيمة. ومنها هذا الكتاب الذي صدرت منه عشرات الطباعات وبيعت منه أعداد قياسية فاقت المؤلف في ذلك العصر.



بعدما كما نشرنا في هذه السلسلة كتاب لورنس «ثورة في الصحراء»، يسرنا أن نردفه بهذا الكتاب الشائق والممتع، الذي لم يطلع عليه قراء العربية حتى الآن. وقد اعتمدت على الطبعة الأولى التي صدرت بلندن عام 1924 وكذلك على طبعة أخرى مماثلة

صدرت في نيويورك بالعام ذاته، بالإضافة إلى الطبعة العشرين التي صدرت عن دار
هتشينسون بلندن حوالي عام 1930 وتمتاز بزيادة كبيرة في الصور.
والحمد لله على ما وفق وأعان.

حبل- 20 يناير 2012

د. أحمد إيهش

توماس إدوارد لورنس بين الواقع والأسطورة

عند استعادة تاريخ الكولونيل توماس لورنس، نلاحظ أنه جُسد كشيء يفوق قدرات البشر: شخصية لا يمكن رسم ملامحها وسجايها ييسر. ومع أنّ المؤلفات الكثيرة المختصة بسيرته الذاتية والروايات الشعبية حوّه، نغرينا بأن نرسم ملامح وسجايها شخصيته، شيء من التبسيط، فإن الحقيقة تؤكد، على أننا هنا، إزاء رغبة عصية على التحقيق، من ناحية أخرى، جسدت شخصية لورنس، بنحو نادر المثال، التحول من البطل إلى نقيضه، والذي ترك بصماته على أدب القرن العشرين بلا أدنى شك.

إلا أن توماس إدوارد لورنس، لم يكن من صبح الخيال الأدبي. فلقد عاشت هذه الشخصية وعانت حقاً وحقيقةً. وبما أن لورنس كان قد غدا أسطورة في أيام حياته، ولما كان قد حجب شؤونه الخاصة عن نطق الصحف، لم يُحيط الرأي العام علماً، بروحه المتشككة، وبمعدى ما تعانيه هذه الزوج من عذاب. وعلى خلفية هذه الصورة، التي رسمتها له وسائل الإعلام، وهي صورة دأبت على جعله من عالم غير عالم بني الإنسان، استبقت شخصيته الزمن، وراحت تشير بإصبعها إلى المستقبل، محدثة منذرة مقاً بضمير عصرنا.

ومهما كانت الحال، فإن مفارقة الصحافة له، عكّرت عليه مباحج الحياة، وأضاعت عليه مرتين فرصة العمل، التي هويها من القلب، نعني عمله في القوى الجوية. ولمرات كثيرة، وحتى قبل فترة وجيزة من وفاته، تعيّن على لورنس أن يهرب من ملاحقة الصحفيين له، حتى توفي إثر تعرضه في عام 1935، أي في السادسة والأربعين من

الحمر، لحادث مرور، كان سببه يعود إلى سقوطه من دراجته النارية، التي كان يقودها بسرعة كبيرة، ليس هروباً من ملاحقة الصحفيين له، إنما هروباً من روحه وذاته.

وإذا كان قد خُلف ميراثاً محيَّناً، فإن تأثيره السياسي في الشرق الأوسط - هي البداية، بصفته ضابطاً بريطانياً كلفته بلاده بالاتصال بالقوات العربية المتمردة على الحكم التركي، ومن ثم، بصفته دبلوماسياً شارك في مؤتمرات، كانت ترمي، إلى إعادة رسم خريطة الشرق الأوسط، بعد انهيار الإمبراطورية العثمانية - لم يبق منه إلا القليل، أو، وتعبير أصح، لم يبق منه أي شيء في الواقع. ومن وجهة نظر اليوم الزاهن، يمكن القول، إن ميراثه أصبح ذا طيعة معنوية صرفة. إنه ميراث إنسان دأب، بكل إصرار، على رفض الاتجاه العام، دأب على رفض ما ينظره منه المجتمع، إنه ميراث إنسان ناضل، تحت وطأة عذابات يتنة، ملموسة، من أجل تحقيق القيم التي آمن بها، والأهداف التي كان يشدها، والعشال العليا التي كان يهتدي بها، محاولاً، بموهبة يتميز بها العباقرة، تحقيق ما كان يناضل من أجله، في العديد من مناطق العالم. وقصّل لورنس، الإنسان الذي كان قادراً بيسر أن يكون وغير الثروة المالية، أن يكسب قوت العيش من خلال ترجمة الإبادة هو ميروس إلى الإنكليزية نقلاً عن نصها الإغريقي الأصلي.

هذه الترجمة، لا تزال جديرة بالقراءة، باعتراف الكثير من أهل الخبرة. وكان لورنس قد أثر العمل الميداني في موقع أثري سوري، لسنوات عديدة، وفي ظل ظروف قاسية، على ممارسة العمل الأكاديمي في مدينة أوكسفورد، كمحاضر في علم الآثار. وأدرك، في وقت مبكر، ما تقدمه الصور الفوتوغرافية، من فرص كثيرة ومهمة، فكلّف أصحاب الشأن بتصنيع آلة تصوير تناسب متطلباته، معروضة الآن في متحف العلوم في مدينة أوكسفورد كأثر يحظى باهتمام الزائرين وإعجابهم. وبهذه الكاميرا استطاع لورنس أن يوثق ما قام به من عمليات تنقيب وما اكتشف من تحف أثرية. وكانت قيادته للثورة العربية على الحكم العثماني، في الحرب العالمية الأولى، قد مكنته من توثيق هذه الثورة، والمناظر الطبيعية في جزيرة العرب، من خلال صور فوتوغرافية مثيرة للدهشة. وبإعجابه الشديد بالاكشافات والابتكارات التكنولوجية الجديدة. كان لورنس

ابن عصره فعلاً، كان ابن عصره ليس بمعنى أنه كان يهرول وراء هذه الاكتشافات والابتكارات، وليس بمعنى أنه كان يحاول تقليدها، بل بمعنى أنه كان يسبق عصره دائماً وأبداً، ولو بخطوة واحدة. وإذا كان الشاعر الفرنسي زيمو قد كتب عام 1870: «على الإنسان أن يكون عصرياً بلا قيد أو شرط»، فإن الأمر الذي لا شك فيه، أن لورنس كان عصرياً بكل المعنى وأن زمانه لأنصار العلوم لم تكن بمحض الصدفة قط.

إن التحرك بسرعة فائقة، حظي بإعجاب لورنس على مدى حقب طويلة من حياته، وأنهى هذه الحياة أيضاً فهو دأب على قيادة أحدث وأفضل الدراجات النارية، التي كانت تنتجها المصانع الشهيرة التابعة للشركة الإنكليزية Brough. عندما كان قيادة الدراجات النارية هي الهواية الوحيدة، التي كان لورنس يتمتع بنفسه بها، والتي كان يوظف شهرته من أجلها، حينما لا يكفي ما لديه من مال لاقتناء أحدث طراز. ولما كانت الرحلة بالياخرة من إنكلترا إلى القاهرة تستغرق زمناً طويلاً، ولا تنتهي طموحه للتحرك بسرعة فائقة، فقد استقل لورنس برغم المخاطر، طائرة تقادم عهدها ما قبل الحرب العالمية الأولى.

وبالرغم من هبوط الطائرة بحوادث اضطراري، انتهت هذه الرحلة بحطم الطائرة ومقتل القبطاين وتعرض لورنس لكسر في الشقوة. وانضم لورنس، في الزمن التالي، إلى وحدة من وحدات سلاح الجو، كانت مكلفة بتطوير واختبار قوارب سريعة، كان المراد منها انتشال الطيارين، الذين تسقط طائراتهم في البحار. وكان انضمام لورنس إلى هذه الوحدة قد استرعى انتباه صحيفة «صندي كرونكل» *Sunday Chronicle*. إذ نشرت هذه الصحيفة في الثامن والعشرين من أغسطس عام 1932 تحقيقاً صحفياً بعنوان: «الكولونيل لورنس: الرجل الذي يقف وراء ما لدى بريطانيا العظمى من طائرات وسيارات وقوارب سريعة». ومع أن الجزء الأعظم من التحقيق الصحفي، كان من محض الخيال، إلا أنه مع هذا أراح الستار عن واحدة من سجايا لورنس.

كان النوع بالكتب واحداً من الأمور التي ما كان هذا المتقشف، غريب الأطوار، قادراً على مقاومتها. وعلى خلفية هذا النوع انجموح، كان لورنس يهتم، طوال حياته،

أن يقدوا ناشرًا، متخصصاً بنشر الكتب بطبعات فاخرة. من هنا، لا عجب أن نراه ينشر مؤلفه الرئيسي، «أعمدة الحكمة السبعة» *Seven Pillars of Wisdom*، كاملاً، أي بلا حذف أو اختصار، وبطبعة فاخرة، مكلفة مالياً، وغنية بالصور الملونة، ويعجز عن دفع ثمنها القارئ العادي. غير أن لورنس قد أجاز نشر طبعة عادية، في السوق الأميركية فقط، ودُرّت عليه هذه الطبعة الكثير من المال. ويعود ترداد لورنس في مسألة نشر مؤلفه الرئيسي، إلى إعلانه من قيمة التأليف الأدبي.

وإذا أخذنا بالاعتبار، أن لورنس قد أصاب حقيقته الصغيرة، الحداوية على مخطوطة، كادت أن تكون نسخة كاملة من مؤلفه «أعمدة الحكمة السبعة»، في صالة الانتظار الكائنة في محطة قطار تابعة لقرية صغيرة، وأنه لم يعثر على هذه الحقيبة ومحتوياتها قط، تبدو لنا هذه الواقعة كما لو كانت واحدة من زلات اللسان، التي أشار إليها سيغموند فرويد، كما لو كانت زلة لسان، افتراها أديب بلاوعي ومع الإصرار، أديب دأب على تأجيل الانتهاء من كتابة ونشر مؤلفه الرئيسي، المرة تلو الأخرى. إلا أن ذاكرة لورنس القوية، وحقته العالية، وحماسه المتميزة، انتصرت في نهاية المطاف: فقد كتب، من جديد، كل ما سبق له أن كتبه في المخطوطة الضائعة.

وتطوي ممارسة توماس إدوارد لورنس لعملية التأليف على معنى آخر، فلورنس خطط لكتابة مؤلف بعنوان «أعمدة الحكمة السبعة»، في وقت مبكر، أيام عمل متقياً أثرياً في سوريا. وكان قد استقى العنوان من العهد القديم، من أمثال سليمان، الإصحاح التاسع، الفقرة 1، إذ يرد هناك: «الحكمة بنت بيتها. نحت أعمدتها السبعة». وكان لورنس ينوي تأليف كتاب يصف رحلة إلى بلاد الشرق، يتحدث فيه لورنس عن كافة المدن التي تعرف عليها بالعيان باستثناء بغداد: القسطنطينية، القاهرة، سميرنا (إزمير حالياً)، حلب، القدس، دمشق، بغداد. وحين صدر هذا الكتاب، في وقت لاحق، (عام 1926 بطبعته الفاحرة، وعام 1927 في الولايات المتحدة الأميركية بطبعة شعبية مختصرة، وفي عام 1935 كطبعة عادية كاملة) بنفس العنوان ولكن بمحتوى مختلف، بمحتوى يتناول وقائع الحرب، كان لورنس قد غدا شخصية شهيرة، ذائعة الصيت،

وكان الكتاب قد بات، خلافاً لمعايير لورنس الأدبية، مذكرات تسرد الوقائع الحربية، مثلها في ذلك مثل مؤلفات أخرى كثيرة، تناول فيها مؤلفوها الوقائع الحربية بمستويات أدبية متباينة، وأغرقت بها دور النشر المختلفة الأسواق بعد نهاية الحرب العالمية.

أضف إلى هذا، أن مؤلف لورنس كان قد جسد، أيضاً، نوعاً من أنواع أدب السيرة الذاتية، وجسد أيضاً أنسب السيرة الذاتية لشخصية ذائعة الصيت - وبالتالي فإنه، ما كان أدباً رفيعاً، يتناول سيرة مستوحاة من وحي الخيال، بل كان مؤلفاً يستعرض عن كتب وقائع تاريخ معاصر، ويرسم صوراً لشخص حقيقيين معروفين، كان لورنس محققاً فعلاً حين خشي أن تؤدي الصورة، التي يرسمها لهم، إلى توريثه في خوض نزاعات معهم (أو لنقل: إنها وريثه فعلاً في خوض نزاعات معهم).

إلا أن ثمة جانباً آخر أكثر إشكالية: فعلى نحو لا مفر منه، تعين على المذكرات المتناولة للوقائع الحربية بأسلوب أدبي رفيع، والمكتوبة بقلم بطل خاض غمار الحرب وذاع صيته في كل الآفاق، أن تكتسب الشهرة من شهرة بطولات مؤلفها وأن تزيد من شهرة هذه البطولات أيضاً.

إلا أن هذه الحقيقة، لا تغير شيئاً، في الإشكالية التي تنطوي عليها «أعمدة الحكمة السبعة»، أعني كونها مذكرات، تتناول وقائع حربية تارة، ومؤلفاً أدبياً، رفيع المستوى والأسلوب، تارة أخرى. بيد أن هذا الكتاب أكثر من سيرة ذاتية، ومؤلف أدبي: فمن بين المتطورات، يلخص القارئ، دفاعاً سياسياً عن حق العرب بالاستقلال، ويستنتج إدانة قوية، للاستعمار البريطاني، ويعيش أجواء هيام واضح بالتضاريس الطبيعية في شبه الجزيرة العربية، ويسمع نغماً صادقاً بأسلوب الحياة البدوية، ويكتسب صورة لا محل فيها لآية ضغينة دينية، أو لأي عدااء للإسلام. هذا التنوع هو الأمر الذي يجعل من «أعمدة الحكمة السبعة»، مؤلفاً يستحق القراءة، في يومنا الحاضر أيضاً، من غير أن يرى المرء فيه فقرة من القمم الأدبية بالضرورة. ومهما كانت الحال، فمؤلفه هذا، جعل لورنس من نفسه، سواء عن قصد أو بلا قصد منه، أسطورة ترتو إليها الأبصار. وعلى ما يظهر، كان الأمر قد بدله مختلفاً اختلاقاً كلياً: فإن لم يكن لورنس قد أراد تفنيد

التصورات، بشأن خصائصه الأسطورية، تنفيذاً تاماً، فإنه أراد وضع هذه التصورات في نصابها على أقل تقدير.

وفي الأصل، كانت بدأت التصورات المتحدثة عن خصائص لورنس الأسطورية، جزءاً من الدعاية، التي اعتمدتها أوق الدعاية الرسمية، إبان الحرب. ويجري التنويه بهذه القصة في الفيلم السينمائي الشهير العائد إلى عام 1962 (إخراج: دافيد لين)، والذي لعب فيه الممثل البريطاني الكبير بيتر أوتول شخصية لورنس.



ومن أجل كسب تأييد الجمهور الأمريكي - علماً بأن الولايات المتحدة الأمريكية قد شاركت في الحرب عام 1917 - للقبضة التي يحارب الانحلاء من أجلها، أرسلت وزارة الحرب البريطانية فريقاً صحفياً إلى القاهرة، مكلفاً بتوثيق الصراع، الدائر من أجل تحرير القدس، والأراضي المقدسة، من قبضة العثمانيين، المتحالقين مع ألمانيا. فالحرب الدائرة وحالها في هذا الميدان، كانت تفصح عن منظور أكثر إيجابية، مقارنة بالخسائر المادية الفادحة، التي رافقت الحرب الدائرة وحالها في الجبهة الغربية. وكانت القيادة العسكرية في القاهرة، قد اهتمت إلى فكرة إرسال مصور ومراسل صحفي، إلى جزيرة العرب، ليرافق الجيوش العربية المتمردة والضابط توماس ادوارد لورنس، الذي كان مكلفاً بالتنسيق مع هذه الجيوش.

وكان الصحفي لويد توماس والمصور العراقي تيساي، قد أدركا في الحال ما تنطوي عليه عمليات لورنس من قيمة إعلامية (كما يشهد على هذه النظرة الفيلم السينمائي أيضاً، الفيلم المعروف باسم لورنس العرب). على صعيد آخر، كان لورنس قد غدا شخصية يتردد اسمها كثيراً في الصحافة الأوروبية بعد عام 1918، أي بعد استيلاء الجنرال البريطاني ألبي على القدس. فبعد هذا الحين، كان لورنس قد تحول حقاً إلى بطل محارب، إلا أنه ما كان بعد الرجل الأسطوري والنجم الساطع في وسائل الإعلام. إنه غدا هذا كله، إثر النشاطات التي مارستها لويد توماس، بعد انتهاء الحرب.

فبما كان لديه من صور - كان لويل توماس على المادة انضورية، ثنية تنامي
رغبة الجمهور بعد انتهاء الحرب - التي كتبت خاتمة فلاحية في الأرواح والأموال -
لروية معنى إيجابي في هذه الحرب ولمشاهدة بطل من طراز أبطال العصور القديمة.
وبهذا المعنى، فإن أسطورة لورنس لم تنشأ جراء أداء عسكري يفوق العادة (نقول
هذا حتى وإن كان البعض يسمي جاهدًا لإظهار هذا، لأداء بهذا المظهر)، بل كانت
مهيئة وسيلة إعلامية جديدة، كان لورنس، نفسه، قد أولع بها أثناء العمل: التصوير
الفوتوغرافي.

وعلى خلفية الصور التي جمعها من رحلته في الشرق الأوسط، راح توماس
يلقي محاضرات توثقها أحدث وسائل عرض الصور. وكانت سلسلة المحاضرات
قد بدأت في الرابع عشر من أغسطس عام 1919، في دار الأوبرا الملكية المسماة
Covent Garden، وفي الثاني من أكتوبر عام 1919، كتبت الدائلي تلغراف: «من
خلال الصور التي عرضها على الجمهور، أصبح مستر لويل توماس على لورنس، صفة
الإنسان المتحيز، بكل تأكيد». وهكذا، نشأت من الآن فصاعدًا أسطورة لورنس

وفي غضون أربعة أشهر، زار هذه المحاضرات في لندن أكثر من مليون من البشر،
بما في ذلك أفراد من العائلة المالكة وقادة سياسيون كثيرون. وفي السنتين التالية،
استمع إلى هذه المحاضرات، ما يقرب من أربعة مليون فرد! وبحسب ما كتبه مؤلف
سيرة لورنس، جيريمي ولسون: «رأى المرء في حملة فلسطين آخر حملة صليبية.
وتأسيساً على هذا المنظور، رأى لورنس أنه قد بات يدفع، دفعاً لا قوة له على مفاهيمه،
للعب دور البطل القومي».

وبالنسبة إلى لويل توماس، كانت هذه المحاضرات، يتبعاً ما لباً لا يتضب، ونأى
لورنس يتمسه عن الضجة الدائرة من حوله، إلى أقصى حد ممكن. وفي العاشر من
يناير من عام 1920، كتب إلى واحد من معارفه اسمه تيري فانلا: «إن هذه المحاضرات
قد بلغت أقصى درجات الشاعرة والمقت، وباتت تعكر عني صغر الحياة، وذلك لأنني
لا أمتلك المال الكافي، ولا تسودني الرغبة انضورية لمواصلة لعب الدور المدي

صوّرتني به، أعني دور الذّجال. وكان (يقصد لويل توماس) قد ناشدني أن أراجع مخطوطاته، إلا أن رجاءه هذا كان بالنسبة لي أمراً مستحيلاً، وذلك لأنني ما كنت سأوافق ولا حتى على عشرة بالمتة، فما جاء في المخطوطات. فالمراجع ما كان يعلم أين يبدأ في تصويب المعلومات الزائفة.

وكانت المحاضرات قد تعرّز صداها، بفعل مؤثرات أخرى، مؤثرات حقاً ما كان لورنس دور مباشر في نشأتها، إلا أنه ساعد على نشأتها بنحو غير مباشر، وبلا قصد منه. فعزوفه عن التّحدث إلى الصحافة ترك الألسن تتداول الإشاعات بلا انقطاع. فلمورنس كان قد رفض حتى طلب الصّحيفة المرموقة الثّابتر لإجراء حديث صحفي معه، وذلك بتبرير جاء فيه: «إني أعتذر عن إجراء اللقاء الصحفي. فأنا لا أهتم أبداً بما يزعم الناس بشأني أو بما يقولونه عني. إني أتمادى تماماً مساعدتهم في هذه السّاحي، ولن أدلي برأيي في هذا كله أبداً. إنه لأمرٌ محرج فعلاً، أن يقرأ المرء اسمه على صفحات النّجراند - ومع أن لويل توماس يعرضني على الجمهور بأسلوب مؤذّب ينم عن لطف ومجاملة، فإني أتمنى من القلب أن يتركني خارج عروضة المسرحية».

وكيفما نفق، فالأمر الّتين هو أنّ فضول الصحافة قد ازداد كثافة، بفعل نكتمه على ما ينوي عمله مستقبلاً. واستناداً إلى موافقة القيادة العسكرية، عاد لورنس عام 1922 إلى العمل في صفوف القوات المسلّحة باسم مستعار «شو» Shaw وبصفته جندياً بسيطاً في السّلاح الجوّي (علماً بأنه كان برتبة كولونيل إبان الحرب). وحين تعرّف النّاس على حقيقة الشّخص المُنخفي خلف الاسم المستعار، تصاعدت كثافة الشّائعات وتعين في صيف عام 1928 نقل لورنس إلى وزيرستان في الهند التابعة للتّاج البريطاني. أي نُقل إلى المنطقة الحدودية المجاورة لأفغانستان. وعندما تسرّب الخبر إلى وسائل الإعلام، كان بوسع الجمهور أن يقرأ في صحيفة «يغنينغ نيوز» *Evening News* الصّادرة في السّادس والعشرين من سبتمبر عام 1928 خبراً مفاد: «لورنس العرب في مهمّة سرية، يكافح ضد النّاشطين الحمر في التّجانب. ويقعّص هيئة رجل دين برقي ويُسّني المرضي».

وحين اندلعت الثورة في أفغانستان فعلاً، بعد أسابيع وجيزة من وصول لورنس إلى الهند، تصاعدت كثافة الشائعات إلى حد دفع البريطانيين لأن يسحبوا لورنس من المنطقة الحدودية. وفي الحقيقة، فإن لورنس لم يكن في أفغانستان قط، بل راح، من نكته الثانية بترجم إلياذة هوميروس من جديد، ونقلًا عن اللغة اليونانية القديمة - وبهذا المعنى، فقد عزت الحقيقة زيف هذه الشائعات بنحو نادر الوقوع فعلاً.

وحين عاد لورنس إلى بريطانيا، كان في انتظاره في الميناء حشدٌ من الصحفيين، على صعيد آخر، أثارت مشاركته التالية في تطوير قوارب الإنقاذ السريعة، بتكليف من سلاح الجو، التكهّنات والإشاعات ثانية، كما هو يتّضح من محتوى التقرير الصحفي المنشور حول «العقيد لورنس، الخبير العامل باسم الحكومة في مجال السرعة الفائقة»، وربما انطوى الأمر على معنى خبيث، إلا أن الحقيقة البينة، تشهد على أن وفاة لورنس المبكرة، إثر تعرّضه لحادث مرور أودى بحياته في العام 1935، قد أحاطت شخصيته، أكثر فأكثر، بانغموس والمأساوية، وحصر مراسيم دفته رموز الحياة السياسية والاجتماعية في بريطانيا، بما في ذلك ونستون تشرشل.

ومع نهاية الحرب العالمية الثانية - وما تلا هذه النهاية من إعادة رسم خريطة الشرق الأوسط، هذه الخريطة التي أنهت تماماً آخر ما مارس لورنس من جهود عملية في سياق حملته في بلاد العرب - ومع ظهور أبطال جدد في الساحة، وولادة وسائل إعلام ذات تأثير واسع، كان ممكناً أن تفقد أسطورة لورنس، الكثير من بريقها. إلا أن الحقيقة تبين أن وسيلة إعلامية مختلفة قد تكفّلت بأن تواصل الأسطورة وجودها: الفيلم السينمائي، أو لنقل الفيلم السينمائي التاريخي، الذي أنتجته هوليوود بأسلوب فني رفيع المستوى، بأسلوب يكاد أن لا يكون له مثيل في اليوم الزاهر، وبأشهر ممثلي ذلك العصر، بممثلين كانوا قد غدوا هم أنفسهم أساطير: أليك غينيس، بيتر أوتول، عمر الشريف، وأنطوني كوين.

نقاط حول الترجمة

عند ترجمة الحروف والاسماء الأجنبية، يواجه القارئ العربي دوماً خللاً كبيراً لم يتمكن مجامعنا اللغوية من حسمه إلى اليوم. لكن بما أن هذا الأمر يحتاج إلى بحث متفبض، أقتصر هنا على ذكر سبع نقاط:

1- بخصوص حرف الجر الفرنسي *de* أو *du* لا أتبع أبداً طريقة مثقفينا بلتان بعربية: دو، ولا طريقة مثقفينا بمصر بتعريبه: دي. إنما الأفضل برأيي اتباع طريقة اللغة التركية العثمانية القديمة: (دى) بالمطلق. هذا في الاسماء الفرنسية، أما في الاسماء الإيطالية والإسبانية فأتركه: دي.

2- الحرف (ج) يُلفظ: نش، كما في اسم: جركس، لاجين، سلجوق. وهو ليس بحرف عربي، وبمائه في الإنكليزية *ch* كقولك: *chuck, church*. وأيضاً *ch* في الإسبانية كقولك: *leche, mucho, chica*. وكذلك بمائه في الإيطالية حرف *c* المتنوع بحرفي العلة *e* أو *i* كقولك: *ciao, Cesare*. وبمائه في التركية حرف *ç* كقولك: *çay, çok, çinar*. لكن مع أنني أكتب بعض الأسماء: چسنر، فراتچيسكو، چيكو، بحرف (ج) فلغة أسماء تستعصي لشهرتها بصيغة (نش)، مثلاً: نشارلر، تشرشل، شميلي. وحرف (ج) ما زال يستخدم في العراق، كقولك: أحتج، سلوج، باجة. لكنه يُستخدم في مصر بشكل مغلوط جداً (فيكتيون: جورج) لترجمة الجيم المعطشة المرفقة، التي يُعبر عنها في التركية العثمانية والفارسية والأوردية بحرف: ژ، وبمائلها في الفرنسية والهولندية *z* والإنكليزية *zh* والروسية *ж* والبولونية *z* واليهودية *ז*.

3- أما عقدة الترحمة الكبرى فهي حرف G الذي أعجز مجامعنا اللغوية، فاسم Google يُكتب بمصر: جوجل، وفي الشام: غوجل، وفي العراق: گوگل، وفي السعودية: فوجل، وفي المغرب بكاف موسومة بثلاث نقاط، وفي تونس: فوجل، وفي فلسطين: جوجل، إذ يعزبون لوحات الطرق: جلعاد، جددعون، جُدُول، رامات جان (عندما أن ٦٥ هي ذاتها جنة بالعربية أي حديقة). المجموع: 7 طرق لكتابة الحرف G! ومنذ مدة قرأتُ على شبكة الإنترنت نزاعاً طريفاً حول كتابة اسم Lady Gaga: أي ليدي غاغا أم جاجا أم فاذا؟ وكم أشعر بالفراغة عندما أقرأ: لقمرس، فوديز، كنوقز، قلف. ومن مظاهر التشويش الذي يفرضه الأمر أن بعض الكلمات صارت تُلفظ مغلوطة بحجم شجرية: جَلُط Galant، كتالوج Catalogue جندول Gondol.

هذا الحرف تصفّه اللسانيات العربية باسم (الجيم اللهوية) تمييزاً له عن (الجيم الشجرية) المشبعة، ويقع لمطابق بين الجيم والكاف والقاف، وعلى الرغم من أن أصله في لهجات العربية القديمة جيم (وبقي بلفظه في اليمن ومصر) فأرى الأجدى والأدق (في الوقت الحاضر) اتباع أسلوب أجداد العرب في الأندلس بترجمته غيناً، كما عربوا مثلاً: غرناطة، البرتغال، بُرغش، أرغون، لكن على أن نسميه بثلاث نقاط: (غ) تمييزاً له عن الغين العربية المشبعة.

لكن مع ذلك، علينا أن نبتدع لهذه الأرمة حرفاً جديداً لا يلتبس: أي جيم موسومة برمز مميز: ولتكن بقلم المُعيد الجُميري البعاني، أو جيماً كنعانية، نحتها أو فوفها على طريقة حروف لغة الأردو. لكن متى ترانا تفعل؟! ولماذا الجيم دون الغين أو الكاف؟ لأن «السماتيات التيمانية» تحتمل الإقلاّب بين الجيم المشبعة وهذه الجيم اللهوية، التي حافظت عليها القبطية بمصر كاليونانية ٧ المفتقرة إلى جيم مشبعة، وبقيت في لهجة اليمن عن أصل العربية الجنوبية القديمة، وما زالت في العبرية والثرانية كالجيم المصرية.

الواقع أن الفرنسيين كانوا أكثر حذقاً منا عندما حلّوا مشكلة لفظ حرف G بين جيم شجرية وجيم لهوية، بأن أضافوا إليه ببساطة حرف u كقولهم: guérir (غيرير) أو كما

في اسم: Guillaume (غُيَوم). وكذلك حلّ الطليان المشكلة بإضافة حرف h كقولهم: Ghisi (غُيزي). وهذا طبعاً في الأسماء التي يتبع الحرف i بها حرفا العلة e أو i، أما عندما يتبعه حرف ساكن أو حرفا العلة a أو o فلا مشكلة، ويُلفظ جيماً لهوية. والأمير ذاته مع حرف C في الإيطالية فأضافوا إليه h حتى لا يُلفظ (تش)، كقولهم: chiaro (كيارو)، Chievo (كيفو).

وأما الأثر الك، فأيضاً حلّوا الأزمة بشكل حاسم قديماً وحديثاً: فبالعثمانية القديمة تُكتب الجيم الشجرية كالعربية ج، وأما اللهوية فاستعاروها من الفارسية گ. وفي التركية الحديثة بالأبجدية اللاتينية جاء الحل بشكل سهل وذكى، فخصصوا حرف g للجيم اللهوية، كقولهم: gerçek (غِرْجَك)، وحرف c للجيم الشجرية، كقولهم: geveler (غُجَلَار)، Avcı (أَوْجِي)، Cem (جَم).

أما الألمان فقد ارتاحوا من عناء هذه المشكلة، إذ ليس لديهم جيم شجرية أصلاً بل لهوية فحسب، كما في: Gewehr (غُفِير)، وإن أرادوا رسم الأسماء العربية لفوا الشاربع، كقولهم في 'جبل': Dschehel، حيث أن حرف j (بوت) هنا لن يفيد. فهو تلفظ ياء بالمعنى. وأما لدى الإسبان، فحرف G له أحكام بطول شرحه، فالأصل في القشتالية أن يُلفظ جيماً لهوية (غ)، وإذ تلاه e أو i يلفظ خاء، ولذا يضيفون u عند النروم كما في: Miguel ميغيل. ومن الساحة الصوتية اللفظية ثمة مناطق تلفظه غيماً لهوية، وسمعتُ بأذني في غرناطة من يلفظ اسم Aragon: 'أَرَاغُون'، وليس أَرَاغُون. هذا عدا عن أن حرف G يلتبس نفضياً مع j الذي يلفظ أيضاً خاء مع كل حرف صوتي. كقولك: Jerez, Jiménez, Jaén, Juan, Jordi.

لكن التعبير في العربية عن حرف الجيم اللهوي بكتابته جيماً (كما في مصر) أو قاف (كما في السعودية) يمكن حسم ثطلانه بلحظة واحدة: احتكموا إلى لغة القرآن الكريم، ففيها الجيم حرف شجري مُشبع لا يحتمل تأويلاً ولا تفسيراً، والقاف حرف لهوي مُشبع. وكلاهما من حروف القلقلة. ثم إن الجيم لا تصلح للتعبير عن جميع الكلمات الأجنبية، وحتى في مصر لا يمكن لأحد أن يكتب: جرناطة، بُرُتْجَال،

بلحاريا، محنطيس، إجرين، شبيكاخو... أم هل نسئ التبرغل مثلاً: توجبل؟ (وهي كلمة معربة عن التركية bulgur).

4- ثمة أسماء في اللغة الفرنسية تنتهي بكسرة فمائة مزدوجة، على غرار اسم: Colet أو René أو Gervais أو Gamier، ونظراً لانعدام وجود الكسرة الممالة في العربية (كما هي في السريانية والعبرية مثلاً) فإن التباساً نشأ في طريقة نقل الاسم إلى العربية. وفي المغرب العربي تشيع طريقة غير صحيحة البتة باستخدام الياء وحدها كقولهم: لويز كولي (وهي أديبة ورحالة فرنسية)، رغم أن اسمها هو: Louise Colet والياء هنا لا تؤدي المنطوق الصحيح أبداً. كذلك نلاحظ في أسماء الأرمس مثل: Vahé. Shahé أنهم يكتوبونها بالعربية في لبنان وسوريا: واهي، شاهي.

فيذا عدنا إلى عهد عظماء كتاب العربية في العصر العباسي، نجد أن هذه المعضلة التي واجهتهم في الأسماء الأعجمية قد حلوها على نحو أدق باستعمال ياء وهاء. كقولهم: سيويه، خسرويه، حمارويه، حاثويه، نفظويه. وهذا يضارع أسلوب زمرة اللغات الكنعانية باستعمال الكسرة والهاء، كقولك: أريه، موشيه. وهو قطعاً التحل الأمثل للمعضلة، وسنتبعه فنكتب الأسماء الفرنسية: كولييه، رُتيه، غارنييه، جرثيه. والأسماء الإسبانية: خوسيه، يكيه.

أما في الأسماء الإنكليزية، فرغم تشابه حرف a أو ثنائية ay مع الكسرة الممالة، تبقى مدتها طويلة، ولذا نكتب Gray غراي، Mabel: مايبل.

أما في الأسماء التي تنتهي بكسرة فمائة قصيرة، فتكفي بالعربية كسرة وهاء، كما في الاسم الإسباني Condé كونديه، أو Enrique إنريكه، والألماني Porsche بورشه، أو Pritzke بريتكه، والهولندي Goeje جوَّيه، والبولوني Tyskie تيسكه، والإيطالي Simone سيمونه، أو Michele ميكيله.

5- نصر في هذه التسلسلة على كتابة الأسماء الأجنبية كما ترد في لغاتها، لا كما تمت قولبتها بالإنكليزية والفرنسية. فالأصح بالألمانية: مدينة لايبزيك وليس

لايسغ، زوليجن وليس مولنجن، تولن وليس كولونيا، فلهلم وليس ولیم، ويخارد وليس ديتشارد. ثم نكتب أمير كا وليس أمريكا، فارشافا وليس وارسو، براغا (براه) وليس براغ. بيچينغ وليس بكين. وفي البر تغائية الأصح نعط: كريشنيانو، كوشتا، حوزيه، جواو. ولكن ثمة أسماء رسمت بشكل مغلوط في الأذن العربية مثل: برشلونة (وصوابها بالنقط لانية: بارثيلونا)، دون كيشوت (وصوابه بالنقش لانية: دون كيخوته)، ماريز أو باريس (وصوابه بالفرنسية: پاري)، لويس (لوي)، ملك القدس جاي أوف لورحنان (غي دي لوزيان)، ولیم العُصوري (عُثيوم)، برج إيفل (وصوابه: أبفل).

لكن أعجب ما أسمعُه هنا في لبنان. أنَّ أحفاد كتعان العاشقين للفرنسية بصرون على لفظ الكتني الأرمنية المنتهية جميعها بلا حقة: ian بلفظ فرنسي فيه عُنَّة، كما لو كانوا يلفظون اسم Evian أو Christian، حتى لم يسلم من ذلك الاسم التركي إردوغان Erdoğan الذي بات وكأنه فرنسي ابن فرنسي، علماً أنَّ ثمة سبباً في التركة يسمى: Yumuşak Ge أي الجيم الطرية، نلغظ كلمة مكتوبة لا كعفين، كقولك: Dugan دو آن، أو: Ağaç آج

6- حرف الـ ا يكتب ولا يُنطق بجميع اللغات اللاتينية: الإيطالية والإسبانية والبرتغالية والفرنسية والرومانش والرومانية، ما خلا حالة في البرتغالية بأخر الكلمة مع الألف والنون فيقرأ بألف، مثل: Covilhã كوفينيا، filha فيليا، Mourinho مورينيو. وعلى ذلك، فمن الخطأ نطق الاسم الفرنسي هنري بل أنري، وهو بالأبغائية إنريكو، والإسبانية إنريكة. وأيضاً فيكتور أوغو Victor Hugo وليس هيجو أو هيفو.

7- وأغرب الأمثلة هي الأسماء العربية التي ترد على ألسنة المسلمين من غير انعرب، فسندوها بصيغ لفظية مختلفة دون انباء لأصولها العربية، كالاسم التركي ميرفت Merve التي ترجمت به الاسم دون إدراك أنَّ أصله: مروة. أو اسم فتاة الشائسة التركية Tuba الذي يكتب لدينا بالعربية تنوبا. على أنه اسم تركي غريب، وما هو إلا اسم من القرآن الكريم: طوبى.

وشتة كنية عريفة في لبنان: جائتيه، يطيب للناس أن يلفظوها بكنية فرنسية: Jean-Bey بينما الاسم تركي قديم يعود إلى عصر انممالك، ولفظه بالتركية: Can Bey (جان بيه)، ومعناه: روح أو نفس. وكذلك اسم قتلان، وصوابه: Kaplan ومعناه بالتركية: نمر.

والأعجب من هذا وذاك اسم سوريا، الذي هو صيغة هيلينية (إغريقية) Συρία (سوريا) مقبولة لاسم «شور» الدولة العظيمة في بلاد الرافدين، سميت بها بلاد الشام الواقعة على البحر الأبيض بما يشمل اليوم سوريا ولبنان، على اعتبارها كانت في وقت مضى تتبع لها. غير أن المضحك أن حرف الشين لا يوجد في الألفباء اليونانية، فأقلب سيناً ومازلنا إلى اليوم نلفظه مغلوطاً بعد 27 قرناً من الزمان. وكذلك فمن الخطأ كتابته: سورية، لأن الهاء بآخر الكلمة ترد بالتسميات العربية والكنعانية، لا اليونانية. وللبحث صلة..

د. أحمد إيش

WITH LAWRENCE IN ARABIA

By
LOWELL THOMAS

With Foreword and by John Humeaux.

Twentieth Impression

LONDON:
HUTCHINSON & CO. (Publishers), LTD.,
PATERNOSTER ROW

نموذج عنوان الطبعة العشرين للمكتاب

صدرت بلندن عن دار هتشينسون حوالي عام 1928-1930

مقدمة المؤلف

لويل توماس

أقدم للقراء اليوم كتاباً أدين فيه بالفضل للآخرين، وإنني جذ متلهف لاغتنام الفرصة لأبدي جزيل شكري لهم. أعود بالزمان إلى الوراء، حيث رافقني في رحلتي زميلي المصور مستر هاري أ. تشايس Harry A. Chase ومساعدان آخران وغادرت أميركا لأجمع معلومات وسجلاً مصوراً حول الأطوار المختلفة للتضاريس القائم من بحر الشمال نزولاً إلى جزيرة العرب.

انطلقنا في بداية عام 1917 وتوقعنا العودة بعد نحو عام لنسهم في تحقيق الهمم لتصرة قضية الحلفاء. كان الرّاحل مستر فرانكنين ك. لاين، وزير الداخلية، قد اقترح عني أن أستقيل من جامعة برنستون حتى أتمكن من القيام بذلك. وإنني أدين للوزير ليس وودير البحرية دانيلز ووزير الدفاع بانكر بلاثتهم لي الفرصة لأكون على اتصال وثيق بحبوش الحنفاء مما مكنتني من الحصول على مادة كتابي هذا. وبناء على اقتراح الوزير لين قام ثمانية عشر شخصاً بتمويل المشروع.

أنعمت ومستر تشايس مدة ثلاث سنوات نظوف حول العالم، سجلت خلالها مصوراً حياً ورويت لملايين الناس قصة احتلال الياباني للأرض المقدسة، والقصة غير المعروفة عن لورنس والحرب في أرض ألف ليلة وليلة. لقد غمرنا هؤلاء الرجال الثمانية عشر بكرمهم ولطفهم، ولولاهم ما تمكنت من إنجاز أي شيء. ينظر الأوروبيون إلى الأميركان بأنهم عبادة المال، لكن هؤلاء الممولين هم من رجال الأعمال، وإذا قدر لهذا الكتاب أن يسهم في تصوير أغرب حمة في التاريخ فسيرجع

الفضل إلى هؤلاء الرجال الكرماء المجهولين من سكان شيكاغو، ولولاهم لما رويت قصة إنجازات الكولونيل لورنس في جزيرة العرب، ولما انتشرت وعرفت حتى في بلده نفسه.

وإني أدبني بالفضل كذلك للكولونيل جون بوشان، الذي كان يعمل آنذاك في وزارة الاستخبارات، الذي سمح لي بالذهاب إلى فلسطين حين لم يكن يُسمح بذلك لأحد، وحيث كان أنثي، قلب الأسد البريطاني الحديث، يعود حيشه في أروع حملة للفرمان على الإطلاق. كما أنني ممن كثيرًا للقائد الأعلى نفسه ورئيس دائرة استخباراته سير غنبرت كلايتون، واليهما يرجع الفضل في كوننا الشاهدين الوحيدين داخل قوات الأشراف في جزيرة العرب المقدسة.

أثناء الوقت الذي أمضته مع مستر شلباس في الجزيرة وجدت أنه من المستحيل استخلاص معلومات من الكولونيل لورنس حول إنجازاته الخاصة، وكان يعزو الفضل كله إلى الأمير فيصل والقادة العرب الآخرين، وإلى أصدقائه المغامرين من أمثال الكولونيل ولسون ونيوكومب وجويس وداوني وباسيت وفيكري وكورنوايس وهو غارث وستر لينغ وغيرهم ممن كان لهم دور رائع في جزيرة العرب. لذلك أنا مدين لهم بإنجاز هذا العمل وكذلك لكل الأفراد الزائعين الذين عملوا مع الجنرال كلايتون في الفيلق التركي في الشرق الأدنى.

إني ممن أيضًا لورد ريندل المحترم ولستر لويس د. فريوليك محرر "مجلة آسيا" *Avia Magazine* تشجيعهما لي على تسجيل ما أعرفه عن تلك الأحداث. وأشكر حزيل الشكر الأنسة إلسي ويل، المحررة الشابة للمجلة، والكابتن آلان بوت، وزميلي مستر دابل كاريغي الكاتب الأميركي، وزوجتي وكل أولئك الذين تعاونوا معي لأتحز هذا الكتاب.

من المؤكد أن هناك أناساً مؤهلين أكثر مني لرواية قصة الثورة العربية أذكر منهم الكولونيل هو غارث الذي لعب دوراً بانهراً كمستشار، وإني أمل ألا تمنعه أعماله وواجباته في متحف أشموليان بأوكسفورد عن تدوين تاريخ رسمي نهائي، لكننا لا بد

أن نرجع إلى لورنس نفسه في رواية الأحداث الداخلية للحرب.

بالرغم من غيرة هذا الرجل وتواضعه الكبير فهناك أناس يحبكون حوله الكثير من الافتراءات، منها أن لورنس نال الكثير من الشهرة من خلالي وهذا يتنافى مع الأخلاق العسكرية. لا أعتقد أن ذلك صحيح، وإن كان فيه شيء من الصحة فالتلوم يقع علي وحدي.

كان مديحي له يحرجه بشكل كبير، ولو أنه كان يدرك أنني سأخبر العالم يوماً ما عن مناقبه لكان ربما وضع تحتي أحد الغمامة بدلاً من وضعه تحت قطار تركي.

لم يكن ليخطر في بال لورنس أبداً أن أقوم بذلك في يوم من الأيام. وكان المتآمرون المسؤولون عن مجيئي إلى إنكفتراهم السير ويليام جوري والميجور إيثنين ريش وبشكل خاص مسر بيرسي بروتون بالاشتراك مع السير هنري إيرفنج والسير جونسون فوربر رويرسون. جاء مسر بروتون إليّ في نيويورك وأغراني بضوء المهمة وتأليف كتاب مع آلني في فلسطين ولورنس في جزيرة العرب.

هناك شائعة غريبة تقول بأن الكولونيل لورنس قد ترك الذين المسيحي واعتنق الإسلام، والواقع أن الذي اخترع هذه الإشاعة قد اعتمد على الخيال لأنني أعتقد اعتقاداً جارماً بعد كل ما رأيته من لورنس في أثناء معاشرتي الطويلة له بأنه مسيحي صحيح، وقد كتب في مقدمة الطبعة الجديدة لكتاب داوئي "Arabia Deserta" يصف فيها المؤلف: «كان رجلاً علامة هادئاً بسيطاً في معيشته يثق بكل الناس، وكان أول رجل إنكليزي يقابله العرب، وقد مهد الطريق لمن تلاه لأنهم وجدوا فيه الرجل المحترم، وهو بذلك قد مهد الطريق لديانته. يقولون إنه كان فخوراً بدينه ومع ذلك فهو لم يعارض ديانتهم». إن الثناء الذي أداه لداوئي يمكن أن ينطبق عليه نفسه.

لويل توماس



الفصل الأول

فارس عربيّ معاصر

ذات يوم، بعد أن احتلّ الطورد آتسبي القدس، حدث أن تواجدت أمام أحد أكشاك البيع في الحي المسيحي، أعترض علي محاولة بائع تركي بدين مسنّ بأن يستخلص مي عشرين قرشاً لقاء حفنة من التمر. وفجأة نفث انتباهي جماعة من العرب البدو تتجهون نحو بوابة دمشق. لم تكن حفيفة أنهم من البدو هي التي جعلتني أتخلّى عن جدائي بسبب انشغالي المرتفع للتمر، إذ أن فلسطين، كما يعرف الجميع، يزيد فيها عدد السكان العرب كثيراً عن اليهود. لكن الذي أثار فضولي هو منظر بدوي واحد يبرز بشكل أنيق من بين كل دققائه. كان يرتدي عقلاً وكوفّة وعباءة. وهو اللباس الذي يرتديه ملوك الشرق الأدنى. أقامني حزامه فقد وضع الخنجر أنقصير المحضوف الذي تفلّده أمراء مكّة، وهي علامة تميّز أحفاد النبي عليه السلام.

إن الحي المسيحي هو أحد أبهى الشوارع في الشرق الأدنى وأكثرها تنوعاً. ففيه نرى اليهود الرّؤوس بجداثهم المفتولة، والكهنة اليونان بقبائحهم السوداء العالية وأنوابهم المفضفاضة، وبدو الضحراء الأشداء بمعاطفهم المصنوعة من جلد الماعز التي تذكرنا بأيام النبي إبراهيم، والأتراك في مر'ويلهم التي تشبه البالونات، والتجار العرب الذين يصفون لمسة زاهية بعمائمهم وأرديتهم الملونة، تراهم كلهم يتراحمون في ذلك الرّفق الضيق الذي يغصّ بالذّكاكين والمحلات والمقاهي، والذي يؤدي إلى نسبة القيامة المقدّسة.

ليست القدس بوتقة تنصهر فيها هذه العناصر المختلفة؛ إنها مكان انقواء الشرق

بالغرب، هنا تبرز التتوعات العرقية المسيحية واليهودية والإسلامية، وكأن شمس الصحراء قد رسمتها بالأبيض والأسود. ولا بلغت الرجل الغريب الانتباه في تلك المدينة المقدسة إلا إذا كان يملك صفات استثنائية جداً. ولكن عندما مر ذلك البدوي الشاب بأثوابه العنكية، التفتت الحشود المواقفة أمام الدكاكين لتنظر إليه.

لم يكن لباسه أو وقار قامته التي تقارب خمسة أقدام وثلاث بوصات هو فقط ما يميزه ليبدو كملك أو خليفة متخف قد خرج لثوره من صفحات ألف ليلة وليلة. كان الأمر المثير للدهشة أن هذا الأمير المكي الغامض لم يكن يشبه أبناء إسماعيل إلا كما يشبه الحبشي واحداً من إسكيمو ستيغانسون Stefansson ذوي الشعر الأحمر والبدن، بالرغم من أصلهم القوقازي، تحرق شمس الصحراء القاسية جلودهم حتى تصبح بشرتهم بلون الحمم البركانية. لكن هذا الشاب كان أشقر كأنه سكندنافي تجري في أورده اندماء الاسكندنافية وتغلبد الميودات والأساطير.

يحتفظ البدو من أبناء إسماعيل بلحي طويلة كما كان أجدادهم يفعلون منذ عهد آدم. أما هذا الشاب ذو الخنجر الذهبي المعقوف فقد كان حليق الذقن نهماً. كان يسير بخطى سريعة ويده معقودتان على صدره، وعيناه الزرقاوان ظاهرتان وسط ما يحيط به، وبدا غارقاً في تأمل عميق.

كان أول ما خطر بباله عندما نظرت إلى وجهه أنه أحد الحواريين السباب قد عاد إلى الحياة. كانت ملامحه هادئة مطمئنة كأنه قدبس.

التفت بلهفة إلى بائع الثمر التركي، الذي كان يفقه بعض التعبيرات الإنكليزية ويستخدمها في مناوراته مع السياح، وسأله: «من هذا؟» فما كان منه إلا أن اكتفى بهز كتفيه.

كنت واثقاً من أنني أستطيع الحصول على معلومات وافية عنه من الجنرال ستورز، حاكم المدينة المنقذسة، فتوجهت نحو قصره الواقع خلف الجدار القديم بالقرب من مفاعل سليمان. كان الجنرال رونالد ستورز، الخليفة البريطاني ليوثيوس بيلاطوس،

سكوتير أشرفياً للمندوب السامي البريطاني في مصر قبل سقوط القدس، وبقي عدة سنين على اتصال وثيق بالشعب الفلسطيني. كان يتكلم العربية واليونانية واللاتينية والعربية بالطلاقة نفسها التي يتكلم بها الإنكليزية. وكنت على يقين أنه سيخبرني بشيء ما عن ذلك البدوي الأشقر الغامض.

سألت الجنرال: «من هو ذلك الشخص أزرق العينين أشقر الشعر الذي رأيته اليوم يتجول في الأسواق متفلاًد الخنجر المعقوف الذي يتفذه عادة أمير من ____؟»

لم يدعني الجنرال أكمل سؤاله بل فتح باب غرفة مجاورة بهدوء. هناك، وإلى الطاولة ذاتها التي كان فون هولكنهايم يجلس إليها عندما نفذ خطته الفاشلة لهزيمة المورد آشي، كان الأمير البدوي حاليًا وهو مستغرق نياماً بالنظر إلى مجلد ضخيم عن علم الآثار.

قام الجنرال ستورز بالتعريف بقوله: «أعترف بالكلونييل لورنس ملك العرب غير المتزوج».

صاحني الرجل وقد ظهر عليه الخجل وشيء من التحفظ، وكأن ذهنه كان مشغولاً بالكنوز الذهبية وليس بشؤون العالم الحائلي للمحملات والحروب. هكذا تعرضت إلى شخصية من الشخصيات الفذة في عالمنا المعاصر، شخصية سيدبع صيتها على صفحات التاريخ الخيالية جنباً إلى جنب مع زالي ودرايك وكلايف وغوردون.

اكتظت السنوات إبان الحرب العالمية بأحداث منمجة برزت من خلالها شخصيات مهمة من أهمها شخصيتان اثنتان. إن مغامراتهما الحيوية وطُرف مهنتيهما سمداً كتاب المستقبل بموضوعات ذهبية كما ألهمت قصص أليسوس والملك آرثر وريتشارد قلب الأسد مختلة الشعراء والمثليين والمؤرخين في بعض الأزمان. أولى هذه الشخصيات رجلاً ضخماً البنية عريض الفكين طويل القامة، التي تبلغ ستة أقدام، إنه قائد سلاح الفرسان البريطاني الرهيب فيند مارشال فايكونت ألنبي القائد العام للجيش انصليبي في القرن العشرين، والذي اكتسب شهرة عالمية بسبب أعماله

البطولية في إجلاله الأتراك عن الأرض المقدسة محققاً بذلك أحلاماً دامت قروناً طويلة. أما الشخصية الفذة الأخرى فهو شابٌ حليزٌ الذفن صغير الجسم التقيت به أول مرة مستغرقاً في دراسة فنية للثقوش المسحارية المكتشفة على حجارة بابل القديمة، وكانت اهتماماته الرئيسية في الحياة الشعر وعلم الآثار.

لم تكن المسجرات الرائعة لتوماس إدوارد لورنس، خريج جامعة أوكسفورد، معروفة بشكل علني في نهاية الحرب العالمية. مع ذلك، فقد قام بهدوء، ودون أية حركات مسرحية، بتوحيد القبائل المتفرقة في جزيرة العرب ضمن حملة موحدة ضد الأتراك الظالمين، وهو عمل سياسي شاق فشل الخلفاء ورجال الثور والسلاطين في تحقيقه على مدى قرون عديدة. وضع لورنس نفسه على رأس الجيش البدوي لشريف مكة، الذي أصبح فيما بعد ملكاً على الحجاز. لقد وُجد القبائل البدوية المنقطعة في الصحراء، وحافظ على الأماكن الإسلامية المقدسة لسلالة النبي، وأخرج الأتراك من جزيرة العرب إلى الأبد. وإذا كان اللورد آلفي قد حرّر فلسطين، الأرض المقدسة لليهود والمسيحيين، فإن لورنس قد حرّر جزيرة العرب، الأرض المقدسة لعلايين المسلمين.

سمعتُ عن هذا الرجل الغامض عدة مرات خلال الشهور التي قضيتها في فلسطين مع اللورد آلفي. كانت أول إشاعة سمعتها عنه هي أثناء توجهي من إيطاليا إلى مصر. أسرّ إلي ضابط بحرية أسترالي بأن رجلاً إنكليزياً يقود جيشاً من البدو البدائيين في الصحراء غير المطروقة، هناك يبدأ في أراضي عمر وأبي بكر. وعندما وصلت مصر سمعت روايات رائعة عن أعماله البطولية. كان الناس يذكرون اسمه بصوت خفيض، وذلك لأن كل أخبار المعارك الحربية في أرض ألف ليلة وليلة كانت تُكتم عن الناس كتماناً تاماً.

حتى ذلك اليوم الذي التقيت فيه بلورنس في قصر حاكم القدس، لم يكن بمقدوري أن أتخيه كشخص حقيقي. ثم يكن بالنسبة لي سوى أسطورة شرقية جديدة. والواقع أن القاهرة والقدس ودمشق وبغداد وكل مدن الشرق الأدنى الأخرى مملوءة بالألوان

والتقصص الخيالية لدرجة أن مجرّد ذكرها يشير خيال الغربيين العمليين الذين ينساقون فجأة فوق البساط السحري للذكريات فيأخذهم إلى مشاهد الطفولة المألوفة من خلال قصص ألف ليلة وليلة. وهكذا توصلت إلى نتيجة أن لورنس هو نتاج الخيال الغربي زاد من توهجه احتكاكه الطويل بالشرق، لكن تبين لي أنّ هذه الأسطورة ما هي إلا حقيقة.

كان الرجل الإنكليزي ذو الخمسة أقدام وثلاث بوصات يعتمر كوفية من الحرير الأبيض مطرزة بالذهب، يثبتها فوق شعره يعقال، وهو عبارة عن حبلين صوفيين سودين مجدولين بخيوط فضية وذهبية. كانت عباءته السوداء التمشيكة المصنوعة من وبر الجميل تغطّي رداءً من القماش الأبيض الناصع المثبت عند انخصر بحزام عريض مزركش بالذهب يتدلى منه الحنجر المعقوف الذي يتقلّده أمراء مكة. لقد أضحى هذا الشاب فعلياً حاكماً لأراضي المسلمين المقدّسة وقائداً أعلى لعدّة آلاف من البدو الذين ينتظون محسن الشباق والحيول العريضة المربعة، ثمّ أصبح مدعاة للزعب بالنسبة للاثراك.

لما عرف لورنس أنني أعيل إلى علم الآثار، نوّدت صلتنا في الأيام التالية التي قضيناها في القدس قبل أن يعود إلى جيشه العربي. كنا نمضي معاً عدّة ساعات، وما كنت لأشك بأن الحظ الحسن قد بحالفني لأنضمّ إليه فيما بعد في الصحراء. عندما نكون في رفقة بعض الضباط الذين التقينا بهم لتوّنا كان يجلس عادةً في ركن من أركان الغرفة يصغي بانتباه إلى كل ما يقال لكنه لم يكن يشترك في الحديث إلا قليلاً. ثمّ إذا بغينا وحدثنا كان ينهض من كرسیه فيجلس أنقر فضاء على الطريقة البدوية. وعندما فعل ذلك للمرة الأولى احمرّ وجهه تحجلاً بطريقته الغربية واعتذر قائلاً بأنه أمضى في الصحراء مدة طويلة فأصبح يجد الجنوس على الكرسي أمراً غير مريح.

تمتّ بمحاولات عديدة لإغرائه بإخباري شيئاً ما عن حياته ومغامراته في الصحراء، حيث لم يحرق الكثير من الأور وبيّن بالمغامرة قبله سوى ريتشارد بروتون وتشارلز داوتي. لكنه كان دائماً يحوّل الحديث ببراعة ليتكلم عن علم الآثار والذين المقارن

والأدب اليوناني والتمياسة في المشرق الأدنى. كان يابى أن يذكر لي شيئاً عن علاقته بالجيش العربي. وكان يكتفي بأن يعزو فضل كل ما حدث أثناء حملات الصحراء إلى الفادة العرب أو إلى نيوكومب وجويس وكورنواليس وداوني ومارشال وسترلينغ وهورني والرملاء البريطانيين الآخرين.

من المؤكد أن القدر لم يقيم بخدعة أعرب من تلك التي لعبها عندما اختار للدور الرئيسي في تحرير جزيرة العرب هذا الرجل، خريج جامعة أوكسفورد، الذي كان طموحه في الحياة يتلخص في نيل الأثار القديمة وكشف اللثام عن المدن المندثرة.



الكولونيل توماس إدوارد بورنس
رجل جزيرة العرب الغامض



«ملك العرب غير المنتوج»
على شرفة الحاكم في القدس

الفصل الثاني

البحث عن حضارة مفقودة

عندما التقينا لأول مرة في القدس، ثم في وحشة الصحراء، ثم أستطع استدراج نورسن للعودة إلى فترة حياته الأولى. لذلك، بعد انتهاء الحرب وفي طريق عودتي إلى أميركا، قمت بزيارة (بكلترا أملاً في معرفة شيء عن حياته المهنية قبل عام 1914، مما يمكن أن يلقي بعض الضوء على فترة الإعداد التي اختارها له التقدر ليلعب دوره المهم. كانت الحرب قد بعثت عائلته وأصدقائه شبابه بحيث لم يتمكن من الحصول إلا على معلومات ضئيلة عن طفولته.

يعود لورنس في أصله إلى مقاطعة غالواي الواقعة على الساحل الغربي لإيرلندا. ربما يفسر ذلك بشكل جزئي قوته البدنية غير العادية، فسيكون هذه المقاطعة هم من أقوى الأقوياء. ويجري في عروق لورنس أيضاً النظم الاسكتلندي والويلزي والإنكليزي والإسباني. من بين جندوده المشهورين السير روبرت لورنس الذي صاحب ريتشارد قلب الأسد إلى الأرض المقدسة منذ أكثر من 730 سنة وبرز في ذلك الحين عند حصار عكا، تماماً كما صاحب لورنس أنساب النبي إلى الأرض المقدسة وبرزت شخصيته أثناء تحريرها تحريراً نهائياً. كما اشتهر من بين أجداده الحديثين الأخوان السير هري ونسر جون لورنس اللذان كانا من الزواد في الإمبراطورية البريطانية في الهند.

أما والده، نومانس لورنس، فقد كان ذات يوم من كبار أصحاب الأراضي والعقارات في إيرلندا وكان رجلاً رياضياً فذاً. وعندما فقد معظم ممتلكاته في زمن غلاستون سبب انخفاض أسعار الأراضي كثيراً، انتقل بعائلته عبر البحر الإيرلندي إلى ويلز.

وولد نوماس إدوارد لورنس في مقاطعة كارنارفون القريبة من مسقط رأس مستر لويد جورج، الذي يُعدّ اليوم من أقرب أصدقائه والمعجبين به، والذي قال لي مرة إنه هو أيضاً يُعدّ لورنس من بين أهم الشخصيات وأروعها في التاريخ الحديث.

فضى الطفل لورنس الخمس سنوات الأولى من حياته في جزيرة من جزر تشانل في مقاطعة جرزي. وعندما بلغ العاشرة هاجرت عائلته إلى شمال اسكتلندا وبقيت هناك ثلاث سنوات. انتقلت بعد ذلك إلى فرنسا حيث التحق الغنى لورنس بالكلية اليسوعية مع أن جميع أفراد عائلته يتمون إلى الكنيسة الأرثوذكسية في إنكلترا. من هناك انتقلوا إلى أوكسفورد، وكان لهذا المركز الثقافي الإنكليزي، الذي اتخذوه سكناً دائماً لهم، كان له أثر على لورنس لا يمكن محوه أبداً. كان أصدقاء شبابه يدعونه بك، وقد درس في مدرسة أوكسفورد الثانوية ثم تحت الإشراف تمهيداً لدخول للجامعة. يقول أحد زملائه إنه، وإن لم يكن نجماً رياضياً، فقد كان يملك روحاً حريئة وكان ممثلاً جليلاً بالمفاخرة.

حدثنا هذا الزميل بأنه «كان هناك جدون يجري تحت مدينة أوكسفورد، وكان مسفوفاً بالقرب ميد ويدعى Trill Mill Stream. كان يد لورنس وصبي آخر كثيراً ما يحملان مصباحاً ويشقان طريقهما داخل القناة ليجريا على طول المعمر المائي الواقع تحت الأرض.

«تُعدّ أوكسفورد مركزاً مهماً لركوب الزوارق، وكانت كل الجداول التي ترتبط بنهر التايمز قد استكشفت وتم ارتيادها حتى بأصغر المراكب حجماً. أما نهر تشيرويل Cherwell الواقع فوق إسلبي Islip، فنقول الكتب السياحية إنه غير قابل للملاحة. كان ذلك كافياً لإثارة روح التحدي لدى صبي مثل يد لورنس ليثبت خطأ هذه المقولة، وهذا ما قام به هو وصبي آخر. لقد أبحرا بقاربهما إلى باثري Banbury ووصلتا تماماً تحت الجزء من النهر الذي أصبح أنه لا يمكن الإبحار فيه».

كان مغتماً بتسلق الأشجار والضعود فوق سطوح الأبنية حيث لم يكن أحد من رفاقه يتجرأ على التحاق به. أخبرني أحد إخوته «بأنه قد وقع ذات يوم فكمسرت ساقه».

ويعزو أقرباؤه قصر قامته لهذه الحادثة. ويبدو أن جسمه لم ينم بعد ذلك أبداً.

كان لورنس غير عادي في كل أطوار حياته، تماماً مثل رجال القبايل البدائيين في الصحراء العربية. على الرغم من أنه قد أنهى السنوات الأربع نيل درجة البكالوريوس في ثلاث سنوات، فهو، بحسب علمي، لم يحضر محاضرة واحدة في أوكسفورد. كان يتلقى علومه أحياناً على يد الأساتذة الخصوصيين، لكنه كان يمضي حلاً وقته في التجول على قدميه في أنحاء إنكلترا، أو في قراءة أدب العصور الوسطى، ولكي يبقى وحده، كان كثيراً ما ينام أثناء النهار ثم يمضي الليل بأكمله في المطالعة.

كان معارضاً لأي نظام علمي محدد ومقيد. على سبيل المثال عندما وُتج أسناد من صموئيل جونسون، الطالب في أوكسفورد، بقوله «أيها الشاب، استخدم كتابك بعناية الآن لتكتسب رصيداً من المعرفة» وهذا الأمر غير مقبول للشباب لورنس. لم يكن ليسر بفكرة نيل ثقافة جامعية من أجل احتلال منصب لائق. كان شعاره في شبابه كشاعر لويس ستيفنسون وهو «الاستمتاع بملذات الحياة ومسراتها أكثر فائدة للإنسان من قيامه بالواجبات، فهي ليست مرهقة لكنها تحمل الكثير من البركة».

من خلال مطالعته المبكرة عكف لورنس على دراسة مفصلة للمؤلفات التي تبحث في الشؤون الحربية بدءاً من حروب ستميريت ونحتمس ورعسي إلى نابليون وولنتون وستونويل جاكسون وقون مونتكيه. لقد قام بذلك تطوعاً وليس كجزء من أي عمل مفروض عليه. ومن بين الكتب المفضلة لديه كتاب مبادئ الحرب للمارشال فوش، لكنه أبدى ملاحظة ذات مرة في جزيرة العرب أن دراسته لقيصر وكسينوفون قد أفادته في حملاته الصحراوية بشكل أكبر لأنه اضطر في الحروب غير النظامية التي قادها ضد الأتراك إلى استخدام أساليب معاكسة تماماً لتلك التي يؤيدها الخبير الحربي الفرنسي.

اختار لورنس الهندسة العسكرية للحروب الصليبية موضوعاً لرسائله في أوكسفورد، وقد استحوذ عليه العمل لدرجة أن ألح على والديه بأن يسمحا له بزيارة الشرق الأدنى ليكتسب معرفة مباشرة بالجهود الهندسية للفرسان المسيحيين الأوائل.

شجعه على هذه الزيادة أحد علماء أوكسفورد والخبير في حزيرة العرب، وهو الدكتور دافيد جورج هوغارث الققيم على «متحف أشموليان»، والذي كان ولا يزال له أعظم الأثر على حياة لورنس. وقد جاء خصيصاً إلى مصر في أثناء الحرب ليقدم له السيرة والنصح في أثناء الحملة العربية.

كانت والدة لورنس تمانع في مغادرة ابنها لوطن، ولكنها أمام إلحاحه الشديد طوال عدة أسابيع، قبلت بأن يزور سوريا كمستشار في شركة كوك وقدّمت له متني جنبه إنكليزي من أجل الرحلة. كانت عائلته على يقين بأنه سيعود إلى وطنه بعد بضعة أسابيع ليستقر ببقية أيام حياته وينسى الحرارة المرتفعة والزواجر الثقيلة ومشقات الحياة في الشرق.

لكنه ما كاد يصل الشرق الأدنى حتى ازدرى أسباب الرفاهية والطرق الممهدة للتمتّاح. لقد دخل سوريا عبر بيروت، وبعد فترة قصيرة لبس الثياب الوطنية وانطلق نحو الداخل حافي القدمين. وبدلاً من السفر كسائح، أخذ يتجول وحده على طول حدود الصحراء العربية الكبرى، وكان يسلي نفسه بدراسة أخلاق وعادات الخليط البشري الموجود في المناطق القديمة الواقعة بين بلاد الرافدين ووادي النيل. وبعد عامين اثنين، عندما عاد أخيراً إلى أوكسفورد ليسلم رسالته ويحصل على شهادته، كان لا يزال بحوزته مئة جنيه.

هناك خمسة صبية في عائلة لورنس، وكان توماس إدوارد قبل الأخير سناً الأكبر سناً هو الميجور مونتغيو لورنس Montague Lawrence، وكان برتبة رائد في الجيش النظامي R.A.M.C والثاني، ولين، مدير مدرسة في دلهي في الهند، والثالث، فرانك، الذي أنهى دراسته في أوكسفورد وتجول في الشرق الأدنى مع شقيقه توماس، أما أرنولد الأصغر سناً فهو نجم رياضي في ألعاب القوى في أوكسفورد، ويهتم أيضاً بعلم الآثار، وسبق أن حل محل أخيه في بلاد الرافدين لفترة من الزمن. ولقد قصى ولينم وفرانك نخبهما في ساحات القتال في فرنسا.

منذ أيام الحرب التحق الميجور مونتغيو بارسالية طنية في الصين في مكان بعيد

عدد حدود التّيب؛ وقد ذهبت أُنهم أيضاً إلى هذه المنطقة الثّانية من آسيا الوسطى،
بينما أخذ ابها الأصغر يتجول بين متاحف العالم ضمن بعثة من أوكسفورد بدرس
نقوش الفن الإغريقي في فترة الانحطاط.

قبل اندلاع الحرب بعدة سنوات قامت بعثة من أوكسفورد برئاسة هوغارث، صديق
لورنس والخير بالكتب النّادرة والآثار بأعمال التّقيب في وادي الفرات أملاً في الكشف
عن آثار عرق قديم لِقوم لم يُعرف عنهم الكثير هم الحثّيون. ولما كان لورنس ملتماً تماماً
بلغه الحثّيين ولديه معرفة وتفهم عميق لعاداتهم، فقد عُهدت إليه مهمّة الإشراف على
بعض عمال الحفريات صعبى المراس من الأكراد والنّكرمان والأرمن والعرب. نجحت
هذه البعثة في انتهاء في الكشف عن آثار كركميش العاصمة القديمة للإمبراطورية الحثّية
هناك تجد لورنس في وسط أطلال تلك المدينة المنشرة بسلي نفسه بدراسة نقوش الأواني
الخزفية محاولاً إيجاد الرّابط بين الأطوار المختلفة للحضارة الحثّية.

استطاع لورنس، بالاشتراك مع صديقه ليونارد وولي رئيس البعثة، أن يكشف
اللائم عن الخرائب التي تبث أنها الحلقة المفقودة بين حضارتي نينوى و بابل. وبداية
الحضارة الإغريقية في جزر البحر الأبيض المتوسط، والتي يعود تاريخها إلى خمسة
آلاف سنة. ويضم متحف أشمورليان في أوكسفورد معروضات عديدة قدّمها توماس
إدوارد لورنس قبل أن يبلغ العشرين من عمره.

حدث أن قام رحالة أميركي، وهو رئيس البعثات في الشرق الأدنى، بزيارة لمعسكر
هذين المستكشفين الوحيدين، ولقدّم لنا صورة حيّة لزيارته وعرض كيف تلقى لورنس
التدريب الذي خوله كسب تلك السيطرة المذهلة على قبائل النّصحراء عندما فاجأه
الحرب الكبرى.

يقول مسٹر لوثر ر. فول: «حدث في سنة 1913 في إجازة عيد الفصح في كلية
عنتاب الأميركية أن واتنا الفرصة للتّقيام برحلة ثلاثة أيام في العربية إلى أورفة، وكنا
قد زرنا خزان Haraun التي تبعد بضعة أميال نحو الجنوب، والتي هاجر إليها النبي
إبراهيم من مدينة أور الكلدانية.

كانت عودتنا إلى عنتاب عبر طريق أبعد قليلاً إلى جهة الجنوب قادنا إلى نهر الفُرات في منطقة جرابلس حيث كان الألمان يشيّدون جسرهم الحديدى الضخم، وهو صلة وصل رئيسية بحلم الألمان بتحقيقها في الطريق من برلين إلى بغداد. على الضفة الغربية، وعلى بعد عدة مئات من الياردات عن الجسر، تقع كركميش حيث وجدنا العالم البريطانى الهادى الذي تحوّل، بسبب ضغوط الحرب، من عمله في التققيب ضمن المناطق المجاورة لنهر الفُرات إلى شريف مكّة وقائد لحشود كبيرة من البدو في حرب ناجحة هدفها التخلّص من نير العثمانيين.

كان مسر وولي، عالم الآثار المسؤول عن أعمال التقيب في كركميش، قد عاد نتوء من موقع الجمرات مرّدياً لثياب العمل التي هي عبارة عن قميص من القانيلا ومادي اتون ويتطال غونف. أمّا صديقه الشاب لوزلى، فكان عائدًا من العمل أيضاً يسير بخفة فوق أكوام التراب وقد لى ما يدعو له نحن الأميركان بالهزة الرياضية، وتمنطق بحزام عربي مزخرف تدلّ في مقدمته مجموعة شرايات تدلّ على أن الشاب لا يزال عزيزاً. لكنه اختفى كلمح البصر، وعندما تجمّعنا لتناول طعام العشاء عاد الشاب وقد اغتسل وبس بدلة أوكسفورد الرياضية البيضاء الخفيفة ذات الشرائط الحمراء، وهو لا يزال متمنطقاً بحزامه العربي، ثم اندمج في الحديث عن القصة الرائعة لتتقيات وعلاقتها بالأكراد والعرب، وعن رحلاته الفردية بين قراهم بحثاً عن البسط والأشياء الأثرية النادرة، مما هبّاه للتقرب منهم وانتعاطف معهم، وكان هذا بالتالي القاعدة لخدماته الجليلة عندما دعت الحاجة.

كانت الوجبة لذيدة قدمها لنا عربي داكن اللون قوي البنية يرتدي ثياباً محلية أنيقة، وقد زين حزامه بخناجر ومسدسات تكفي لتعبئة متحف. ثم لم يفت أن أحضر القهوة اللذيذة التي لا يضامها إلا القهوة التركية الطازجة. أمّا أصدقاءنا البريطانيون، الذين كانوا بالكاد يستمعون بالألوانى الرومانى التي يعود تاريخها إلى أنمي عام تقريباً، والتي علينا إذ احتها قبل الوصول إلى أطلال الحشيين، فقد أشاروا بفخر إلى أن فنانين القهوة التي نستعملها والمصنوعة من الطين هي أدوات حثية لا شك، وربما يبلغ عمرها أربعة آلاف عام على الأقل.

«لا يمكنني قول أبنية، أو حتى بناء، ولكن غرفة، فقد علمنا أن الحكومة البريطانية، بالاتفاق مع السلطات التركية، قد سمحت ببناء غرفة واحدة. وبالتالي فقد شيد وولي ولورنس غرفة ذات جدارين متوازيين تفصلهما مسافة عشرة أقدام، يمتدان لخمسين قدماً بجهة الجنوب وخمسة وثلاثين قدماً بجهة الغرب ثم خمسين قدماً أيضاً بجهة الشمال. شكل حرف U الضخم المغلق من الجهتين غرفة، وقد قبلت الحكومة التركية بالأمر رغم اندهاشها. بالطبع لم يعترض ضابط التفقيش المبجل على وضع حواجر تفصل بين المكان المخصص للنوم وغرفة الطعام والمكتب، وكان من الملائم فتح الأبواب من جهات مختلفة لبناء لتطل على الباحة.

«وهكذا، عندما رأيناها للمرة الأولى، كان على يمينها صفٌ من الغرف المعدة لتخزين الأشياء الأثرية ولأعمال التصوير، أما على اليسار فتقع غرف نوم المنقبين وضيوهم، وفي الوسط تقع غرفة انجلوس المهجبة بمدفنتها الجميلة ورفوفها الممتلئة بمجذذات تاريخية بالية معلقة بالجلد والتي يحيط بها الماعثم البريطاني نفسه بها عادةً، ثم هناك المنضدة الطويلة المغطاة بالأوراق البريطانية بالإضافة إلى مجلات عن الآثار في العالم.

«حول المدفأة علمنا الكثير عن الضلة والصدقة التي تربط هذين الرجلين الإنكليزيين الوحيدين بالناس المحليين من حولهما. لقد أكدنا أنهما يشعران بالأمان على ضفاف نهر الفرات أكثر مما لو كنا في شارع بيكاديلي. كان رئيساً أشد العصابات رهبة من الأكراد والعرب عاملين وفيين لدى المنقبين، يقوم أحدهما بالحراسة الليلية ويحتل الآخر منصباً مماثلاً من حيث الثقة.

«بالطبع ليس هناك خوف من خطر الترفه. ألم يأكل هؤلاء الرجال من منح الرجلين الإنكليزيين؟ علاوة على أن عدالة الرجلين معروفة ولهما احترامهما كشخصين قديما ليكونا حكميين في مختلف أنواع القضايا بين اقري المتنازعة، أو في حالات الخصومة الفردية. لم يحاولوا أبداً انتهاك الحقوق، وكانت قراراتهما لا تحتمل النقاش. لقد ذهب لورنس منذ فترة قصيرة إلى إحدى اقري لبجل مشكلة أثارها اختطاف رجل ثغاة أراد

الزواج بها لكنه لم يتمكن من التغلب على معارضة والدها. هل هناك تدريب أفضل للدور الذي توجب على لورنس القيام به أثناء الضحوة العربية من هذه الحجرات التي 'كنسيتها' في تعامله مع الأناث المحليات؟

أرأينا في غرفة الحلو من صندوقاً خشبياً قديماً كان يضم في حباته يوماً ما مهر عروس بدوية، لكنه يستخدم الآن كخزينة للمال. كان حجمه أكبر من خزانة الملابس، نراه هناك في الغرفة سلا قفل أو حراسة. كان ممثلاً بقطع النقود الفضية التي تُدفع كأجور للممتي رجل العاملين في الحفريات. هكذا كان قانون الجماعة غير المدون الذي يتجلى في محبة العاملين لرؤسائهم ومعرفتهم التامة بالعقاب الأكيد العاجل الذي سيلقونه من جماعتهم إن فكّر واحد منهم في خيانة تلك الثقة، ولن تكون النقود في مأمن أكبر لو أنها وجدت في أقبية البنك البريطاني نفسه.

هناك تناقض حاد بين هذه الحالة والأساليب التي يتبعها المهندسون الألمان على بعد نصف ميل فقط وهم يشيدون جسر سكة حديد بغداد عبر الفرات. يبدو أنهم وعملهم يتبادلون مشاعر الكره والعدم الثقة. لا يحتمل الجرمانيون فكرة عدم تشبيل العرب لأنظمتهم وعقوباتهم. كان الألمان بحاجة دائمة إلى المزيد من العمال، بينما كان الرجال الإنكليزيون، على بعد عدة مئات من اليرادات، محاطين بأعداد كبيرة من العمال. وفي إحدى المرات، عندما اضطر إلى تقليل الحد، حاولوا يشتي التوساقل فصل خمسين رجلاً. لكن الأكراد والعرب كانوا يستمرون ويستمرّون في عملهم كانوا يخبرونهم أنهم لن يتقاصوا أجوراً فكانوا يستمرون ويستمرّون في عملهم. لم يكن الأجر هو ما يدفعهم لتعمل بل حبهم للعمل ولرئيسهم.

«يجد هؤلاء الرجال البسطاء لذة في التنقيب عن الآثار وكانوا ممثلين حماسية إذ علمهم رؤسائهم أن بشر كوا العمل بالبهجة، فلم تكن أعمال الحفر جهداً لا معنى له وسعيّاً وراء كسب المال، بل كانت تحمل في طياتها شعوراً سارّاً بالامتياز في التنقيب عن الآثار.

«ذهبنا لنقوم وقد امتلأت أذهاننا بتخصص الشرقي، حيث امتزج المسيحي والوثني

والحثي واليوناني والروماني والماضي الباهر والحاضر البائس لتلك المناطق. بخلفية من جهود الألمان النشيطين والإنجازات الهائلة لرجلين بريطانيين متواضعين. نمنا يوماً عميقاً طويلاً على الأسرة القابلة لتغطي داخل غرفتنا التغطية ذات الجدران العظيمة. لم نزعج نومنا الأغنية التي كنا نندثر بها، وهي لحف yorgans دمشقية من القماش الذهبي يظهر في حلقبتها زخرفة عربية باللون الأحمر الباهت مما يأخذ العين في رحلات بلا نهاية. كانت هذه الأغنية بعضاً من كنوز لورنس التي أحضرها معه من رحلاته إلى القرى العربية حيث قضى أسابيع عدة.

«أثناء تلك الرحلات كان لورنس في حلقته المحلية بشارك في أحداث كبرى القوم في القرية في ظل خيمة، أو يجلس أمام النار المشتعلة يستمع لأقوال العرب ويبدي إعجابه بهم ويحاول فهمهم وتوضيد صلته بهم. كان يجلس على الأرض مصائباً سافيه يسماً تحضر القهوة وتُسرب بصمت لا يقطعها سوى كلام بعض الرجال. بينما كان المهندسون الألمان يتنون جسرهم لينمكتوا من إخضاع هؤلاء الأقوام إدارفوضوا الانصياع لهم، كان هذا الرجل الإنكليزي المنفتح اللطيف يتها دون سابق تخطيط ليكون قائداً لهم في وقت اشتداد الأزمات، لا ليبدد حلم الجرمانيين بالغزو فحسب، بل ليكسر قيود العبودية السياسية للأتراك على مدى قرون عديدة.

«بعد تناول طعام الإفطار أخذنا نتفحص الأرض المزينة بالفسفساء في غرفة الطعام، وهي قطعة رومانية أخذها الرجال بشكل كامل بدلاً من تخريبها في بحثهما عن الأشياء الحثية القديمة المخبأة تحتها، وفجأة صدر من موقع الحفريات هتاف حماسي، مررنا إلى هناك لتجد العرب والأكراد متجمعين حول قطعة أثرية كبيرة لحجم، كان رئيس العمال اليوناني يزيل التراب المفروق في انقدم العائق بحجر داكن تبلغ مساحته بضعة أقدام مربعة، وفي الوقت الذي وصل فيه مستر رولني كان قد حدد الوجه الحقيقي للكتلة الحجرية. بيد مدربة بدأ مستر وولسي بإزالة الطيقة الأخيرة من التراب التي كانت تغطي الكتلة المعنوء. ثم يكن بمقدور أحد أن يأمر أولئك انقلحين بالرجوع إلى عملهم إذ من حق الجميع فضف نمار الاكتشاف، بدءاً بالرجلين

الإنكليزيين وانتهاءً بالقصبي الذي يجلب الماء والذي ترك حمامه يشق طريقه إلى الفرات بنفسه بينما أسرع لينضم إلى المجموعة اللاهثة للناس الذين نسمرت أعينهم على مطواة وولي وهي تؤذي عملها ببراعة.

«انطلقت موجة من التصفيق والهتاف لدى وضوح المعالم الأولية للصخرة القاسية. إنها يد! لا بل زاوية من بناء! أسداً جمل! انهارت التخمينات والافتراضات لتلقى التأييد أو السخرية، يتبعها على الفور صمت عميق بينما تقوم المطواة بعملها. بعد فترة قصيرة تبين لغين وولي الخبيرة أن القطعة هي لحيوان ضخم محفوظ في حالة محاصرة، وكان يعمل على إزالة التراب عن رأسه. نفاهه بأنه سيبدأ بالعمل في النهاية الأخرى من الشكل فقابلته عماله بصيحات التذمر والاحتجاج إذ لم يتأكدوا بعد من ماهية الشكل. عثرت ابتسامة وولي الشريفة عن سروره بمرحته الصغيرة وعاد يعمل في البقعة التي أزال عنها التراب.

«أخذت المعالم تتضح، رأس، صدر، أقدام، جسم، وانطلقت الأقوال المتضاربة والتطريبات المختلفة من أفواه المتجمعين، بقرة، حصان، خروف، إلى أن عادت يد وولي المدربة إلى رأس الحيوان وبصره ذات سريرة أزاح التراب الذي يغطي الأثر العظيم لقرني وعل أحياهما الثمن من أربعة فرون، ليقف أمامنا ظبي رائع الجمال كان هذا الاكتشاف يستحق احتفالاً بدؤه الجميع بشكل فطري، فما إن هز المستكشف رأسه ردّاً على سؤال هامس ورئيس الأعمال البرونزي، ثم أعطى الإشارة المستقرة، حتى أفرغ مشان من العمال، من عمر الخامسة عشرة إلى الخامسة والثلاثين، مخازن مدساتهم في الهواء.

«أنساءل عمّا ظنه الألمان نقاً سمعوا وابل الرصاص من على جسرهم؛ إذ اكتشفت بعد عدة أسابيع، عندما عدت بفرسي لزيارتهم برفقة الرجل الإنكليزي، أن العلفات في المعسكر الألماني تعني أمراً مختلفاً تماماً. اليوم، وبعد الحماس المفرط الذي تلا اكتشاف الطبقي الحثي من قبل العمال، جلس العرب يضحكون ويدخنون السجائر التي بها انتهى الاحتفال، بينما بدأ صبي الماء يبحث عن حمامه بضراوة، تبعه الثعوب

المنفعة بالحوية من أصدقائه الطمأنين الذين يعتقدون أن الطعام الأكمل للتيجارة لا يتأني إلا مع جرعة من الماء المارد.

وأقبل وقت الظهيرة بسرعة، وكان يوم الخميس، يوم دفع الأجور. كان الجمعة هو يوم العطلة للمسلمين، وكان الرجال المسيحيان لقيين مع عمالهما المسلمين بحيث لن يطلبوا منهم العمل في يومهم هذا. كانت رحلتنا إلى عتاف قصيرة، لذلك ما ظلتنا قليلاً في دفع الأجور للرجال، ونؤنس يؤكد أن ذلك سيكون معتباً.

ثم وضع طاولة في انقضاء الخارجي للغرفة، وقام وولي بتسليم القطع النقدية لصف العمال. كان الأمر بسيطاً لكن الرجال تعلموا كيف يظهر ون اكتشافاتهم في أيام دفع الأجور. وبهذا تلقوا جوائز نقدية عن كل شيء استخرجوه. هم طبعاً يحرمون عنى عدم فقدان أو كسر أية قطعة أثناء عملهم، وكانت الاكتشافات النادرة ترسل من كل الانحاء في يوم دفع الأجور. يقوم المستكشفان بالقاء نظرة سريعة على القطعة المئذمة، وقد يتلقى رجل واحد جائزة عشرة قروش لقاء ما أحضره، وربما يتلقى أكثر من ذلك تشجيعاً أنه أكثر من كون القطعة بالغة النفيسة، وقد تعاد قطعة فخار مع ابتسامة من التحبير إلى رجل آخر وسط سخيرية زملائه منه لمحاولته تمرير جزء من جرة ماء حديثة تحت يدي وولي الثيبة.

الم يكن الرجل الإنكليزي ليقول أبدأ: لن أدفع شيئاً لقاء هذه القطعة لكنني سأحفظ بها على أية حال، بل كان إما أن يدفع أو يعيدها إلى صاحبها. أحياناً تكون قطعة ذهبية لامعة كمعني العربي جائزة لرجل محظوظ، لكن سواء أحصل على الذهب أم لا، فإن قرار سيده وصديقه لا يناقش أبدأ.

على أنغام الأجراس المعلقة في أعناق الخيول، والتي كان إيقاعها يتردد في أنحاء التسهل، تناولنا طعاماً نفكر ملياً فيما رأيناه. إذا كان لبريطانيا أن تحكم جزءاً كبيراً من العالم، فسيكون ذلك بفضل مزايا وقدرات ورجاحة عقل أبنائها في كل مكان. ولقد تعمقت انطباعاتنا عن تلك الزيارة لكر كيميش بإقامتنا في انقسططينية أثناء الحرب العالمية، حيث شهدنا كيف لعب الألمان دورهم نبيل الحصنة الأكبر، والتي لم يكن

جسر الممرات سوى مثال على ذلك. لكن الألماني خسر بسبب الطريقة التي تعامل بها مع الأمور.

«أما توماس لورنس فقد عمل بطريقة أخرى، وكان إنجازاته الرائع فوق كل تصور. لم يكن في ذلك أية معجزة، إنما هو استغلال موهبة الذكاء والخيال والعطف والتخفية. «في كتابه «اعتذاراً للخاملين» يرثي روبرت لويس ستيفنسون حال أولئك الذين درسوا الكتب بعمق وجمعوا كماً لا بأس به من المعرفة عن جانب أو آخر، ثم يخرجون من دراستهم سلوك يشبه طريقة اليوم في التردد الأصم لما تعلموه ويشتون خواءهم في أفضل مناحي الحياة وأكثرها إشراقاً بالزغم من تخمتهم بالمعلومات. أما بالنسبة لـلورنس فلا بد أن ستيفنسون سيجد لديه روح العسيرة. وعلى الزغم من أنه عالم ومفكر، فهو لم يكن أبداً رجل كتب أو مرزداً أصفاً لما قرأه. أثناء الفترة الأولى لنشورة العربية، كان الكابتن لويد، الذي هو الآن السير جورج لويد حاكم بومباي، كان يرفقته في الصحراء لفترة من الزمن. وقد قال لي مرة: «من الصعوبة بمكان وصف السرور بالتعامل اللصيق مع رجل كهذا. إنه شاعر وفيلسوف، لكنه يملك روح دعابة لا تخبو».

«إن في وصف مسر لورن قول للغرفة ذات شكل لا في كرميش تصويراً لروح الدعابة تلك التي جعلت لورنس ذا طبيعة إنسانية وأقذت حياته في أكثر من مناسبة. وقد قام الميجور يونغ من دائرة الاستخبارات السرية في الشرق الأدنى، والذي سبق وتعرف على لورنس في بلاد الترافدين قبل الحرب، قام برواية حادثة أخرى. اجتمع ممثلون عن إنكلترا وألمانيا وفرنسا وروسيا وتركيا عام 1912 وانفقوا على منح ألمانيا السيطرة على ميناء إسكندرون ذي الطبيعة الاستراتيجية المهمة، والسماح لهم أيضاً بالاستمرار ببناء الشبكة الحديدية التي طالما حلموا بملها من برلين إلى بغداد بهدف فتح طريق مباشر لأرض الكنوز المنعشة بهندستان والصين.

«رأى لورنس المتعمق في التاريخ أن هذا المشروع يُعد تهديداً بروسيا جريئاً للمنفوذ البريطاني في آسيا. وفور سماعه بالاتفاقية هرع إلى القاهرة وطلب الاجتماع باللورد كاتشر وسأله عن سبب السماح لألمانيا بالسيطرة على ميناء إسكندرون، وهو ميناء

حيوي عنه دزرائيلي بقوله إن سلام العالم سيتوقف ذات يوم على السيطرة على هذه البقعة من ساحل آسيا الصغرى وهي التي تشير إليها الإصبع الممتدة من أرض قبرص. أجاب كنتشر: لقد حذرت لندن مرات عدة، لكن وزارة الخارجية لم تُعبر الأمر أدنى اهتمام. وخلال عامين ستحدث حرب عالمية. لسوء الحظ أيها الشاب، لن نستطيع أنا وأنت أن نوقفها، لذا امضي في سبيلك وقم ببيع مقالائك.

مع أن الغم قد استولى على لورنس لأن بريطانيا، الغارقة في غفوة، سمحت لألمانيا بيسط نفوذها من بحر البلطيق إلى الخليج العربي، فقد قرّر أن يسلي نفسه بمضايقة المهندسين الألمان الذين يعملون بسرعة شديدة على إنجاز السكة الحديدية بين برلين وبغداد. قام بتحميل قطع من أنابيب الصّرف الصحي على ظهور البغال، ونقلها من كركميش إلى الهضاب التي تطل على المعبّر الذي يؤدي إلى سكة الحديد الجديدة، وهناك رفعها بحذر على تلال من التّزل. رصدها الألمان بمناظيرهم وظنّوا، كما كان لورنس يأمل، أن هذه الأنابيب المريثة غير المؤدية هي مدافع بريطانية. وما كان منهم إلا أن أبرقوا بجنود إلى القسطنطينية وبرلين يعلنون أن البريطانيين يحضنون كل المواقع القيادية. في تلك الأثناء كان لورنس وويلي يضحكان في سترهما بسبب تلك المزحة.

كان الألمان يعملون على إنشاء جسر عظيم على نهر الفرات عند جرابلس الواقعة شمال شرق حلب. وكما هي طريقة الألمان فقد وضعوا أرقاماً على معاطف عمالهم المحليين كوسيلة للتعرف عليهم، ولم يحاولوا أن يجهّدوا أنفسهم في تعلّم أسمائهم بل إنهم ارتكبوا حماقة بسماعهم لدوي الثّارات بالعمل بعضهم مع بعض، وبدلاً من حفر الحُفَر من أجل دعائم الجسر أخذوا يتطاحنون فيما بينهم. استمرّ هذا الحال لفترة من الزمن ثم انقلب العمال الأكراد السبعمئة على رؤسائهم الألمان وقاموا بالتهجّوم عليهم. ساند ثلاثمئة من الفرقة العاملة في حفريات كركميش أقرباءهم وشبّاناً محمّلاً مبالغاً من الخلف، ونحس الحظ فقد وصل لورنس وويلي في الوقت المناسب لإيقاف نشوء مذبحة. ونتيجة لبطولة عائلي الأتار فقد صدر أمر من السلطان

بمكافأة مالية لهما. كان ذلك في عام 1914 قبل أن تباع الحرب لورنس.

كانت أولى حملاته في الشرق الأدنى لصالح نموبل الاستكشاف الفلسطيني. حاول لورنس وولي تسع خطى بني إسرائيل في البراري. بالإضافة إلى اكتشافات عدة، وجدا ما يمكن أن يكون قديم Kadash Barnea المذكورة في التوراة، وهو المكان التاريخي حيث ضرب موسى الصخرة فتفجرت منها المياه. قاما أولاً بتحديد موقع في شبه جزيرة سيناء بدعوة البدو بعين قادن حيث يوجد بئر مهم وحيد، وربما يكون هو المكان الذي بدأ فيه بنو إسرائيل الشكوى إلى موسى بسبب شح المياه. علق لورنس بقوله: «إن كان هذا هو المكان حقاً، فلا بد من لوم بني إسرائيل على شكواهم».

بعد قطع مسافة خمسة أميال عشر عالما الآثار على عدة ينابيع صافية في وادٍ صغير يقال له غدرات Gidurat، وأيقنا أن هذا المكان هو الذي نجح فيه موسى في استرجاع ثقة بني إسرائيل بإرواء ظمأهم بالماء المتلألئ لهذه الينابيع. بعد فترة من الزمن ألف وولي ولورنس كتاباً تناول هذه المبعثة بعنوان «مزية الخطيئة» وذكر فيه أهم العثور على آثار حضارة يرجع تاريخها إلى عام 2500 قبل الميلاد، وهي أقدم آثار بشرية اكتشفت في شبه جزيرة سيناء.

ألف وولي Woolley كتاباً ممتعاً نشرته مطبعة أوكسفورد الجامعية بعنوان «مدن مينة ورجال أحياء»، وصف فيه الأعمال الأثرية التي قام بها مع صديقه لورنس قبل الحرب. هناك قصة تظهر بجلاء الفرق الكبير بين طريقة عذرين الزجلين في التعامل مع السكان المحليين وبين أساليب الألمان العاملين في مد الخط الحديدي بين بغداد وبرلين:

يكتب وولي «ذات يوم كان خادمنا أحمد عائدًا ببعض الأشياء التي ابتاعها من القرية، ومرت بجماعة من العمال المحليين الذين يعملون في السكة الحديدية، وكان رئيسهم مديناً لأحمد ببعض المال. ولما طالبه أحمد بسداد الدين رفض ونشبت بينهما

مشادة كلامية. رأى أحد المهندسين الألمان وهو يقوم بجولته أن دخيلاً يعيق العمل، وبدلاً من أن يطلب منه الانصراف استدعى جنديي الحراسة فأمسكوا بالمسكين أحمد، ودون أن يسأل أي سؤال عن سبب الجدل أمرهما بضربه بالعتياط ضرباً مبرحاً. عاد أحمد إلينا بثألم بشدة، وبما أنني كنت منغيماً، فقد ذهب لورنس إلى المعسكر الألماني طلباً للمصالحة.

«وجد هناك كونترن Conlzen، وأخبره أن أحد مهندسيه قد اعتدى على خادمنا ولا بد له من الاعتذار منه. استخف كونترن بالأمر، لكنه عندما لاحظ جدية لورنس، وافق على إجراء تحقيق وأرسل في طلب المهندس لسؤاله. وبعد أن تحدث معه التفت إلي لورنس غاضباً وقال: «ألم أقل لك إن الأمر كله مجرد كذبة؟ إن الهزء س لم يشتم الرجل بل خلده بالسوط فقط.»

سأله لورنس: «ألا تعد ذلك تعدياً؟»

أجاب الألماني: «بالطبع لا. ليس بمقدورك استخدام هؤلاء العمال دون خلدتهم. إننا نضرب بعضهم بومياً. هذه هي الطريقة الوحيدة للتعامل معهم.»

رد لورنس قائلاً: «جئنا قبلكم إلى هذا المكان ولم يضرب أحداً من رجائنا أبداً، ولن أسمح لك أن تبدأ أنت بهذا. وعلى مهندسك أن يأتي معي إلى القرية ويعتذر من أحمد على الملاء.»

ضحك كونترن وأدار ظهره وهو يقول: «هذا هراء! انتهت القضية.»

أجاب لورنس: «بل هي لم تنت بعد، وإذا لم تفعل ما قلته لك فسنأخذ الإجراءات اللازمة بنفسى.»

التفت كونترن قائلاً: «وماذا يعني ذلك؟»

«أعني أنني سأخذ مهندسك إلى القرية وأجلده بالسوط.»

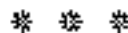
صرخ الألماني مغتاضاً: «إنك لن تجرؤ على فعل ذلك.»

ليكن ثورنس أكد له بأن هان الساطع أن ليس هناك ما يمنع من ذلك، وانتهى الأمر
باعتماد المهندس أمام أهل القرية وسط استمناخ الثروين جميعهم.

أمضى ثورنس سبع سنين وهو يتجول في أنحاء الصحراء يرافقه وولي في كثير من
الأحيان، وفي أحيان أخرى كان يبقى وحيداً في ثيابه المحلية. أرسله المتحف البريطاني
في إحدى المرات في بعثة استكشافية قصيرة إلى داخل جزيرة سومطرة حيث فر من قاطعي
البرقوس ولاقى من الإثارة ما يعادل مغامراته في جزيرة العرب. لكننا لم نستطع إقناعه
بالكلام عن ذلك، وربما يحدثنا عنه ذات يوم في بعض من مذكراته.

طالما تساءلتُ ثم اختار جزيرة العرب مسرحاً لعمله في البحث عن الآثار بدلاً من
مصر التي تعادل مكة والمدينة بالنسبة لمحبي التنقيب عن الأشياء الأثرية؟ كان جوابه
مناسباً لشخصيته إذ قال:

«لَمْ تَغِرْني مصرُ أبداً. فإن معظم العمل قد تم إنجازه هناك؛ كما أن معظم علماء
المصريات اليوم منكثرون على محاولة اكتشاف متى تم رسم الشجرة الثالثة لخفساء!».



صحاري شمال جزيرة العرب

«العربية الصحراوية»



عالم الآثار والشاعر الذي غدا محارباً

الفصل الثالث

عالم آثار يتحول إلى جندي

كان لورنس على يقين من اقتراب حدوث صدام، وذلك بفضل نصائح اللورد كينسر وملاحظاته الشخصية. وعندما حدث ذلك فعلاً حاول على الفور الانضمام إلى الحشود كمتطوع. لكن أفراد اللجنة الطبية الحربية نظروا إلى الشاب الهزيل قصير القامة أشقر الشعر، ثم غمز أحدهم الآخر وطلبوا منه أن ينحني بأمه وينتظر الحرب المقبلة. بعد أربع سنوات فقط من رفضه بسبب عدم ملائمته للمنصب جسدياً، دخل خريج أوكسفورد، صغير الجسم المثقف الخجول، دخل دمشق على رأس جيشه العربي المنتصر. ولينصوّر الفارسي ما كان يمكن أن يقوله أحد أفراد اللجنة الطبية لو قال أحد ما في عام 1914 إنه بعد ثلاث أو أربع سنوات سيرفض هذا الشاب نفسه لقب «سير» Sir ورتبة الجنرال، بل سيرفض حتى قبول شارة فيكتوريا والأوسمة الأخرى التي يتطلع الناس للحصول عليها.

بعد أن رفض لورنس كل ذلك، عاد إلى آثاره القديمة وعكف بسرور على دراسة النقوش التي تخفي وراءها أسرار حضارات كانت في يوم ما مزدهرة ثم تهدمت وشوئت بالتراب منذ آلاف السنين. حدث بعد ذلك أن طلب منه السير غلبرت ف. كلايتون الحضور إلى مركز القيادة العامة في القاهرة هو وبعض العلماء والمفكرين والشبان ذوي القدرات المتميزة من أمثال مارك سايكس وأوبري هيرت وكورنواليس وبيوكومب وغيرهم. على الرغم من أن لورنس كان في ذلك الحين في السادسة والعشرين من عمره، فكان قد زار تركيا وسوريا وفلسطين وجزيرة العرب وبلاد الأفنديين وفارس. لقد عاش وسط رجال انقباض البدائيين في الداخل، كما عاش سكان

المدن الكبرى كحلب والموصل وبغداد وبيروت والقدس ودمشق. وفي الواقع فقد كانت خبرته ببعض أجزاء الشرق الأدنى فريدة من نوعها. لم يكن يجيد التكلم بعدة لغات فحسب بل وقف على عادات كل الجسبات المتباينة ودرس تطورها التاريخي. في البداية أدخل في دائرة الخرائط حيث كان الجرائد بمضمون المساعات وهم يتأملون جداول غير دقيقة ويناقشون الخطط التي تمكنهم من إيجاد نقطة ضعف داخل القوات التركية. كانوا بعد وضع مخططاتهم، يلتفتون في كثير من الأحيان إلى ذلك الموظف ذي المظهر المتواضع ليروا إن كان لديه أية مقترحات بناءً على معرفته الشخصية بالبلاد. كان جوابه غالباً هو التالي:

«هناك نقاط ممتازة في خططكم لكنها غير قابلة للتنفيذ ولن تؤدي سوى إلى إضاعة الوقت في إنشاء طرقات تنقل المعدات والمدفعيات، وإزهاق الأرواح من أجل حماية خطوط الاتصالات عبر أراضي القبائل المحلية المعادية».

كحل بديل كان يشير إلى طريق أقصر وأكثر أماناً يعرفها بدقة، لأنه سبق وأن تجول على قدميه في كل بوصة منها بحثاً عن الآثار المفقودة للجيش الغازية من الآشوريين والإغريق والرومان والصليبيين، وأصبح أشد ضباط الجيش الممسنين وقاراً يضعون ثقتهم في هذا الملازم هادئ الصوت، وبعد فترة قصيرة رشح نفسه سمعة جيدة لدى القيادة العامة.

ومن ثم كان لورنس في كثير من الأحيان في جزيرة العرب يتفوق دهاءً على الأتراك بسبب تفوقه في المعرفة بطبوغرافيا البلاد. كان يعرف العديد من الأجزاء المشراعية للأمبراطورية التركية أكثر من الأتراك أنفسهم.

نقل بعد ذلك من دائرة رسم الخرائط إلى فرع آخر لدائرة الاستخبارات التي كانت تتعامل بشكل رئيسي مع شؤون المناطق داخل صفوف العدو. كانت مهمته، كأحد رؤساء انقيالق السرية، تبليغ القائد العام بتحركات وحدات الجيش التركي. وقد أخبرني السير أرشيولد مري، قائد القوات البريطانية في الشرق الأدنى، أنه كان يقدر المعلومات التي يرسلها له أيما تقدير، هذا الشاب الذي خضع له العملاء المحليون

السريون الذين كانوا يدخلون إلى صفوف الأتراك ويخرجون منها.

حدث في صيف سنة 1915 أن ثار عرب الحجاز في وجه أسبادهم الأتراك في ذلك الجزء من شبه جزيرة العرب المعتمد من مكة المكرمة إلى الجزء الجنوبي من البحر الميت، وهي الأراضي المعروفة بجزيرة العرب المقدسة.

ولكي نفهم الأسباب التي أدت إلى اندلاع الثورة ولتقدّر المشكلات المعقدة التي كان على لورنس أن يواجهها إثر وصوله إلى جزيرة العرب بعد أن أحرز العرب انتصارات أولية وقابلهم احتمال انهيار تورنهم، دعونا نخرج عن الموضوع للمحظنات لنلقي نظرة سريعة على الماضي عبر صفحات تاريخ جزيرة العرب وللمعش ذكرباتا بقصص تاريخ البلاد وشعبها الترائع.

نذكر الأساطير أن جزيرة العرب كانت موطن حدينا الأولين آدم وحواء، وموطن مدينة سبأ وأبضال قصص ألف ليلة وليلة، هي بند سكنها أناس عاشوا فيها وكانت لهم آمال ومشاعر حتى قبل أن يسكن الهنود شمالاً أميركا أو بيني الذر ويد معابدهم الحرة في بريطانيا، تقول المرويات إن سكان هذه البلاد قد أسسوا الإمبراطوريات العظيمة قبل أن يخرج موسى بيني إسرائيل من مصر، وربما قبل أن بيني خويو هرمه الأكبر. ويقول علماء الآثار، الذين خاطروا بحياتهم لكشف غموض جزيرة العرب، إن مدناً عظيمة قد ازدهرت ثم خبت قبل عهد نوت عتخ آمون بفترة طويلة، وأن الملك العظيم حمورابي قد صاغ قانونه العادل في بقعة نائية من البلاد قبل أن ينشر بوذا تعاليمه على ضفاف نهر الغانج وقبل أن يتفوق كونفوشيوس بمبدأ القاعدة الذهبية.

إن شبه جزيرة العرب أكبر في مساحتها من إنكلترا وويلز واسكتلندا وإيرلندا وهولندا وبنجيكافرتسا وإسبانيا مجتمعة. هي البلاد التي جاءها اليونان والرومان للتجارة أو القتال أو الدراسة، وقسموها إلى ثلاثة أجزاء جغرافية هي: العربية الصحراوية *Arabia Petraea* في الشمال والعربية الصحراوية *Arabia Deserta* في الشرق والعربية السعيدة *Arabia Felix* في الغرب.

مع أن بعض العلماء يعتقدون إنها موطن الجنس البشري الأصلي، فلا توجد لدينا خرائط دقيقة، وربما تكون خرائط القطب الشمالي وكوكب المريخ أدق من تلك التي تصف بعض أجزاء من جزيرة العرب التي ينحدر منها العديد من الرجال المحاربين في جيش لورنس.

وإن المسافة بين مدينة حلب الواقعة في الشمال ومدينة مكة الواقعة في منتصف المسافة على الساحل الغربي لجزيرة العرب، لا تقل عن المسافة التي بين لندن وروما. ومع هذا فقد سافر لورنس ورجاله من مكة إلى حلب على ظهور الجمال في بلاد قاحلة تكاد لا تختلف عن الجبال على سطح القمر.

وحسب لا برتيك الفارسي بشأن الأسماء العربية الغربية، فمن الأفضل أن يبقى في ذهنه أن الحملات العربية قد بدأت من مكة ثم انتقلت إلى الشمال باتجاه الغيبة، ومنها إلى دمشق وحلب في سوريا. إن كل حدث بوصف في هذه الرواية يبعد عن الذي قبله إلى جهة الشمال. على الرغم من أن بعض الجهات تقدر عدد سكان جزيرة العرب بعشرين مليون نسمة، فقد بقي الكثير منهم مع بعضهم خلال قرون بفضل صلات القرابة ليس إلا، كذلك التي وجدت بين قبائل الهنود الحمر في أميركا منذ مئات السنين.

لقد قسمت شعوب جزيرة العرب منذ زمان سحيق إلى طبقتين: سكان القرى والمدن، وأولئك الذين يتنقلون من مكان إلى آخر يحملون متاعهم البدوي في حقائب جملتهم. يدعى الصندان كلاهما بالعرب، لكن الفئة المتنقلة تدعى بالبدو لتتميز بينهم وبين إخوانهم الذين يقطنون الأراضي الزراعية. والبدوي الضعيف لا يعرف شيئاً عن زراعة الأرض. ومواشيه هي الإبل والخيول. يُعد البدو الفئة المتميزة، وهم العرب الذين حافظوا على حبهم للحرية والفضائل القديمة التي تميز أخلاقهم الرجولية.

كان أول الرحالة إلى جزيرة العرب رجل إنكليزي هو شارلزم. داوئي الشاعر والفيلسوف ومؤلف الكتاب الرائع "Arabia Deserta" «رحلات في العربية الصحراوية» المكتوب بأسلوب إليزابيثي أصيل. وهو باستثناء الكولونيل لورنس، الأوروبي الوحيد الذي أمضى وقتاً طويلاً يتنقل في الأنحاء الداخلية من جزيرة العرب

المقدّسة دون أن يتظاهر بأنه مسلم. لقد توصل داوتي إلى النتيجة نفسها التي توصل إليها كل من عرف البدو بأنهم قوم دمثون يكرمون من يحلّ ضيفاً عندهم.

لكنهم تبعاً لقانونهم غير المكتوب، لا يعدّون الغرب الذي يقع بين أيديهم في الصحراء ضيفاً، وبالتالي فإنّه يجدهم غلاظاً لا رحمة في قلوبهم. وفي حالات قاسية قد يقطع عرب شمر رأسه. هناك مثل شائع في الصحراء يقول إن الرّجل قد يذبح أخاه من أجل نعل حذاء قديم. ومع ذلك، فإنّ حسن ضيافتهم رائعة حتى أنها أصبحت مضرب المثل في كل أنحاء العالم. يقول البدوي: «ألسنا كلنا ضيوفاً على الله؟» ثم يضيف داوتي: «وبعد أن يأكل الضيف الخبز والملح تنشأ علاقة سلام تستمرّ بينه وبين مضيفه لفترة من الزّمان (تقدر بلبنتين ويوم، في الأغلب المدة التي يبقى فيها الطعام في جوفه).

أما كلمة «عرب» فقد اشتُقت من كلمة «عربيّة» وهو اسم إقليم صغير في مقاطعة فديمة جنوبي الحجاز يقال إنهم سمّوها بهذا الاسم نسبة إلى يعرب بن فحطان بن عابر بن شائع بن أرفخشذ بن سام بن نوح أول ناطق بالعربيّة، لغة الملائكة كما يقولون. وتعرّب من الشعوب السامية، التعرّق نفسه الذي ينحدر منه اليهود.

والعالم مدين بالشّيء الكثير للعرب، فهم لم يخترعوا فقط العديد من ألعابنا الصّينية، كالبلبل الذي يدور بسحب الخيط، بل خطّوا خطوات واسعة في مجال الطب، وكانت طرق علاجهم قريبة جداً من الطرق الحديثة. كان جزّاحوهم الماهرة يجرون عمليات ضخمة باستخدام التخدير عندما كانت أوروبا معتمدة بشكل كلي على الشّفاء بالمعجزات الذي يطبقه رجال الدّين. أمّا في الكيمياء قبل العرب الفضل في اكتشاف الكحول واليوتاسي ونترات انفضة وظاهري التصفّد والتآكل وحامض الكبريت وحامض التريث. ولقد قاموا بعدة تجارب زراعية هامة وعُشّروا بالترقي واستخدام السماد، وأشياء أخرى كتطعيم الفاكهة والزهور. واشتهر العرب في العالم كونه بدّيع الجنود وصيغ الأقمشة وصناعة الرّجاج والأواني الفخارية والمنسوجات والورق، وأنفقوا العمل بالذهب والفضة والنيحاس واليروتز والتحديد والفولاذ.

وأما أغنى بفعة من جزيرة العرب، باستثناء بلاد الرافدين، فقد كانت وماتزال

مقاطعة اليمن الواقعة في أقصى الزاوية الجنوبية الغربية، وهي منطقة جبلية تقع شمالي عُذَن. اشتهرت على مدى آلاف من السنين بكنوزها الثمينة ومناخها البهيج، وخصوبة أوديتها وبكونها موطن البن الذي تُصنع منه القهوة نُدْبُذَة المدافق. يخبرنا سترابو الجغرافي اليوناني، أن الإسكندر الأكبر كان قد قُور، قبل موته بفترة قصيرة، العودة من الهند وتأسيس عاصمته الإمبراطورية هناك. ويعتقد بعض العلماء أن هذا الإقليم هو أقدم موطن سكنه الإنسان وأنه الموطن الذي جاء منه قدماء المصريين. كما قامت فيه منذ عام 1000 قبل الميلاد ممالك مزدهرة كالمناذرة والشبطين والجمهرين.

بعد تدمير القدس على يد نيطوس، فرّ كثير من اليهود إلى اليمن وما يزال أحفادهم الأصليون يعيشون فيه. لكن لما اكتشف البطالمة الطريق البحري إلى الهند أصبح اليمن أقل أهمية، وغدت منطقة الحجاز أشهر إقليم في جزيرة العرب لقرون طويلة. يقع الحجاز على البحر الأحمر شمالي اليمن ويحدّه من الشرق المنطفة الوسطى من الجزيرة المعروفة بإقليم نجد، ويحدّه من الشمال الشرقي ومن الشمال سوريا والبحر الميت وفلسطين وشبه جزيرة سيناء.

وكلمة «حجاز» تعني «حاجز». يشتهر إقليم الحجاز، الذي يفتقر إلى المياه، بمدينتيه الرئيسيتين: مكة، موضع ولادة النبي محمد والتي كانت تدعى في الأزمنة الغابرة Maqoraba؛ والمدينة، التي كانت تدعى يثرب، حيث أمضى النبي آخر عشر سنوات من حياته ودُفن فيها، ويجب على كل المسلمين المستطيعين الحج إلى هاتين المدينتين، كما كان على الناس القدوم إليها في العصر الجاهلي قبل الإسلام.

قبل ألف عام من اكتشاف كولومبوس لأميركا، ولد صبي في مكة. كان مقدرًا لهذا الصبي أن يغيّر وجه التاريخ في العالم بأسره. كان في شبابه يرعى الغنم والتماعز فوق الهضاب المحيطة بمكة، ثم عمل بالتجارة بأموال أرملة ثرية من سيدات مكة. كان يقود قوافل جمالها إلى سوريا للمناجزة مع التجار الأغنياء هناك.

وفي سوريا تعرّف بشكل جيد على الدّينيتين اليهودية والمسيحية، وتيقّن من أن قومه العرب، الذين كانوا يعبدون الأصنام، لم يكونوا يدينون بديانة صحيحة. لذلك

أخذ النساب ما يوافقه من عقيدة النصارى وبعضاً من تعاليم اليهودية وبقايا من فلسفة
 الفرس عبدة النار ومجموعة من التقاليد العربية، وأضاف إليها شيئاً من أفكاره ثم أتمسك
 ديانة جديدة^١. كان بحث أتباعه على الاعتقاد بأن آدم وإبراهيم وموسى وعيسى هم
 أنبياء الإسلام. أما اليوم فيُنظر إليهم على أنهم أقل أهمية من محمد نفسه، الذي نُعدّ
 تعاليمه الروحي الأخير من الله. في جزيرة العرب نجد في كل عائلة تقريباً ابناً اسمه
 «محمد»، وربما يكون عدد الرجال في العالم الذين يحملون هذا الاسم أكثر من عدد
 الذين يحملون اسم «جون» أو «وليم».

هل من الغريب بعد ذلك أن تكون الصحراء موطناً لأعظم ثلاثة أديان في العالم:
 اليهودية والمسيحية والإسلام؟ يطلق العرب على الصحراء اسم جنة الله ويقولون
 إن الصحراء خالية من أي كائن سوى الله. هناك في صحراء جزيرة العرب، ربما أكثر
 من أي مكان آخر في العالم، «تعلن قبة السماء تعجيبها للخالق ولبديع صنعه. يوماً
 بعد يوم نسمع فيها المواعظ، وليلة بعد ليلة نكتسب المعرفة». لا يوجد في الصحراء
 تكالب على جمع المال لأجل أئمال، ولا سباق جنوني ليسبق الإنسان فلاناً من البشر.
 وإنه من لعنات مدينتنا الحديثة أنها لا تترك للإنسان الفرصة الكافية للتفكير والتأمل.
 بينما توفر الصحراء المكان المناسب ليتفكر المرء بالقدر ويتأمل بالأمور التي لا
 نستطيع الحشرات أو الضفاد أفسادها، كما لا يتمكن اللصوص من الاقتحام وسرقها.

كان محمد أول رجل استطاع أن يجمع شمل الناس في جزيرة العرب. لقد جاء في
 الزمان الذي كانت فيه البلاد بحاجة إلى زعيم عظيم يطرد منها السيطرة الأجنبية. وقد
 استطاع توحيد العرب بفضل نشر التعاليم الزائفة لرسائله. كان يفوق كل القادة العظماء
 بأنه يملك فكرة قيادية وقادرة على القيادة وهبة من الله مثل نابليون في سيطرته على
 قلوب الرجال وتشكيلها وتجميعها وصهرها وتثبيتها لتصبح كقلب رجل واحد.

بعد وفاة النبي محمد فامت الشعوب العربية، بدافع الحماسة الدينية، بالخروج

(١) هذا كلام المؤلف الذي لا يؤمن بنبوته سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام، ولا يحتاجها نلزد
 عليه في هذا الكتاب، فحسبنا إيماننا واعتقادنا بديننا وديننا الكريم.

من الصحراء وبسطت سلطانها على مناطق مترامية الأطراف من العالم وأنشئت الإمبراطورية الإسلامية الضخمة التي تعدّ أعظم من الإمبراطورية الرومانية. في تلك الأيام المزدهرة للإسلام، زوّد العرب البلاد التي فتحوها بالغداة الثّنيين والسياسيين والعسكريين، وبدأت لا يمكن الوقوف في وجههم أبداً.

يكتب الطّبري، المؤرخ الإسلامي، «كان العرب يأكلون الجراد والعمل البرّي، وبعد أن تذوقوا طعم الحضارة في سوريا ورفلوا في قصور كسرى الفخخة، قاتلوا: لو لم تكن نقاتل من أجل الملّة، لما نمينا إلا لنحصول على كل ذلك والاستمتاع به، ناركين الشّقاء والجوع للأخريين. وخلال قرن من وفاة النبيّ محمّد، كان عرب الحجاز قد أمسوا إمبراطورية أكبر من إمبراطورية الإسكندر أو إمبراطورية روما؛ لقد اكتسح الإسلام العالم كالإعصار».

بلغت هذه الإمبراطورية ممتدّة الأطراف ذروة مجدها في القرن السابع من هذه الحقبة، وبدأ الوهن يتطرق إليها بعد معركة تور Tours عام 732 للميلاد عندما هُزم العرب في فرنسا أمام المسيحيين تحت قيادة شارل مارنل.

بقي كثير من العرب في البلاد التي فتحوها، حصلوا، نجاراً ومبشرين، نعاليم عقيدة محمّد من جزيرة العرب إلى جبل طارق وأفريقيا الوسطى ووسط الصّين وجزر البحار الجنوبيّة. وهم يصدقون بعقيدتهم من فوق المآذن في كل بقعة يوجدون فيها: «إلا إله إلا الله، الله أكبر».

وحتى اليوم، تجد آلاف من المسلمين يحتلون مناصب مهمة في مناطق بعيدة كهونغ كونغ وسنغافورة وإندونيسيا وإسبانيا. بينما عاد الآخرون إلى موطنهم الأصلي في الصحراء العربيّة. وعادت جزيرة العرب إلى عزلتها من جديد بفعل سلاسل الجبال التي تحدّ سواحلها، وبفعل طرقاتها غير المأمولة النملية بالزّمال المتقلّة. وفي القرن الثّاني عشر قام أحفاد صلاح الدّين، الذي كان نصف كردي، بالاستيلاء على أطراف الصحراء. وبعد مرور ثلاثة قرون جاءت قبيلة من محاهل هضاب آسيا الوسطى. كانوا من قبيلة عثمان، أجداد الأتراك المعاصرين، وحاولوا حكم العرب وكانهم من جنس أدنى من جنسهم.

ادعى الأتراك ملكيتهم لجزيرة العرب نحواً من أربعمئة سنة، فقط لأنهم يملكون بعض الحاميات على طول الساحل. نجحت بعض تلك الحاميات بالضمود حتى نهاية الحرب، لكنهم أجبروا أخيراً على الاستسلام والانسحاب من جزيرة العرب وتركوا أهلها يتمتعون بالحرية.

لم نعترف قبائل الحجاز في وقت من الأوقات بسيادة أحد من الحكام الأجانب. واحتفظ الحجازيون على مرّ السنين، وهم يضعون حريتهم الشخصية فوق كل الاعتبارات. وكثيراً ما أرسلت الجيوش الجاراة لتفزع الحجاز ولكن لم يتمكن الأسوريون أو المجوس أو الفرس أو الإغريق أو الرومان من السيطرة على بلادهم.

منذ انهيار الإمبراطورية العربية، قبل أكثر من ألف عام، ما برح القواد والسلاطين والخلفاء يحاولون توحيد العرب، وخصوصاً في منطقة الحجاز، لأنها تضمّ المدينتين المعكومتين لدى المسلمين. لم ينجح أحدهم في فعل ذلك، ثم قُدر لتوماس إدوارد بورنس أن ينجح بما فشل فيه الآخرون. لقد دخل هذا الشاب عالم الآثار البريطاني جزيرة العرب وقاد العرب من خلال تلك الحملة الزائرة التي ساعدت النوردي التي على قصم ظهر الإمبراطورية التركية والقضاء على حلم الألمان بيسط نفوذهم على العالم. أما الطريقة التي استطاع بها بورنس طرد الأتراك من بلاد العرب المقدسة وتكوين المملكة العربية المتجانسة المعروفة بمملكة الحجاز، فهي قصة ما كنت لأصدقها أبداً لو لم أقم بزيارة جزيرة العرب والالتقاء شخصياً بلورنس ورفاقه أثناء حملتهم.

وإن العامل الذي لعب دوراً مهماً في تسهيل مهمة بورنس في جزيرة العرب لعنه يكون سلالة النسب التي في أبناء الصحراء. ويجب علينا أن نعرف شيئاً عن هذه القصة وقادتها النحانيين لفهم دبلومة مناسبة وإستراتيجية الكولونيل بورنس التي متابعها من خلال حرب الصحراء.



لورنس في مقر القيادة العامة بالقاهرة



مؤذن ينادي المؤمنين للصلاة

الفصل الرابع

سلالة أشرف البيت النبوي

خلال تلك القرون من الحكم التركي غير المستقر، بقيت في المدن المقدسة من الحجارة سلالة من البيت النبوي المعجدين من آل النبي محمد. كان بقية العرب يدعون هؤلاء الأشخاص بالأشرف، الذين كانوا يكرهون الأتراك ويعذونهم من التدخل. كانت هذه القوة قوية بحيث لم تتمكن الدولة العثمانية من القضاء عليها.

مع ذلك، عندما كان الأشرف القاطنون بالقرب من المواقع التركية المحصنة على طول حدود انحصاراء، يحتجون علانية على ظلم العثمانيين، كان السلطان يدعوهم لتقديم والإقامة قريباً منه في القسطنطينية. وهناك لا يكونون بحكم السجناء، بل يبعدون عن الطريق بهدوء.

كان السلطان عبد الحميد، آخر السلاطين العثمانيين البارزين، فقد برع في اتباع هذه السياسة الخاصة بمن سبقوه. ولعل من أبرز العرب الذين وجد من الأفضل أن يبقوا قريباً من الباب العالي هو الشريف حسين، شريف مكة. كان أكبر أحفاد النبي الموجودين سنأ، ولذلك كان الكثيرون يرحبون أنه الأولي بالخلافة، أي القيادة الروحية والدنيوية للمسلمين. كان لقب الخليفة يعطى أساساً لمن هو منحدر من سلالة النبي مباشرة، لكن الأتراك اغتصوه فيما بعد.

ليس من شعب يقتخر بأجداده كالعرب العربي. وإن تواريخ كل العائلات الأميرية الحاكمة مدونة في مكة عند المسجد المبني حول الحجر الأسود، الذي يعد ملايين من الناس أكثر الأماكن قداسة في العالم. هناك، على لفافة ورقية، كتب اسم الحسين

بن علي، الحفيد المباشر للتي محمد من ابنته فاطمة، وكذلك ابنها الأكبر الحسن.

كانت للملك حسين في شبابه روحٌ منطلقة، وبدلاً من العيش مع عائلته بهادوء في مكة، أخذ يجوب الصحراء مع البدو وشارك في كل غزواتهم وحروبهم القبلية. كانت أمه مكرمية الأصل وقد ورث منها حيويته الزائدة. تلقى عبد الحميد السلطان الأحمر، عدداً من التقارير المقلقة تناول الحياة البرية التي يعيشها هذا الرجل المستقل الذي كان يخشاه ولا يثق به. كان أمامه أحد حليين: الأول أن يقتله ويضعه في كيس ثم يرمي به في البوسفور، والثاني أن يقيه في القسطنطينية تحت المراقبة الشخصية اللصيقة. على الرغم من خشيته من احتمال تأمر حسين ضده، فإن حقيقة كونه من سلالة النبي جعلت من الصعب على السلطان أن يقذفه في البوسفور. فما كان منه إلا أن أعطاه راتباً ومنزلاً صغيراً يقع على القرن الذهبي حيث أجبر على العيش مع عائلته لمدة ثمانية عشر عاماً. كان عبد الحميد يطلق عليه كلمة «ضيف» مع ابتسامة قاتلة.

أثناء سنوات المنفى الثمانية عشرة، استخدم السلطان العجوز الدبلوماسي المكار كل الأساليب التي تبقى حسيماً وراضياً. ومن بين العطايا قدم إليه سيارة رولر رويس فخمة ذات هيكل من الألمنيوم. شكر حسين السلطان على ذلك لكنه أبدى للجميع أنه يفضل بغاله عليها.

علما حدثت ثورة الشبان الأتراك في سنة 1912، وأطاح بعبد الحميد من على عرشه، أطلق سراح كل المسجونين السياسيين من القسطنطينية واعتقد الحسين ومن معه من زعماء العرب أنهم يشهدون فجر عهد جديد من الحرية والاستقلال. لقد ساعدوا الحركة الجديدة على إزالة النظام القديم، لكن سرعان ما تبددت آمانهم فإن جمعية الاتحاد والترقي قد اندفعت بسرعة تخطط إلى تريك كل الشعوب ذات الأعراق المتحددة التي كانت تكون الإمبراطورية التركية. بل ذهبوا إلى أبعد ذلك بأن أصروا على تخلي العرب عن لغتهم الجميلة، لغة الملائكة، واستبدالها برطانة اللغة التركية. ولم يفل الزمان بحسن ليكتشف أن جمعية الاتحاد والترقي، التي يرأسها أتور وظلعت وجمال، أكثر استبداداً من عبد الحميد في أشد أوقاته تورحشاً ودموية.

إنهم يظفرون الآن إلى الشرير عبد الحميد على أنه رجل لطيف عجوز غير مزود، مقارنة مع من خلفوه. اقترحت الجمعية الفتاة أيضاً أن يتم استبدال الأنبياء القدماء في القرآن بالأبطال الأتراك. كما أنهم محو الكلمات ذات الأصل العربي من قاموس المفردات التركية.

ذاعت في مكة قصص مبالغ فيها عن ارتداد الأتراك إلى وثنية آل عثمان القديمة، وأنهم يأمرّون الجنود في القسطنطينية أن يصلّوا للذئب الأشهب، وهو إله من آلهة العهد البربري قبل أن تترك العنصرية موطنها القديم في برازي آسيا الوسطى.

على الرغم من أن القادة العرب قد يشعرون روية وطنهم يرغل في الاستعادة من جديد، فقد استطاع الشريف حسين وأولاده أن يكتسبوا كراهتهم للحكومة الثلاثية المستبدة وحزب الأتراك الشبان بمرته. وبسبب التمسك عدة التي قدمها للحكومة الثلاثية قبل أن يكشف خداعها، فقد منح لقب حامي الأماكن الإسلامية المقدسة، أو أمير مكة السادس والستون في العهد العثماني.

أعلنت من غوتروود بل، وهي المرأة الوحيدة التي تسلّمت منصباً عسكرياً مهماً في الجيش البريطاني وكان لها نفوذها في الشؤون الشرق أوسطية، أعلنت في رسالة إلى النابغ الملدنية أن حركة القوميين العرب قد انتعشت بسبب جمعية تركية الفتاة، تلك الجمعية التي ما كادت تصل إلى المتلطة حتى تبدّل موقعها تماماً.

كثرت من بل «إن الحرية والمساواة كلمتان خطيرتان في إمبراطورية مؤلفة من جنسيات متشعبة، ومنها العرب سريعو التبذير القابلون للتكيف، الذين أحيوا بمخز تقاليد ماضيهم العريق كمؤسسين للإسلام ومؤيديين لحكم الخلافة على مدى سبعة عشر عاماً، فكانوا أول من طأبت بترجمة الوعود إلى حير التفتيش، وفي الفجر المشرق للفترة التأسيسية توقعت التّجبة المثقفة من العرب أن تلبّي مطالبهم. لو استجاب الأتراك العرب في محاولة جادة بالسّماح بتطور الثقافة العربية تحت حمايتهم، لرئما اتخذت الإمبراطورية العثمانية حياة جديدة لها، لكن عقليتهم المتحجرة منعهم من اغتناء تلك الفرصة الذهبية.

بالإضافة إلى ذلك، فإن الزواج العسكرية البروسية شكلت بالنسبة إليهم إغراء قوياً خطيراً في مرحلة تأسيس إمبراطوريتهم. لقد قُدِّرَ لجمعية الاتحاد والترقي أن تتقنَ طريقها بين حساسيات الأعراق المختلفة وهي غير راضية بهذه المهمة، وبتجاهل أساليب عبد الحميد الذليل مناسبة التحذرة وجدت نفسها متورطة في صراع مأساوي واهن مع الدول المجاورة لها في أوروبا.

أقبل اندلاع حرب عام 1914، كانت المناطق العربية ممتلئة بالحقيد والرغبة في الانتقام....».

في جو من رفاحية العاصمة العثمانية نشأ أولاد الحسين الأربعة كشبان أتراك أكثر منهم شباباً عربياً. لقد أمضوا معظم أوقاتهم في التجديف في البوسفور وحضور الحفلات الزاخرة في البلاط الإمبراطوري. وقد عمل الأمير فيصل لمدة ست سنوات كسكرتير خاص للسلطان عبد الحميد. وعندما عاد الشريف حسين إلى مكة ألقى خطبة على أولاده الأربعة وأخبرهم بأنهم أضعف من أن يساندوه بعد أن تعودوا على الحياة الناعمة في إسطنبول: «إن القسطنطينية وحياتها العرفية اللعينة وراءكم الآن، الحمد لله، وعليكم من هناك أن تتخذوا وطناً لكم تحت قبة السماء مع إخوانكم في الخيام السوداء لكي نستعيد مجد عائتنا التي لحق بها الخزي والعار. الله أكبر». بعد قول ذلك قام الملك بأمر أولاده بحراسة طرقات الحجيج.

لم تكن طرقات الحج تلك سوى مسالك تصلح لعبور الجمال خلال الزمالة الحارقة وتصل ساحل البحر الأحمر بسكة المكرمة وأنطاكية التي تعد العاصمة الصيفية، وبين المدينة ومكة. وقد أرسل مع كل ابن من أبنائه فئة من أفضل رجائه المقاتلين. ثم سمح لهم باستعمال الخيام بل أجبرهم على النوم في عباءاتهم. كانوا يمشون أيامهم في مطاردة اللصوص. وكان من أسوأ اللصوص الصحراء رجال قبيلة الحارث ويطغون مئة من الخارجيين على انفاذ، أغلبهم من الأفراد المنفيين من عائلات الأشراف. اتخذ رجال الحارث هؤلاء مقرّاً لهم قرية محصنة طبيعياً تبعد خمسين ميلاً بجهة الشمال الشرقي عن مكة. وقد كان لهذه الحملات على اللصوص وقطاع الطرق أكبر أثر على

بناء الحسين فخلقت منهم رجالاً معتمدين على أنفسهم وقادة متميزين. وإن كون الأمير فيصل شخصية بارزة في الشرق الأدنى اليوم ليس بسبب دمه الملكي بشكل أساسي. ولكن لأنه بارع بأصايب القيادة في الصحراء العربية. وهي ليست حصيلة لعب القمار أو الاستجمام تحت أشعة الشمس.

أما علي، الابن الأكبر لحسين، فهو أمير قصير القامة نحيل أبيض بمنازل بأخلاقه الحسنة وسحر شخصي هائل، وهو دبلوماسي متمرس. إنه رجل مندب سخّي لأقصى درجة ومتشدد في المحافظة على كل ما يتعلق بالفضيلة. وكيفية أفراد عائلته، هو بعيد النظر، لديه طموحات لخير بلده. لكن طموحاته الشخصية لم تتجاوز أن يكون أميراً لمكة، المنصب الذي تولاه وراثياً بعد تنحي أبيه الطاعن في السن. أما عبد الله، الابن الثاني، فهو رجل طموح ممتلئ نشاطاً وحبوية، لكنه لا يرقى لأن يكون مثالياً. أصبح في نهايات الحرب حاكماً للأردن واتخذ مستشاراً له الرحالة الإنكليزي الشهير السير هاري سنت جون فيليبي.

وزيد هو أصغر أفراد العائلة، وهو نصف تركي. ليس فيه الكثير من روح الشرق، وعندما تاججت الثورة لم تكن لديه جذية إخوته. لقد نخلّى هذا الشاب الفتى عن أشكال الحماس القوي كالقومية العربية لباقى أفراد العائلة وكرّس نفسه لخوض غمار الحياة وملاذاتها كما هو متوقع من أي أمير في بداية العشرين من عمره. مع ذلك فقطرته سليمة وبهوى الضيعة وركوب الخيل والرقص. بعد أن استولى العرب والعجوس الأسرانية على دمشق رقص زيد على أنغام الجاز في المدينة كلها إلى أن أئتمعه فيصل بأن سلوكه ينبغي أن يكون دائماً محترماً، لكنه رجل ذو سحر خاص، وإذا تحقق أمه بالتذهب إلى أو كسفورد فيكون أفضل من في أسرته الالامعة لتفياهم بذلك.

أما فيصل، ثالث أبناء حسين الأربعة وأكثرهم شهرة، فهو شخص مثالي. وهو، على الرغم من تواضعه وتحفظه، ذو شخصية مرموقة. يولد كل عربي دبلوماسياً، وفيصل قد فاق أقرانه كثيراً.

يملك أطفال الصحراء القليل من الألعاب ولا يعرفون كيف يلعبون مثلما يفعل الأطفال في الغرب. إن الحياة قاسية وهادئة منذ أن يفتح الطفل عينيه ليجد نفسه بجانب أمه في

الخيمة السوداء. وما إن يبدأ بالحبو حتى يأتي إلى مجلس الثوري القبلي. مدرسته الوحيدة هي موقد القهوة، وثقافته الوحيدة هي كيفية التعامل مع الرجال والجمال.

بدأ الأمير فيصل حياته كصبي صغير بسيط يرعى الأغنام. كانت أمه فتاة عربية من مكة وهي ابنة عم والده. وعندما كان فيصل ولداً صغيراً أرسله الشريف حسين إلى الصحراء ليعيش في قبيلة بدوية، إذ كان من المعتقد أنه خير لئلا يولد أن يشب في الصحراء من أن يعيش في المدن والقرى. أصيب فيصل أثناء إقامته في القسطنطينية بانشل لكن الصحراء أعادت له قواه. مع ذلك هو ما يزال نجلاً وبلغ محيط خصمه إحدى وعشرين بوصة. وهو يدخن السجائر ليل نهار ولا يأكل إلا القليل. وله شهرة بين القبائل بأنه رام ماهر وبأنه يركب الخيول والجمال بشكل ممتاز.

وفصل رجل مثقف وعصري في وجهات نظره، ويقول الكولونيل لورنس، الذي يعرفه أكثر من أي رجل آخر، إنه صادق كضوء النهار. يتبعه شعبه لا خوفاً منه، بل لأنهم يعجبون به ويحبونه كثيراً. هو لطيف جداً ومتحيز الفكر ولن يحكم بطريقة المستبدّة التي كان أصحاب المدرسة القديمة يتبعونها. ولو أتاحت له الفرصة لاستطاع أن يقوم بأعمال تفيد شعبه فائدة جليلة.

يختار كبار النشاة عادة القصص البوليسية يقرأونها في أوقات فراغهم، أما فيصل فكان يقضي أوقات الهدنة بين الحملة والأخرى في قراءة الشعر العربي. كان من بين الشعراء المفضلين لديه امرؤ القيس. وهو شاعر مشهور بين الشعراء الحاهليين العرب. وكانت أشعاره تدور حول الجمال والصحراء والحب. من الشعراء الآخرين المفضلين لدى فيصل أيضاً ابن هشام وزهير وحرفة والحارث والمثنبي، وهم كتاب عظماء في العصور الوسطى عندما دخلت الثقافة العربية أقصى بقاع أوروبا. كان فيصل معجباً أشد الإعجاب بالبيت التالي للمثنبي:

الغيلُ والنيلُ والبيداءُ تعرفني
والسيفُ والرمحُ والفرطاسُ والفلمُ

وقد رأته في كثير من الأحيان يقرأ أعمال عترة الشاعر المشهور الذي كتبت عن حياته الخاصة منحة ضخمة تمنحها أخبار الغارات وكلمات الحب. وقد ألهمت

حرب التحرير الحالية مشاعر العديد من الشعراء ليحتوا الشعب بأناشيدهم الوطنية.
وحسب أصغر الجبالين أخذ يرتجل الأغاني حول لوزنن وفيصل وذلك المحارب
المشهور عودة أبو تابه Auda Abu Tayi.

والشعر والغناء والأمثال كلها نظري فضيلة التكريم بين العرب. والعربي، بدءاً
بالحسين إلى أصغر أتباعه، مستعد لأن يعرض حياته للخطر من أجل ألا يقع بلحق
الضيف أي أذى، حتى ولو كان هذا الضيف أعدى أعدائه. قبل اندلاع نيران الثورة
العربية بشهور عديدة، كان الشريف حسين وأولاده يستعدون سرّاً للقتال بينما كانوا
يجعلون الأتراك يعتقدون بأنهم يتأهبون للتحرك ضد الحلفاء.

حدث أن كان الأمير فيصل في دمشق في تلك الأثناء كضيف على جمال باشا
الحاكم التركي لسوريا وفلسطين. أرسل والده كلمة إليه بأنه قد نجح في جمع عدد
كبير من رجال القبائل لنهجوم على الحامية التركية في المدينة، واعتذر فيصل بأنه
مضطّر للعودة إلى الجنوب. رجاء جمال باشا أن يؤجل الشغل أياماً قليلة قائلاً إنه وأنور
باشا يرغبان في مرافقته إلى المدينة. وعندما وصل الثلاثة إلى المدينة شاهدوا أكثر من
خمسة آلاف بدوي يركبون خيولهم وجمالهم ويطلقون رصاص بنادقهم في الهواء.
مرّ جمال وأنور لهذا العرض التحريبي وقالوا لفيصل إن رجاءه سيقدّمون مساعدة كبرى
للسلطان، وحليفه المسلمم الملا مع القيصر ولهنم باشا، في حربه ضد الكفار.

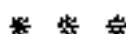
في تلك الليلة، أثناء التوليمة المعتادة، تسأل علي بن حسين، وهو من أفراد قبيلة
البحارث التي اشتهرت باللصوصية، برفقة عدد من الأشراف والسيوخ حتى وصل إلى
فيصل وهمس في أذنه:

«إننا نحبض بالقصر من جميع جوانبه وسنقتل هذين العارفين التركيين».

ونما رأى فيصل أن أتباعه جذّيون بشأن القتل أشار إليهم ليتنحروا جانباً وانتفت
إلى جمال وأنور قائلاً: «والآن أيها السادة، تبعاً لعاداتنا بعد الانتهاء من وليمة كهذه،
يتوجب عليكم قضاء هذه الليلة في منزلي».

ترك فيصل صيفيه ينامان في غرفته، وباء تلك الليلة خارج الباب، لم يتركهما لحظة واحدة ثم أخذهما في صباح اليوم التالي إلى محطة القطار ورافقهما في رحلة الثلاثة أيام إلى دمشق. تطلّب هذا الأمر شجاعة كبيرة، إذ لو شك جمال وأنور وجود أي خلل في المدينة وأن العرب لا يتوون الاشتراك مع الأتراك والألمان في الحرب، فربما يقتلان ويصل أو يأخذانه كرهينة ليهضبا التصرف الحسن من قبل والده.

إن الولائم العربية، كذلك التي أقامها فيصل لأنور وجمال، هي من الأمور التي لا تنسى. وبعد الحرب أعد الملك حسين وليمة في دار البلدية بجدة إكراماً للفرنس المصري جورج لطف الله. مدت صفوف من الموائد الصغيرة وضُفت بعضها إلى جانب بعض ثم فرشت عليها أصناف الطعام حتى كادت نوء بحملها. جلس إلى الموائد نحو من ثمانين مدعواً وكان التادلون يتمشون قرب الموائد فإذا لم يكن طبقاً ممتكاً تراهم يقطعون لك شريحة من لحم الغنم أو الماعز ثم ينتقلون إلى الضيف الآخر وهكذا. وبعد أن ملأ الثمانون بطونهم، تقدّمت دفعة جديدة من ثمانين آخرين ليأكلوا بالطريقة ذاتها.



لورنس على متن هجبة الترمع



الأمير فيصل
وهو الآن ملك العراق

الفصل الخامس

سقوط جدة ومكة

عندما اندلعت الحرب العالمية وأحدثت اضطراباً هائلاً في تركيا، مع معاداة بريطانيا العظمى وفرنسا وروسيا وإيطاليا لها، منحت الفرصة العواتية للجزيرة العربية. لم يتمكن الشريف حسين من الحصول على المال والذخيرة الكافيين، لذلك اضطر إلى قضاء عدة شهور دون أن يعلن عن نيته. ثم وصلت أنباء تعلن سقوط كوت العمارة التي كانت تحت يد الجنرال تاويزند. كانت تلك نكسة خطيرة للعنفاء ونصراً مهماً للأتراك. لم يعد حسين قادراً على كبح جماح أتباعه، فأرسل كتاباً إلى الحكومة البريطانية يقول فيه إنه لم يعد قادراً على التسكوت والترضي بأن يبقى قومه خاضعين للأتراك. طلب المساعدة ولكن قبل أن يتسلم الرد، انقضى عرب الحجاز على الأتراك، ولم يعد في وسعهم كتمان انكراهية والغضب ضد خمسة قرون من الاضطهاد والتذلل. فقد جاء أبناء إسماعيل التحيلون ذاكنو البشارة لينتقموا ويحرزوا أنفسهم أخيراً.

كان حسين وأولاده الأربعة قد أحكموا تدير تفاصيل خططهم للسورة، لكنهم كتموا هذه التدابير إلى أسابيع قليلة قبل إشعال الفتيل. ولم يجرؤوا على الثقة بأقرب أصدقائهم، لأن المؤامرات كانت تُكشف في الأراضي التركية قبل أن تنضج، ولم يكن في مقدور الإنسان أن يعرف بمسئ. لم يكن هناك جواسيس فحسب، بل كان هناك أيضاً عدد لا يحصى من الجواسيس على هؤلاء الجواسيس.

في أوائل عام 1916، بينما كان الضابط لورنس يعمل في الفيلق السري في القاهرة، أرسل الشريف حسين أمراً إلى كل القبائل في جزيرة العرب يطلب منهم أن يكونوا

على أهمية الاستعداد للقتال ، وفي التاسع من شهر يونيو أعطى إشارة البدء ، في اللحظة نفسها قام رسمياً بشجب أنور وطلعت وجمال وجميعهم الثورية ، جمعية الاتحاد والترقي وهي الوقت نفسه شنت هجمات ثلاث على مكة وجدة ، ميناء المدينة المكرمة ، والمدينة ، وهي من أهم المدن في العالم وأقلها شهرة ، قبل أن تتابع الحديث عن الثورة العربية التي برز فيها لورنس ، دعونا نتوقف لنترى تلك المراكز الحياتية في الحجاز التي منها جاء العديد من أصحاب لورنس .



عندما يصل الإنسان إلى جدة لا يسعه إلا أن يفرك عينيه ويقرص جلده ليرى إن كان مستيقظاً أم لا . إن القرآن الكريم يحرم تناول المشروبات المسكرة ، ولكن إما أن يكون المهندسون الذين صمموا المدينة من غير المسلمين أو أن معظم الأبنية قد شُيِّد قبل أن يُدخل النبي محمد تحريم الخمر إلى جزيرة العرب . فشوارع جدة أشبه بمناهة مربكة من الوديان المتعرجة بين المنازل المرتفعة المائلة التي تبدو وكأن موجات متلاحقة من الزلازل قد هزّت أركانها ، ومعظم المنازل في جدة مؤلفة من خمس أو ست طبقات ولا يسكنها إلا المحتاج الذين يعزّون بجدة في طريقهم إلى مكة في شهر رمضان ، وهو الموسم الذي يتزايد فيه عدد سكان المدينة من عشرين ألفاً إلى أكثر من مئة ألف . لا يمكنني إيجاد طريقة أصف بها هذه الميناء العربي الغريب أفضل من أن أقول إنها تشبه أية مدينة شرقية عادية بالنسبة إلى رجل يعاني من نوبات هذيان . ولو نُقل برج بيزا المائل إلى جدة لكان وضعه ملائماً تماماً .

يبدو أن الشناظر غير معروف في هذا الجزء من الشرق الأدنى ، ويقال إن النجار العربي لا يستطيع أن يرسم زاوية قائمة ، وإن التادل العربي لا يستطيع أن يمد ملاءة طاولة مربعة الشكل . إن الحرم المقدس الموجود في مكة ، والمعروف باسم الكعبة أي «المكعب» ، ليس فيه جوانب أو زوايا متساوية . ونادراً ما ترى الشوارع العربية متوازية ، حتى الشوارع المدعو بالشوارع المستقيم في دمشق ، فهو ليس مستقيماً أبداً ، وإن جدة ، بمبنيها المترنحة وشرقاتها الهشة الواهنة وماذنها المائلة ونجارها الجالسين متصائبي

الأرجل فوق طاولاتهم أمام دكاكين نعيمها الفوضى، وأسواقها المقتبة الرائعة المغطاة
سقوف مرفعة مجموعة إلى بعضها كأشعة سفينة صينية، هي أقرب ما تكون إلى
الجنة المستقبلية لأية مدينة في العالم.

إن جزيرة العرب تهي حقا بلاد مقنونة رأساً على عقب. وبينما نكيل معظم سوائلنا
ويزن معظم أجسامنا القلبة، فهم يزنون هناك سوائلهم ويكيلون أجسامهم القلبة.
بينما نستعمل الشكاكين والشوك والملاعق، يستخدمون هم أيديهم. بينما سنعمل
الطاولات والكراسي، يقومون بالاستلقاء على الأرض. نحن ننطلي الخيول من جهة
الشمال وهم يمشطون جمالهم وخيولهم من جهة اليمين. نحن نقرأ من الشمال إلى
اليمين وهم يقرؤون من اليمين إلى الشمال. يغطي ساكن الصحراء رأسه صيفاً وشتاءً
عنى حد سواء، بينما يترك أقدامه عادة عارية. وبينما نضع قناعاتنا عندما ندخل دار
صديق، يقومون هم بخلع أحذيتهم.

يقطن جدة، فضلاً عن سكانها العرب، أحفاد حجاج آلاف من رحلات الحج، الذين
كثروا يملكون المال الكافي ببلوغ مكة لكنهم لا يملكون ما يمكنهم من مغادرة الجزيرة
بعد أداء مسألتهم. يبقى العديد من هؤلاء في غاية الفقر ويجدون بالكاد ما يسد رمقهم
بقبهم بأي عمل يستطيعونه في الموسم القصير للحج كل عام. منهم النجاويون
والفلبينيون والملاويون، ومنهم الهنود والأكراد والآثراك والمصريون والسودانيون
والأحباش والسنگاليون وبدو الصحراء وسكان زنجبار واليمن والصومال، وأجناس
أخرى لا حصر لها.

اصطحبت في عصر أحد الأيام لميجور غوندي، ضابط في البعثة البريطانية التي
كان لها مركز هناك، فركنا جواديتنا وخرجنا من بوابة مكة لنصل إلى الحي الذي يسكنه
الأحباش. كانت مساكن هؤلاء القوم البدائيين أكوخاً دائرية ذات أسطح مخروطية
من القش، تحيط بها أسوار مرتفعة مصنوعة من علب الطعام والبزير المكدسة. أوقفنا
خيولنا أمام كوخ فيه امرأة حبشية منهمكة في دبح جلد حيوان. وما إن وقع نظرها علينا
حتى بدأت تصيح:

«لماذا جئتم لتهددوا منزلي؟ لماذا ستأخذون ولدي؟ ماذا فعلت حتى تريدون إطلاق الرصاص علي؟».

مع أن الجنرال غولندي بذل كل جهده ليهدئ من روعها، فقد ظلت توتول حتى ركبنا متعذرين فلم نعد نسمع صوتها.

على بعد أميال قليلة من جانبي حدة كليهما هناك مراعى صغيرة يتعاشى الأجانب زيارتها. إنهم لا يرحبون بالناحيين لأن تلك القرى كانت مراكز لتجارة العبيد. يهرون الزنوج ويأتون بهم من السواحل الإفريقية ثم يبيعونهم هنا للأغنياء من العرب. كانت الحكومة التركية تفضي الطرف عن هذه التجارة الفاسدة، لكن الشريف حسينا وأولاده حاولوا القضاء عليها. وكان من جراء منعهم للتخاسة أن ارتفع ثمن العبد الشاب القوي من خمسين إلى ثلاثمائة جنيه، وبلغ في بعض الأحيان خمسمائة جنيه. على الرغم من أن التجارة ستستمر سرًا لبعض الوقت، فإن الملك الجديد، الأمير علي، يعارضها بشدة ويعمل جاهداً على إلغائها.

أخذني المبحر غولندي وراء البوابة الشمالية لجدار حدة إلى مكان يعتقد المسلمون أنه ضريح أبي البشرية جمعاء. كما تشير بعض الروايات القديمة إلى مكان بالقرب من حدة حيث رست سفينة نوح بعد الطوفان العظيم. ونقول إحدى الروايات إن نوحاً وأولاده الثلاثة سام وحام ويافت كانوا يسبحون على الشاطئ بعد فترة قصيرة من انحسار المياه، فوصلوا إلى منخفض في الرمال يبدو وكأنه شكل إنسان بطول ثلاثمائة قدم. سأل حام والده عن ذلك، فأجابته النبي الموقر: «يا بني، إن هذا مقام أم البشر حواء».

بالطبع هناك العديد من المسلمين المثقفين الذين يضحكون لدى سماعهم هذه الأسطورة، مع ذلك فقد بُني جدار بطول ثلاثمائة قدم حول المنخفض وفي داخله مسجد ناتى إليه آلاف من النساء للعبادة كل عام. كانوا يعتقدون أن طول السيدة حواء كان ثلاثمائة قدم. فكيف تراجع أجدادنا ونحن من بعدهم! عني كل حال فإن المدينة، «جدة»، قد أخذت اسمها من هذا الضريح.

منذ أيام محمّد، لا يُسمح لليهود أو المسيحيين أو أتباع زردشت وغيرهم ممن يتسبون إلى ديانات أخرى بالدخول إلى أي جزء من الحجاز ما عدا الساحل. ولا يسمح إلا للمسلمين بعبور البوابة الشرقية لجدار حدة، التي تؤدي إلى الطريق المتجه إلى مكّة. وكان الثوّاط البريطانيون المتمركزون في حدة منذ اندلاع الثورة حتى انتهاء الحرب، يراعون هذا القانون غير المكتوب مراعاة دقيقة. وفي أثناء الحملة لم يقدم أي أجنبي ممن يمثلون السلّون المتحالفة على زيارة عاصمة ملك الحجاز. بل ذهب الملك حسين إلى أبعد من هذا فطلب من السلطات البريطانية أن تعطى التعليمات الدقيقة للطيارين ألا يبدنسوا هواء مكّة أو المدينة بالطيران فوقها مهما كانت الظروف. لغاية اليوم يوجه ملايين المسلمين وجوههم شطر مكّة خمس مرات في اليوم معلّنين أن «لا إله إلا الله، وأن محمّداً رسول الله».

إن مكّة والمدينة هما من أكثر مدن العالم عموضاً. وإن من يقول أو يلمح بأن المسيح هو ابن الله، يقطع إرباً إرباً.

منذ أيام محمّد لم يدخل مكّة ولمدينة غير المسلمين. وفي الواقع فإن المسلمين سيقتضون على كل دخيل يظنون أنه من الكفار. لذلك كانت المؤتمرات التي تعقد بين الملك حسين وممثلي الحكومتين البريطانية والفرنسية تقام في مدينة حدة.

لدينا تقرير عن حوالي اثني عشر مسيحياً زاروا مكّة في الألف سنة الماضية، ولا يزال بعضهم حياً ليروي لنا القصة. من أشهر هؤلاء بلا ريب السير رينشارد برتون. أمّا عدة من زاروا المدينة فهو أقل من ذلك. في نهاية القرن الثامن عشر حكمت الحجاز ومكّة طائفة من المتدينين المتشدّدين جاؤوا من وسط جزيرة العرب ويدعون بالوهابيين. وكان الجيش المصري بقيادة محمّد علي قد أخرجهم من مصر وبين ليلة وضحاها أصبح أحدهم حاكماً للمدينة وحامياً لقمر النبي.

إن كل المسلمين عندما يصلون يؤثون وجوههم شطر مكّة لأنها مسقط رأس النبي، بل إن العديد منهم يبنون منازلهم بجهة مكّة، وعندما يدفنون توضع وجوههم تجاه مكّة.

أمر النبي محمداً أتباعه بالحج إلى مكة، وقد أبدى هذا الأمر أبناء قبائل جزيرة العرب، الذين كانوا يفعلون ذلك لقرون من الزمان. ليست مكة على شيء من الأهمية الاقتصادية، لكن الحجاج الذين يقصدونها في شهر ذي الحجة هم مصدر دخل كبير لسكانها الذين يبلغ عددهم مئة وخمسين ألف نسمة.

يزور مكة في كل عام عشرات ألوف الحجاج على الرغم من أن القادمين من البلاد النائية يمضون سنتين لإنهاء الرحلة.

يأتي البعض عبر أفريقيا الوسطى من وادي السنغال والكونغو والبعض يمشون من قلب آسيا، ولقد كنت في سنغافورة عندما مرت سفن الحجاج من مضيق ملقة وهي محتشدة بألاف من الحجاج على سطحها. وبعد أداء النطقوس الدينية في مكة يعود الحجاج إلى أوطانهم فيصيفون لحاهم ويُعرفون بعد ذلك بالحاج. بينما يعطون تذكرة في مكة تضم لهم دخول الجنة⁽¹⁾.

يُطلب ممن يقصدون جزيرة العرب المقدسة بحراً خلع ثيابهم العادية قبل مغادرتهم النسيئة ولف أجسامهم بلباس الإحرام، وهو رداء يتألف من قطعتين من القماش، تلف الأولى حول الخصر وتلقى الثانية على الكتاف. وفي الغالب تستعمل منشفتان عاديتان تركبتان لهذا الغرض. أما من يقومون بالحج برأفهم يبدؤون بدخول الأرض المقدسة على بعد خمسة وثلاثين ميلاً من مكة، حيث يخلعون أغطية الرأس والأحذية ويكملون الرحلة حاسري الرأس حفاة. يقومون بالاستحمام والحلاقة وقص أظافرهم ولا يلبسون شيئاً سوى ملابس الإحرام. ولا يُسمح لهم بالاستحمام أو الحلاقة أو قص الأظافر مرة ثانية إلى أن ينتهوا من أداء المناسك في مكة وزيارة جبل عرفات بالقرب من مكة ورمي الجمرات.

ليس هناك أجمل من منظر هذا السبل من البشر على ظهور الجمال أو مشاة على الأقدام غداة الزؤوس من حنة إلى مكة لا يسترون أجسامهم بغير المناسف التركية.

(1) هذه حبة غير صحيحة من بيات أفكار الكاتب.

وبالنسبة فإن النساء اللواتي يذهبن إلى الحج يرتدين شيئاً آخر. يتألف رداءهن من قطعة طويلة من القماش الكتاني الذي يغطي بدنها كله ويخفي رأسها. ويضعن على وجوههن قناعاً من القش له فتحات ضيقة يستطعن الرؤية من خلالها. تتركب العديد من النساء والمسنون من الرجال الهودج، وهي بيوت خشبية عربية تُحمل على ظهور الجمال.

نعم! المنطقة المحيطة بمكة مقدسة، ولا يجوز للحجاج التعرض للحيوانات البرية أو قطع الأعشاب الضحراوية. تقع مكة في منخفض تحيط به التلال ويتحد عنده شعبان. وهناك ترى ثلاثة حصون تكشف عن أنيابها وهي تشرف على مكة من المرتفعات، وكانت الفرق التركية تسكنها قبل أن يطردها أتباع الملك حسين.

في وسط مكة يقع المسجد الكبير الذي بُني للعبادة قبل موند النبي محمد بقرون. يُعرف باسم مسجد الكعبة أو المسجد الحرام، وفي باحته بناء مكعب الشكل هو الكعبة الشهيرة. وهي مغطاة بستار رائع من الحرير الأسود مع حواف عريضة باللون الذهبي فيها آيات من القرآن. والتقف مدعماً بدعامات خشبية، وحول الحافة لمة قناة من الذهب تصرف مياه الأمطار.

وفي داخل أحد الجدران يوجد أكثر الأشياء قداسة لما يزيد عن مئتي مليون شخص. إنه الحجر الأسود نيزكي الأصل الذي يعتقد المسلمون أن الملك جبريل قد رماه من السماء إلى أينما إبراهيم. يقولون إنه كان آنذاك أكثر بياضاً من الحليب ثم تحول إلى اللون الأسود بسبب آثام الناس الذين قاموا بتقبيله. يقول آخرون إنه استمد لونه من دموع النبي آدم. وكان قد تقفّت إلى سبع قطع فجمعت أجزاءه بواسطة الملائكة وشرط فضي مثبت بمسامير فضية.

يعتقد المسلمون أن البناء مكعب الشكل يقع تحت عرش الله تماماً. يقولون إنه قد أنزل من السماء بناءً على طلب آدم، وأنه نسخة مطابقة للميت المعمور الذي أبصره في الجنة قبل إخراجهم منها، والذي تطوف حوله الملائكة. لم يدخل الكعبة سوى القليل من الأشخاص، وهؤلاء يقولون أنظارهم إلى الأسفل من باب التوقير والخضوع لله.

وإذا دخل حاج شامي الكعبة، لا يمسي حافي القدمين بقية حياته لأنه يعتقد أن جلده قد من أرضاً طاهرة ولا ينبغي أن يمس أرضاً مدنسة بعد ذلك أبداً.

يُسدل ستار الكعبة في كل عام بآخر جديد. في السابق كان هناك ستار إن يُقدّم أحدهما سلطان تركية من دمشق بينما يُصنع الثاني في القاهرة ويقدمه سلطان مصر إلى المسجد.

تقول تعاليم الإسلام، منذ بداية الخلق حتى يوم القيامة، إنه يجب على كل حاج أن يظوف حول الكعبة سبع مرات، لكن، وفي كل عشرين سنة، يأتي طوفان عظيم فيملا شوارع مكة والمسجد، وعند حدوث ذلك يتم استئجار بعض الرجال ليسبحوا حول الكعبة ليل نهار حتى لا تتوقف هذه الشعيرة أبداً.

يقبل الحجاج الحجر الأسود ويطوفون حول الكعبة ويشربون من نبع مقدس يدعى زمزم ثم يقبلون الحجر ثانية. قال السير ريتشارد بروتون إنه لما حاول تقبيل الحجر الأسود وجد حوله حشداً طاحناً من المتدينين وكان كل واحد منهم يحاول حشر نفسه بين الجموع لتلمس شفتاه أكثر الأشياء قداسة في العالم. قال إن هؤلاء المتحمسين كانوا يتنون أذعيتهم بأصوات عالية، وبين كل جملة وأخرى يتوقفون ليتمتموا شنائم في حق الرجل الذي يدفعهم بمرفقه بعيداً عن الحجر الأسود.

يُعدّ نبع زمزم في باحة المسجد من أهمّ النابيع في مكة. مياهه مائحة قليلاً لكن يقال بأنه يصبح لذيذ الطعم عندما يعتاد المرء عليه. التبع عميق ويبلغ قطره ثمانية أقدام. تقون إحدى تقاليد المسلمين إن الطريق المباشر إلى الجنة يمرّ بهذا النبع. وإن الحجاج القادمين من الهند، والذين يطبقون الخرافات بحذافيرها، يرمون بأنفسهم في البئر مما يجعل مائه غير قابل للشرب لعدة أيام. في الحقيقة حاول العديد من الأشخاص عبور هذا الطريق القصير إلى الجنة فغدا من الضروري مدّ شبكة فوق القاع لمنع وقوع الناس فيه.

هناك اعتقاد قديم لدى المسلمين بأن اقتراب يوم القيامة يحذره شروق الشمس من

جهة الغرب، وظهور دابة على ظهر الأرض في باحة المسجد الحرام. يبلغ ارتفاع هذه الدابة حوالي ثلاثين متراً، أي ضعف ارتفاع النسيئة التي أمر الله النبي نوح بصنعها. وهي خليط من حيوانات عدة، فلها رأس ثور وعينا حنزير وأذنا فيل. وقرن ظبي ورقبة رافعة وصدر أسد وجلد نمر وظهور هرة وذيل كبش وأقدام جمال وصوت حمير. تأتي معها بعض موسى وخاتم سليمان. إنها سريعة جداً بحيث لن يفلت منها أحد. وتستمر معها موسى المؤمنين على وجناتهم فتعلمهم بعلامة تبين أنهم من المخلصين، بينما يقوم بدفع الكفار بخاتم سليمان.

كما يُعتقد بأن هذه الدابة الغريبة تتكلم اللغة العربية. وبعد ظهورها سيطلب من الأُمَم الذين سبق لهم أن سكنوا الأرض بأن يعبروا وادباً فوق خط رفيع حيث يسقط الأثم في نار جهنم بينما يعبر نقي القلب بأمان إلى الجنة. هناك روايات أخرى لهذا الاعتقاد يؤمن بها أتباع ديانات أخرى قبل زمان محمد بفترة طويلة.

ومن العلامات الأخرى التي يعتقد البعض أنها تدل على اقتراب يوم القيامة نشوب حرب مع الأتراك، ووصول اللثام إلى السلطة، وظهور المسيح الدجال من خراسان وهو يركب حميراً ويتبعه سبعون ألف يهودي، وعودة المسيح الذي يعتقد بعض المسلمين أنه سيعتق دين الإسلام ويتخذ زوجة ويذبح الدجال ويحكم الأرض بسلام وأمان، ومنح القدرة على الكلام للحيوانات والطيور والسمك والزواحف والجمادات.

حتى فترة قريبة كان في مكة أكثر الناس شراً كما يقول المثل العربي: «أظهر أرض...»⁽¹⁾. وعلى بعد مسافة من الكعبة كان سوق النخاسة الذي قام حسين بإغلافه منذ فترة ليست بالبعيدة. وهناك في مكة نساء يتم الزواج منهن وتطيقهن شهرين أو كل شهرين. يمكن للحجاج الذي يأتي إلى مكة قبل قيام نظام حسين الظهيري، الزواج رسمياً خلال فترة إقامته في مكة لأداء شعائره الدينية. بعد ذلك يمكنه حل زواجه قانونياً عندما يحين موعد مغادرته للمدينة.

(1) مثل فيه تهجم أفضل عدم ذكره، والتعميم إجمالاً خطأ فادح في أي أمر كان.

لا يتحلى سكان مكة بتلك الفضائل الرفيعة البدائية وبساطة الذوق التي يشتهر بها البدو. ومنذ عصور بعيدة يتميز هؤلاء عن باقي العرب بثلاثة ندوب على وجناتهم، وهي علامات مكر كما يقول من يزورون مكة. والكلام الذي يتفوه به أهل مكة هو من أقبح الكلام الذي يمكن وجوده في الشرق ولديهم من المعازسات والأمراض ما لا يمكن وصفه.



ولنعد الآن إلى قصة الاستيلاء على هاتين المدينتين المقدستين.

أشرف حسين على الهجوم على مكة، يسما تولى فيصل وعلي قيادة القوات الموجهة إلى المدينة. نجح الشريف في مكة. كانت الحصون الواقعة على التلال الثلاثة المشرفة على المدينة المقدسة محروسة من قبل أخلص رجال السلطان من المرتزقة الشراكسة وبعض الفرق التركية. في يوم الهجوم اجتاح العرب البوابات واستولوا على التوق الزنيمسي والجزء السكني والأبنية الإدارية والمسجد الحرام الذي يضم الكعبة. احتدمت المعارك لمدة أسبوعين حول الحصنين الأصعبين، ثم تم الاستيلاء عليهما في النهاية. أثناء القتال بقي حسين الممس في قصره بوجه العمليات على الرغم من القذائف التركية التي اخترقت مسكنه.

كان بمقدور الأنراك الضعود لعدة أشهر لولا حماقتهم. يبدو أن انعثمانيين مسلمون نظرياً فقط، يؤدون شعائرهم أحياناً وقليلاً ما يلتزمون بأحكام القرآن. لم يبالوا بالمشاعر الدينية لخصومهم وإخوانهم في الدين، بل أخذوا يقصفون المسجد الحرام، أهم الأماكن المقدسة للمسلمين. وقد أصابت إحدى القذائف الحجر الأسود وأحرقت ثقباً في ستار الكعبة وقتلت تسعة من المصلين العرب. غضب أتباع حسين لهذا الفعل المشين فتسلقوا جدران الحصن الكبير واستولوا عليه بعد أن يشسوا من القتال القريب بالخيوف والخناجر.

تم الاستيلاء على مكة وميناء جدة القريب منها في الشهر الأول من بدء القتال.

أخذت جدة في غضون خمسة أيام بفضل التعاون مع خمسة من التجار البريطانيين بقيادة الكابتن بويل، وهورجل إيرلندي جسور أحمر الشعر، كان نائباً للمنتخب روسلين ويسبي Sir Rosslyn Wemyss، ثم أمير الالاسقول الشرق الأدنى.

أمر مايزيد عن ألف رجل تركي والعاني في جدة. وقد أدنى قصف هذا العناء، الذي يعد مدخلاً إلى مكة إلى ما يكاد يكون ثورة في الهند التي تحوي نحواً من ثمانين مليوناً من المسلمين المتشددين في أمور دينهم وغيرتهم على الإسلام. وألقوا على البريطانيين نهمة قصف أحد الأماكن المقدسة لديهم. في الواقع لا تعد جدة مدينة مقدسة للعرب أنفسهم، وهي من مدن الحجاز التي تقبل دخول غير المسلمين إليها.

أما في المدينة، فلم يلاق البدو بقيادة فيصل وعلي نجاحاً كبيراً. كان رجال القبائل في الحجاز الشمالي، الذين احتشدوا حول راية الأشراف، قد تجاوزوا من الصحراء في الصباح الباكر من نفس اليوم من شهر يونيو الذي كان فيه الهجوم على مكة. قاموا باحتلال بساتين التخليل الممتدة لأمال حول الضواحي، وأخرجوا الأنراك من مراكزهم في حدائق قصور المدينة المشهورة ببايعها العتلاتنة وحقول المشمش والنموز والزمان. تراجعت الفرق العسكرية إلى داخل أسوار المدينة، إذ كانوا يعرفون أن الحماية الإضافية ستؤمن لهم بوجود قبر النبي محمّد، القبر الذي أهّل المدينة لأن تكون ثاني أقدس مدينة في الإسلام. ومع أنه كان في مقدور فيصل وعلي أن يجلبا المدافع من جدة ويستوليا على المدينة بقوة بعد قصفها بالمدافع، فقد رفض حسين السماح بذلك خشية تدبير قبر النبي فتكون هذه الكارثة سبباً في ثورة مثنيين وخمسين مليون مسلم في العالم.

والمدينة المنورة هي المكان الذي هاجر إليه النبي محمّد خارجاً من مكة في شهر يونيو من عام 622، هرباً من سيوف من يتربصون به ممن استأجرهم أعداؤه في الدين. يبدأ التاريخ لدى المسلمين من يوم الهجرة وليس من ميلاد المسيح. دُفن النبي محمّد في المدينة وتوفد إلى جانبته ابنته الأثيرة لثدي فاطمة، وعلى الجانب الآخر ثاني الخلفاء الراشدين عمر. لكن هناك فراغاً بين قبري النبي وعمر يقول المسلمون إن المسيح

مسيّد فن إلى جانب النبي بعد ظهوره انثاني ومونه. لذلك نُعدّ المدينة، بالإضافة إلى كونها مركزاً تجارياً مهماً، مكاناً عظيماً يؤمّه الحجاج.

بعد ابتداء الحرب بفترة قصيرة قام الأتراك بإنشاء خط سكة حديدية يربط المدينة بدمشق، وذلك ليُسَهِّلوا حركة قوات قمع الانتفاضة في جزيرة العرب، وظاهرياً يُسهِّلوا للحجاج الوصول إلى المدينة من جهة الشمال. كان أول عمل قامت به حشود البدو المهاجمين عند اقترابهم من المدينة هو اقتلاع عدة أميال من الشكك بأيديهم حتى يفصلوا الحامية ويجعلونها في عرلة. وبعد أن أحاط العرب بالمدينة جنسوا ينتظرون استسلامها، لكن الأتراك اتسّوا من البوابات قبل بزوغ الفجر وباغتوا عدداً من العرب الذين كانوا يعسكرون في ضاحية العوالي *Awali* وأشعلوا النيران في جميع الدور. كما أطلقوا الرصاص على عدد كبير من النساء والأطفال وأحرقوا الكثير أحياء في منازلهم.

أغضب هذا العمل البدو وآلاف سكان المدن العرب الذين خرجوا من المدينة لينضموا إلى فيصل وعلي، فهاجموا على الفور الحصن التركي الكبير الواقع خارج أسوار المدينة. لكن الأتراك فتحوا نيران مدفعيتهم الثقيلة وحصدوا أعداداً كبيرة من الحشود العربية المتهتجة. ثم تكن هذه الحشود قد واجهت المدفعية من قبل فانقلبت إلى حانة من الدعر وفرت الجماهير للاحتباء بنى قريب. لدى رؤية ذلك، أرسل القائد التركي قوة من خيرة رجاله ليمزقوهم شر ممزق.

رأى الشريف فيصل المحنة التي يلاقيها رجاله، فاندفع على حصانه غير مبالٍ بالتظايا والمدافع المنطلقة من الحصن التي كانت تسف الأرض المكشوفة. كان البدو الذين أتى بهم نيساعده في نجدة القوات المهزومة المدعورة التي قامت بالهجوم الأول على الحصن، فدتراجعت أيضاً وتردّدت في مواجهة نيران العدو التي شكلت حاجزاً مميتاً بينهم وبين رفاقهم. لكن فيصلاً ضحك وركب حصانه وحده غير آبه للمخاطر. ولكي يمنح الثقة لأتباعه جعل حصانه يسير في المنطقة المكشوفة.

لم يرغب أفراد فرقة الإنقاذ في خذلان قائدهم الجسور، فما كان منهم إلا أن

صاحوا صيحة صحراوية قوية وانفضوا دون هوادة وكلمة باسم الله نطلق من شفتي كل محارب. انضمت الفونتان إلى بعضهما وقامتا بمحاولة ثانية لاقتحام الحصن. ددت دخيرتهم تنفذ، وهبط ظلام الليل فجأة كستارة أطفأت ضوء الشمس في الوقت المناسب لينفذهم من الفناء.

في الصباح دعا فيصل وعليّ كل شيوخ القبائل إلى الاجتماع في خيمتهما، وانفقوا أن الاستمرار في الهجوم أمر عقيم في الوقت الحاضر، لذلك تراجعوا إلى التلال التي تبعد خمسين ميلاً إلى الجنوب وخيموا على جانبي طريق الحججاج لمنعوا أية قوة تركية من محاولة إعادة الاستيلاء على مكة. على الفور قام الأتراك بإصلاح الشبكة الحديدية التي تربطهم بدمشق، وسافروا ثلاثين ألفاً من المدنيين العرب من سكان المدينة إلى الصحراء وحلبوا تعزيزات من سوريا وحصنوا المدينة لصد أي هجوم من المستقبل. وبعد أن انتهت الحرب كان اللاجئون من المدينة قد انتشروا في أنحاء الإمبراطورية التركية، في القدس، وفونية ودمشق وحلب والقسطنطينية.

مع ذلك، بقيت مكة في أيدي العرب، وباستثناء الاستيلاء على القدس ثم دمشق وبغروت وحلب على يد جيش النبي والعرب، فإن سقوط مكة بعد دون ريب أعظم نكبة حدثت في تاريخ الإمبراطورية العثمانية كله. وأن سيطرة تركية على مكة هو الذي كان مكنها من امتلاك الزعامة على الشعوب الإسلامية في العالم.

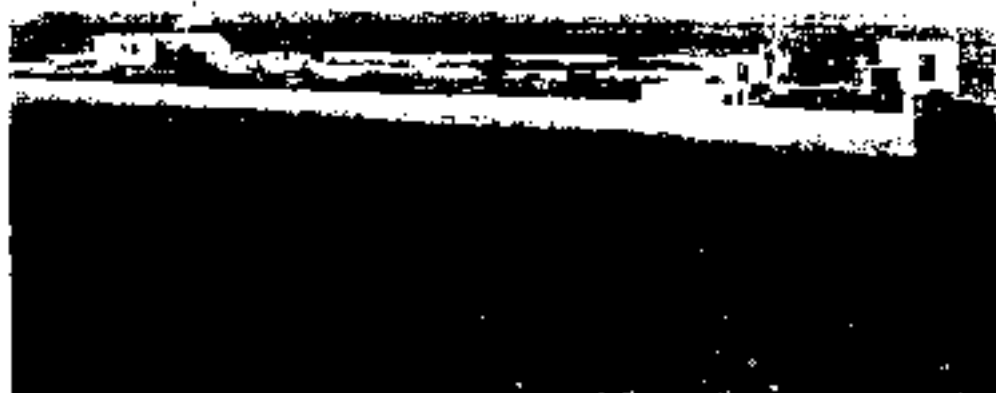
ونأتي هنا فترة من الشكوك إذ لم يستطع العرب الاستمرار في ثورتهم بسبب نفاد دخيرتهم. طلب الشريف حسين العون من الخلفاء مجدداً فاستجاب البريطانيون لطلبه.

وفي هذه الساعة الحرجة ظهر الشاب لورنس على مسرح الأحداث العربي.





الشریف حسین الأول، قائد المؤمنين
ومؤسس سلالة ملكية جديدة



المنوی الأخير لأم البشر حواء

الفصل السادس

جمع قبائل الصحراء

كان لورنس مفتاحاً من روتين القوانين العسكرية وبدأت بعض الخلافات تنشأ بينه وبين الرؤساء في مركز القيادة العامة. ووجد في الثورة العربية وسيلة للفرار من الأسر الذي يعانيه في القاهرة. وذهب روبرت ستورز، الذي كان يشغل في ذلك الحين وظيفة سكرتير أول للمفاوض السامي الإنكليزي في مصر، في رحلة إلى جدة عبر البحر الأحمر بحمل بعض الرسائل إلى الأمير حسين، المحرّض على الثورة في مكة. على الرغم من أنه لم يلعب دوراً في بدء ثورة الحجاز، فقد أدرك لورنس كيف يمكن للعرب المساعدة في القضاء على سياسة القبض الاستعمارية، لهذا طلب بل إحارة اسبوعين، ومنذ ذلك الحين ذهب ولم يعد!

شعر بعض رؤساء لورنس، المقيمين في فندق مافوي في القاهرة، بالشرور للتخلص من هذا الملازم الحليق المشاكس المغرور، وتمت نلبية طلبه بسرعة. وعلى عكس المحاربين المهلكين من الحرب عند نيل إجازاتهم، لم يحضر لورنس في نهر النيل للوصول إلى الإسكندرية أو يذهب إلى الأقصر ليعضي عطشته في القصر الشتوي. بل بدلاً من ذلك اصطحب روبرت ستورز في رحلته عبر البحر الأحمر.

فور وصوله إلى جدة طلب لورنس من الشريف حسين السماح له بالقيام برحلة داخلية على ظهر الجمل لزيارة معسكر الأمير فيصل، الابن الثالث للشريف حسين، الذي كان يحاول إبقاء نيران الثورة مشتعلة. كانت القضية العربية في ساعاتها العصية، علم يكن لدى الجيش رصاص كافٍ لصيد الطّباء الشي يتقاتلون بها وعادت الفرق إلى

الطعام الضحراوي النعيس الذي اقتات به قبلهم يوحن المعمدان، وهو الجراد والعسل البري.

وبعد تبادل عبارات المجاملة الشرقية المعتادة أثناء شرب القهوة العربية الفاخرة، كان أول سؤال وجهه لورنس إلى فيصل هو: «منى يصل جيشك إلى دمشق؟».

ارتبك فيصل عندما فاجأه لورنس بهذا السؤال وأخذ يعبر باب الخيمة إلى بقايا جيش والده ثم قال وهو يمسك لحيته: «إن شاء الله، لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم. عسى أن ينظر الله إلى قضيتنا بعين العطف والرحمة. ولكني أعشى أن تكون أبواب دمشق في الوقت الحاضر أبعد منالاً من أبواب الجنة. يأذن الله ستكون خطوتنا القادمة هي الهجوم على الحصن التركي في المدينة، ولنا أمل كبير في تخطيهم قبر النبي من أيدي أعدائنا».

بعد قضاء أيام قليلة مع الأمير فيصل اقنع لورنس بإمكانية إعادة تنظيم الجيش البدوي وتكوين قوة غير نظامية قد تساعد الجيش البريطاني في مصر وسيناء. انهم لورنس كثيراً بتحقيق هذا الأمر لدرجة أنه لما انتهت فترة إجازته بقي في جزيرة العرب ولم يرسل حتى كلمة اعتذار إلى القاهرة. ومنذ ذلك الحين أصبح لورنس قلب الثورة العربية النابض وروحها المحركة.

عند وصول الملازم لورنس إلى حدة كانت الحالة حرجية خطيرة، كان الأتراك قد جلبوا فيالق من سوريا لدعم الحامية التركية في المدينة، وأرسلوا البغال والحمال ليستخدموها في النقل. وكذلك السيارات المسلحة والطائرات والخيالة والمدافع لقمع الثورة وإخمادها. كانت هناك حملة عسكرية قد سارت بالفعل من المدينة إلى الجنوب لتسترجع مكة ولتشنق الزعماء المتمردين بأعالي مما شنق «هامان». كان على هذا الجيش التأديبي أن يقطع مشين وخمسين ميلاً في الصحراء، وكان بمقدورهم قطعها لو لم تحدث حوادث عرية نجبرهم على تغيير خططهم بسرعة. يذكر انمؤرخون العرب أن «العثمانيين، مغتصبي الخلافة كانوا يتقدمون بجراة. لكن الله لم يكن معهم؛ تعالى الله الذي يحمي كل من يؤمن به».

لم يكن لدى لورنس خطة محددة لكنه كان يفكر في استنباط طريقة لاستغراز الأتراك ولقت انتباه جزء من القوات العثمانية المعسكرة التي كانت تقاوم الإنكليز في الشمال عند سيناء. لقد فاجأ فيصل عندما أكد أنه أن جيوشه ستدخل دمشق لامحالة في أقل من سنتين. ابتسم فيصل ابتسامة شك قائلاً: «إن شاء الله»، وعاد إلى تمسيد بحيته والتحديث بالجيش المهلهل المسترخي في ظلال أشجار النخيل. لكن شيئاً ما في أسلوب لورنس الهادئ أوحى إليه بالثقة فقبل بالتعاون الذي يعرضه عليه.

بالنسبة إلى عالم آثار شاب تحول إلى جندي، كانت فكرة المشاركة في حرب صحراوية تسهويه. ورأى أن الفرصة سانحة هنا لهزيمة الألمان، بالإضافة إلى إمكانية تطبيق نظريات الخبراء الحربيين العظماء الذين طالما سحروه بكتبهم القيمة.

ما إن فرز لورنس مساعدة العرب حتى تحول من طالب يدرس الحرب من الناحيتين الغيبية والفلسفية، إلى طالب يخوض غمار حرب حقيقية بنفسه. فذكر أن الحملة التركية، للوصول إلى مكة، ستحاول إزاحة قوات فيصل خارج التلال بهدف الاستيلاء على راغب، وهو مياء صغير على البحر الأحمر يقع على بعد مئة ميل من جدة، لكنه ذو موقع إستراتيجي مهم. ووراء الحيد المرجاني، تحت حفل رائع من أشجار النخيل، كانت هناك آبار ممتازة.

كانت خطة لورنس الأولى أن يزود البدو غير النظاميين، المتمركزين بين المدينة وراغب، ببنادق حديثة الطراز، وكميات وفيرة من الذخيرة على أمل إيقاف زحف الأتراك في الممرات الضيقة إلى حين تنظيم جيش عربي من سكان المدن بسهل انتقاده للنظام. بعد ذلك فرز جعل البدو يسفرون خارج راغب حيث يتمكنون من التعاون مع الأسطول البريضي في محاربة العدو عندما يجتاز منطقة التلال.

أفسد الأتراك هذه الخطة بسرعة. فقد اندفعوا إلى التلال بأسرع مما هو متوقع ودون سابق إنذار، وكان الجيش البدوي غير النظامي لا وجود له. وأصبح الوضع أشد اضطراباً مما كان عليه عند قدوم لورنس. وبدأ للعرب أن انله يفقد الأعناء إلى مصيرهم.

في هذه المرحلة قرّر نورنس تجاهل رأي قوش الحربي الذي يقول بأن الغرض من الحرب الحديثة إنما هو تحديد موقع جيش العدو والهجوم عليه واستنصاله. ورأى أن خبر وسيلة للتعلّب على الأتراك أو أي جيش مدرب آخر في الصحراء، هي أن يقلد أساليب حنيعل⁽¹⁾ (هانيان) وغيره من القادة الحربيين الذين عاشوا قبل الحروب التايوليونية. لقد أدرك أن القتال وجهاً لوجه ضد الأتراك المنظمين سيؤدي إلى هزيمة العرب لا محالة. من ناحية أخرى، إذا تمسك أتباع حسين بطريقة العارات السريعة المتبعة في حرب العصابات، التي اعتادوا عليها، سيجري الأتراك للانتقام. ففتح فشل خطة نورنس الأولى عينه على أن الوضع الآن لا بد أن يحدّد بالشكل الثاني:

نقد استولى أتباع الشريف حسين على مكة، وهي أهم مدينة في الحجاز. كما استولوا على الطائف وجدة وأخرجوا الأتراك من بلادهم باستثناء المدينة والمواقع المحصنة المخصصة لحماية سكة الحديد الحجازية التي تربط المدينة بدمشق. بعبارة أخرى، امتحود العرب على كل أراضيهم ما عدا جزء صغير منها.

علامة على ذلك، فإنّ الحاميات التركية في المدينة وعلى طول سكة الحجاز الحديدية لا تستطيع التحرك من قاعدتها بسهولة دون موافقة العرب، لأنهم كانوا محاطين بذلك الشيء الغامض الذي لم يعتادوا عليه من قبل، ألا وهم الصحراء المجهولة التي تعذر فهمها. وإن فلباً من جيش المشاة التركي سيكون عاجزاً في الصحراء كما لو ألقى في وسط البحر.

من جهة أخرى، فإن العرب يعيشون في موطنهم بين الكثبان الرملية المتفتنة. وعندما تبدأ قبيلة بدوية بشن غارة يصبح كل رجل مع جملة وحدة منفصلة، ويصبح كل محارب صحراوي مستغلاً كالتفينة الحربية في البحر؛ ولا يوجد بينهم أي شكل من الاتصال. وعندما يركب البدوي جملة يتمكن من القبول عبر رمال الصحراء لأسابيع عدة دون الرجوع إلى القاعدة للتزود بالمؤن. إن قانون الخبير البدوي يختلف تماماً عن قانون الماريشال قوش. لا تتلخص نظريته باصطياد عدوه وقتاله حتى النهاية،

(1) هكذا يكتب اسم بطل قرطاج (قرت حداث) بالكنعانية، وبس هانيال ولا هيعل.

ونكس بمطاردة غربه كما يطارد الضياد فريسته. وفي لحظة عفلة ينفض عليه وينهي مهمته وقبل أن يتمكن الغريم من استجماع أفكاره يكون قد اختفى كما لو أن الزمان قامت بابتلاعه. هذه هي اللعبة التي قرر لورنس لعبها.

عندما اتخذ لورنس هذا القرار كان مستلقياً في خيمته ومصاباً بالحمى بحسب شديدة، بينما كانت الحملة التركية تتقدم بسرعة لاحتلال ربيع. وبدلاً من تدعيم الميناء بحفر الخنادق وانتظار العدو، بدأ مع فيصل بالهجوم على القوات التي في الشمال وتركاً لريد، الابن الأصغر للحسين، مجموعة صغيرة من البدو لمناوشة الأعداء. وبمعنى آخر تركا جثة ومكة بدون حراسة فأصبح في مقدور الجيش التركي أن يتوغل كما يشاء.

فما هو يا نري المخطط التي وضعه لورنس؟

كان الأتراك يحتفظون بينائين صغيرين في الشمال هما يشع والوجه، وذلك لحماية الخط الحديدي الحجازي. بينما توجه أفراد الحامية في المدينة مع الجيش التركي بجهة الجنوب إلى مكة. كانت خطة لورنس احتلال هذين المينائين المهمين تهديد الخط الحجازي وإلجاء الحملة العسكرية التركية على العودة إلى المدينة أو التعرض للتعزلة في الصحراء بعد قطع الموارد عنها.

كلما فكر لورنس في هذا المشروع أكثر كلما ازداد اقتناعاً بأنه إذا حدث وتراجعت الحملة التركية إلى المدينة فإن العرب لا بد أن يتصرفوا على الأتراك ويحرروا الحجاز. كان قد قدر مساحة تلك الأراضي بنحو مئة وخمسين ألف ميل مربع، وإذا كان الأتراك يرغبون في إخضاعها وقمع الثورات، فلا بد أن يتوفر لديهم نصف مليون من الجنود على أقل تقدير. ولما كان الجيش التركي في ذلك الحين لا يزيد عن مئة ألف، توصل لورنس إلى فكرة أنه إذا تمكن من جمع سكان الصحراء المبعثرين في جيش واحد، ففي مقدوره أن يخرج الأتراك من الأراضي المقدسة بل وأن يفزو سوريا أيضاً.

من أجل ذلك لا بد له من إقناع العرب بأن يتخلوا عن تعزيق رقاب بعضهم البعض

بسبب نزاعات قديمة. بدلاً من ذلك عليهم التضحية بأرواحهم من أجل حزية بلادهم وأن يرحبوا بالموت من أجل تحرير جزيرتهم من اضطهاد العثمانيين.

لم تبتد السلطات العامة في القاهرة أدنى اعتراض على بقاء لورنس في جزيرة العرب عندما تم بفتح في العودة في نهاية إجازته، كان الجنرال غلبت كلايتون، مدير دائرة الاستخبارات، يعلم أن لورنس يتفنن العربية، وأنه يفهم نمسية العرب، بل كان يقول عنه إن في داخله بدويًا صميمًا. بل كان الإنكليز يأملون في أن يساعد البدو على إبقاء نار الثورة مشتعلة. لقد منحوه سلطة واسعة، وطلبوا إليه أن يتهمز أية فرصة سانحة. كان ذلك في شهر أكتوبر من عام 1916، وبحلول شهر أكتوبر سنة 1918 قاد هذا الشاب، الذي لم يبلغ الثلاثين من عمره، جيشاً غير نظامي رائعاً يشكل خيالي ودخل به عبر بوابات دمشق.

بهذه الطريقة المتنامية أُنس لورنس وفضل جيشهما. خرج لورنس إلى الصحراء مع مرافقين اثنين فقط. كان يتوقف عند كل مخيم بدوي فيجتمع بالشيخ ويشرح له مهمته باللغة العربية. وكان يزورهم تحت اسم سيدي فيصل، وهو أحب أبناء الشريف حسين إلى قلوبهم، مما أُن له الحماية من أي أذى قد يلحق به، على الرغم من أنه مسيحي بطاً بقدميه أرضاً مقدسة.

كان يجلس كل ليلة، بعد أداء الصلاة، عند نيران المخيم مقابل الخيام السوداء يتناش مع مضيفيه البدويين ماضي جزيرة العرب العريق وحاضرها الخاضع للاستعباد، إلى أن يتحس كل فرد في القبيلة إلى درجة جنونية. وأثناء تناول الماعز المشوي المذبوح إكراماً لـلورنس وبينما كانت فتاتين الشاي المحلى تدار على الحاضرين كان لورنس يشرح لهم، بعبارات أفصح من كلمات شيوخ القبائل أنفسهم، إمكانية إخراج الأتراك من البلاد. لقد أقتنعهم بأنهم إن تأخروا أكثر من ذلك، فقد يضيعوا الفرصة إذ أن عدوهم في هذه اللحظة مشغول بقتال الإنكليز والفرنسيين والإيطاليين والروس مما يمنح الانتفاضة العربية فرصة كبيرة في الصمود والمقاومة.

وبذلك نجح في إقناع البدو بتناسي أحقاد الدّم وتمكن من جعلهم يتحدون ضد عدوهم المشترك، وفي غضون ستة أشهر وحّد كل قبائل الحجاز في حلف غير نظامي.

كانت أول ثلاث قبائل استطاع لوزنس إقناعها هي: قبيلة حرب، التي تسكن الصحراء الواقعة بين المدينة ومكة، وقبيلة جهينة، التي تقطن الأقاليم الواقعة بين ساحل البحر الأحمر والمدينة، وقبيلة بني المتجولة شرقي الوجه. أما قبيلة حرب، فلا يقل عدد أفرادها عن مئتي ألف نسمة، وهي من أكبر القبائل في جزيرة العرب.

في المرحلة الأولى من حملة الصحراء لم تكن القوات البحرية البريطانية تساند العرب بشكل فعال. وبينما كان لوزنس يتقل في الأقاليم الشمالية ويتوغل في الداخل مشجعاً ومراقباً لتجمع العشائر، ترك فيصل طريق مكة دون حماية وأخذ معه من صافيه من الرجال ميمماً شطر الساحل، ولم يترك لزيد إلا قلة من الفناصين. وفي الوقت الذي وحل فيصل فيه إلى مسافة قريبة من ينبع، الميناء الأول إلى شمال رابغ، كان لوزنس قد أرسل له عدة آلاف من رجال القبائل لمساندته. أخليت الحامية التركية قبل وصول العرب، وأجبرتهم مدافع السفن الحربية البريطانية على التراجع على أعقابهم.

كان الدخول إلى ينبع رائعاً وبربرياً. تقدّم الأمير فيصل على حصانه، كقائد لجيش عربي، مرتدياً ثياباً بيضاء كياض نلوج لبنان. وعلى يمينه كان هناك شريف آخر في حلة حمراء فاتمة، وقد صيغ غطاء رأسه وسترته وعباءته بالحناء. أما على يسار فيصل فكان «الشريف» لوزنس بملابسه البيضاء يبدو وكأنه يتجسّد شخصية نبي من الزمن الأول. ومن وراءهم سار بدويون يحملون ثلاث رايات من الحرير الأرجواني ذات رؤوس ذهبية، يتبعهم جمل ينقر على المزمار وثلاثة طبائيس يعزفون لحناً عسكرياً غريباً. ومن خلفهم جاءت جمهرة متلاطمة متقافزة من آلاف العرب على جمالهم، وهم عناصر الحراسة الخاصة بفيصل ولوزنس. لقد احتشد الجميع وهم يعبرون العمر القبيح بين أشجار النخيل تحت مآذن المسجد. كان دأكو الجمال يرتدون أثواباً من كل الألوان وتندنى من دكايلهم سروج مزركشة بالسوان زاهية. كان عرضاً باهر أبهى، وكان الجميع ينشدون بأصواتهم الوخيمة ألباناً مرتجلة تتعنى بفصائل الأمير فيصل ونائبه الوزير أشقر الشعر.

وتقدّم الجيش من ينبع شمالاً محاذياً الساحل وسار متّين ميل أخرى نحو ميناء الوجه، ثمّني كان محمياً بفصائل تركية قوامها ألف جندي. يذكرني اسم هذا الميناء بحملة أخرى.

ففي عام 24 قبل الميلاد، قام أوغسطس قيصر بإرسال إيلوس غالوس Aelius Gallus إلى جزيرة العرب ومعه أحد عشر ألفاً من خيرة جنوده في روما. وبعد أن تجول الجيش ستة أشهر كاملة في الأراضي الفاتحة، قطع الأمل أخيراً من محاولة الوصول إلى أرض اللباد والبخور، وأبحر عائداً إلى مصر من ميناء الوجه ولم يبق من الأحد عشر ألفاً إلا شُرذمة قليلة. لقد تلقوا درساً تعلمه لورنس فيما بعد وهو أن الجيش الذي يغزو جزيرة العرب يجب أن يكون قادراً على تحمل المشقات والصبر على شظف العيش.

لغاية الآن جمع فيصل ولورنس نحواً من عشرة آلاف عربي وقسموا هذا الجيش إلى تسع فرق، تجتمعت الفرق كلها عند قرية في منتصف الطريق يقال لها أمّلعج. وهناك تسلّموا المؤن الطازجة من السفن الحربية البريطانية التي حافظت على علاقاتها الطيبة طوال فترة العمليات الساحلية. إلى الشمال من أمّلعج، كان على الجيش العربي أن يقطع مئة وعشرين ميلاً في أرض قاحلة لا ماء فيها، وهي خالية حتى من الشوك الذي تقنات به الإبل.

لكن سفينة تجارية مسلحة من البحرية التجارية الهندية سارت بمحاذاة الساحل مغامرة بتحطيم هيكلها فوق الضخور المرجانية غير انطاهرة، وقامت بتزويد الجيش بمقدار ضئيل من الماء يكفي للبغال ولم يبق لتجمال شيء فمات منها عدد كبير عطشاً. لكن الجيش وصل إلى القلال المشرفة على ميناء الوجه في الخامس والعشرين من شهر يناير عام 1917 دون أن يفقد رجلاً واحداً بسبب الجوع أو العطش.

يقع ميناء الوجه على الطرف الجنوبي الغربي من مرتفعات مرجانية صغيرة ويحده غرباً البحر الأحمر وجنوباً وإدْ مُجْدَب وشرفاً سهل داخلي. قامت السفن البريطانية الحربية بقصف الأتراك عند حاميتهم الرئيسية من على بعد أربعة عشر ألف ياردة، مما جعلها في مأمن من أن تطونها المدافع التركية. بعد أن استمر القصف بصع ساعات نزلت فرقة من العرب كانت قد وصلت عن طريق البحر لهذا الغرض وهاجموا الحامية التركية المنهزمة. وفي الوقت ذاته وصل لورنس ورجاله عن طريق الصحراء واشتركوا في القتال وفي النهب والسلب. وتؤكد روايات صحيحة أن بدو لورنس حملوا كل ما يمكنهم حمله من ميناء الوجه.

وقد أشرف السير روسلين ويميس Sir Rosslyn Wemyss بنفسه على الهجوم البحري. وكما يقول العرب كان الأميرال «أبا الثورة العربية وأمهاتها» في مراحلها الأولى، وينسب له أكبر الفضل في نجاحها في أول عهدها. وكلما كان لورنس يرغب في تنظيم عرض سينمائي، كما كان يدعو الأمثلة التي يحاول بواسطتها التأثير على العرب الذين يعملون دائماً للقتال فيما بينهم، كان يذكر بيساطة الأميرال الذي أبحر من السويد في باخرته الضخمة أوربالوم Furubalm ليشارك في مناورات بمدفعه ذي اتسع بوصات بمحاذاة الساحل وعلى مرأى من جيش الأشراف.

أرسل الأميرال سفينته في ميناء جذة في مناسبتين عصبيتين، وذلك ليقدم تهانيه للشريف حسين. لاشك أن ضخامة حجم سفينة الأميرال هي التي أثرت بأبلغ تأثير في اعتناء العاهل المسن بالقوة العظمى لبريطانيا.

علّق بقوله ذات مرة: «إنه البحر العظيم الذي تسبح فيه سمكة مثلي، وكلما كان البحر أكبر، كلما كانت السمكة أضخم حجماً».



مبنى بمثابة فندق «الذورف أستوريا» جزيرة العرب



لوؤتس برئدي في العادة
أنوياً ناصعة البياض

الفصل السابع

معركة آبار أبو اللسن¹¹

في الوقت الذي كان فيصل يهاجم ميثاق يثع والوجه، من موانئ البحر الأحمر الصغيرة، ظهر شقيقه عبد الله في الصحراء على بعد عدة أميال إلى الشرق من المدينة. كان معه جماعة من البدو يركبون الخيول السريعة، فهزموا دوريات العدو ونسفوا أجزاء من الخط الحديدي وتركوا رسالة مسمية مثبتة في مكان بارز على إحدى العربات. كانت الرسالة موجهة إلى القائل العام يصفون بأسه وبوحشية مصير من يفكر منهم بالتركز في مغادرة جزيرة العرب.

أما القوات التركية التي كانت تتقدم في طريقها إلى مكة فقد وصفتها أنباء سقوط يثع والوجه على بعد مئة ميل منهم بجهة الشمال الغربي، وفي الوقت نفسه غارات الشريف عبد الله على بعد مئة ميل إلى الشمال الشرقي. لقد أصابتهم الدهشة والحيرة إذ كان الجيش العربي قبل بضعة أيام قابعاً أمامهم في رابغ.

وبفصل مجموعة الأمير زيد من الفخامة في النهار وبعض الغارات الليلية. ظل الأمر أن جيش الحجاز الرئيسي لا يزال هناك والآن يجدون جبراً عربياً تحيط بهم من كل الجهات، ولم تكن الشمس بأكثر حياءً عليهم إذ كانت ترسل أشعتها الحارقة لتلهب الأرض التي يعسكرون فوقها. لم تزد شمس الصحراء الملتهمية من

11 اعلى الزعم من أن عبارة (أبو) من الأسماء الخمسة وينبغي تطبيق القاعدة عليها بحسب مكانها من الخمسة، فسنبقى عليها كما هي على اعتبارها تتعلق باسم علم لمكان معروف، ولم تعد الأسماء على ورود بصيغة: أبي اللسن.

ظماهم فحسب، بل حفرت هو أجسهم أيضاً فأصبحوا يتوهمون أن كل سراب هو جماعة من الفرسان الدووين.

كان الرسل يأتون في كل ساعة بأخبار عن غارات في العلاء Flula، ومدائن صالح ومحطات أخرى شمالي المدينة، وأيضاً الاستيلاء على حاميتين أخريين من حامياتهم على البحر الأحمر في ضبا Dhaba ومويلح Moweilah. استولى الفرع على الأثرak بسبب هذه الأنباء عن الانقلاب غير المتوقع وإشاعات عن انتصارات العرب الخيالية التي كان يبتها عمداً بينهم عملاء لورنس التمزيون، فلم يجدوا وسيلة غير الفرار إلى قاعدتهم الحربية في المدينة ليحموا خط الشبكة الحديدية الذي كان طريق الاتصال الوحيد بين سوريا وثركية.

في شمال جزيرة العرب، بالقرب من رأس خليج العقبة، للأثرak حامية أخرى أكثر أهمية من كل ما تم الاستيلاء عليه من قبل الحملة، باستثناء حاميتي مكة وجدة. قبل أن ينجح أنباغ الأمير فيصل بإجلاء عدوهم القديم خارج الحجاز، ما عدا المدينة، كان لابد أن يحسبوا ألف حساب لهذا الحصن الثقوي عند رأس الخليج. وبعد أن استجبت الأمور، وضع لورنس خطة جريئة جداً كان يأمل تنفيذها.

من بين الأماكن الحربية الواقعة على الساحل الغربي لجزيرة العرب شمالي عدن، أهم مكان من وجهة النظر العسكرية هو ميناء العقبة الذي كان في يوم من الأيام القاعدة البحرية الرئيسية لاسطول الملك سليمان، وكان أيضاً في مقدمة الأماكن التي زارها النبي محمد، وجعلها مركزاً له. إن أي جيش يحاول غزو مصر أو مهاجمة قناة السويس من جهة الشرق، لابد أن تكون العقبة هي الجانب الأيسر، وتكون الجانب الأيمن لأي جيش خارج من مصر لغزو فلسطين أو سوريا. منذ بداية الحرب أنشأ الأثرak حامية كبيرة هناك لأنهم أرادوا النزاع مصر من البريطانيين، ومن جهة أخرى لأن المكان يشكل نقطة مهمة حساسة من أجل حماية سكة حديد الحجاز.

(1) يورد نوبل توماس بعض الأقاويل على غير أساس تاريخي.

كان في نية لورنس الاستيلاء على العقبة وجعلها قاعدة للجيش العربي من أجل الهجوم على سوريا، وكانت خطة رائعة وطموحة بحق.

في الثامن عشر من شهر يونيو عام 1917، خرج لورنس ومعه ثمانمئة رجل من قبيلة التواينة ومئتان من قبيلة الشرارات وتسعون من قبيلة الكواكبة (الكواكيب)، خرجوا من مياء الوجه نحو خليج العقبة الذي يبعد ثلاثمئة ميل شمالاً. وضع على رأس هذه القوة الحرية الشريف ناصر، وهو من سلالة النبي محمد، وهو أيضاً من أقدر ضباط فيصل وأمهريهم. وكما هي العادة، كان لورنس ناصحاً للقادة العرب، كان يعمل من خلال القادة المحليين، ويكمن السبب الأكبر في نجاحه في أسلوبه بحمل العرب يظنون أنهم يقودون الحملة بأنفسهم.

كان التقدم باتجاه العقبة مثلاً ظهرت فيه مقدرة لورنس على تسيير جيوش فيصل وإدارتها، بالرغم من افتقاره للخبرة والمران الحربي. وحتى يتفوق ذكاء على القائد التركي في المدينة قاد فرقة سريعة سارت على بعد حوالي ألف ميل من ميناء الوجه، لكن بدلاً من السير بمحاذاة الساحل إلى العقبة مباشرة، اتجه بهم نحو الداخل عبر خط السكة الحديدية بالقرب من المدينة حيث نسفوا عدة أميال منها في طريقهم قبل أن يدخلوا وادي نسر خان المشهور بيزواحفه السامة، وقد قضى بعض رجاله بحبهم بفعل نهش الأفاعي، ومن ثم عبروا أراضي قبيلة الحويطات شرقي البحر الميت، وتابعوا سيرهم شمالاً حتى وصلوا إلى أرض مزاب.

لقد اختار أيضاً فرقة من حيرة رجاله وقادهم عبر خطوط العدو التركي ليلاً، حيث وضعوا المتفجرات في قطار قرب عمان (المدينة التي كانت تُعرف في العهد الإغريقي باسم فيلادلفيا)، ونسفوا جسراً قرب درعا، وهو أهم نقطة اتصال للخط الحديدي جنوبي دمشق، كما وضعوا الألغام في عدة أميال وراء خنادق الصف الأمامي التركي بالقرب من حمص، المدينة السورية الصناعية.

كان من الممكن لورنس أن يفقد غارات من هذا النوع بسبب الحركة المدهشة لقواته. كان بإمكانه، مع فيلقه الذي يركب الجمال، أن يتوغل في الصحراء لمدة سنة

أسابيع دون الحاجة للرجوع إلى القاعدة لتتروّد بالثقة. طالما أن أفراد فرقته داخل الصحراء بعيدون عن أنظار المواقع التكتيكية المحصنة على حدود فلسطين وسوريا، فهم آمنون وكأنهم يعيشون على كوكب آخر. وعندما تفتح الفرصة لهجوم مفاجئ سريع يقومون به ثم ينسحبون إلى الصحراء حيث لا يجرؤ الأتراك على اللحاق بهم لأنهم لا يملكون جمالاً من جهة، ومن جهة أخرى فهم لا يملكون المعرفة الكافية بالصحراء ولا القدرة المذهلة على التحمل التي يمتلكها البدو. خلال حملة دامت ستة أسابيع كان رجال لورنس لا يأكلون سوى الخبز الغطير غير المختمر، وكان كل بدوي يحمل كيساً من التفتيق وزن خمسة وأربعين رطلاً تكفيه لأن يقطع ألفي ميل دون الحصول على مؤن طازجة. وكثيراً ما كان البدو يكتفون بجرعة ماء لا يشربون غيرها في ساعات النهار أثناء المسير، لكن الآبار كانت موجودة دائماً بمسافة لا تزيد على مسيرة يومين أو ثلاثة، لذلك كانوا نادراً ما يعانون من العطش.

في هذه البعثات التي تمت في الشمال ضمن الأراضي المحتلة من قبل الأتراك، كان لورنس يقسم رجاله إلى فرق متعددة وذات إرباك العدو وإيقاعه في حيرة من أمره. بعد المسير بهم في تلال مؤاب شرقي أريحا، ثم حول دمشق ليوم أو يومين، اتسّل إلى الجنوب ثانية. كانت العقبة تبعد عن خط الحجاز حوالي ستين ميلاً، وكما لا يحزر الأتراك أن العقبة هي وجهته الحقيقية، تظاهر بأنه سيقوم بالهجوم على معان، وهي أهم بلدة محصنة على الخط الحديدي بين المدينة والبحر الميت. في الوقت نفسه، وعلى بعد سبعة عشر ميلاً إلى الجنوب الغربي من معان، انفض على حامية محطة فويلة Fuwailah وهزم من فيها. عندما تلقى الأتراك في معان هذا الخبر أطلقوا فرقة خيالة للمطاردة، لكن لمّا وصلت الفرقة إلى المحطة لم تجد فيها سوى الطيور الجارحة؛ وكان لورنس ورجاله قد اختفوا، وكما يقول الأتراك، إن أرض الصحراء قد انشفت وابتلعتهم. وفي مساء اليوم التالي عاودوا الظهور من الضباب على مسافة بضعة أميال. قاموا هناك بزرع ألغام أخرى ودمروا ميلاً من الخط الحديدي كما نسفوا قطاراً كان في طريقه للشجدة. كانت الحرارة شديدة في أيام شهر يوليو، وقد ذكر

لوزنس في وصفها أن الأرض الملتهبة كانت تشوي جلود سواعد الزماعة، بينما كان الرجال والجمال يعرجون بسبب آلامهم المبرحة بالسير على الحجارة المتقدة.

انضم إلى لوزنس والتشريف ناصر أربعة آلاف مقاتل من قبيلة بني عضية، وأيضاً فرع من قبيلة الحويطات هي عشيرة أبو تايه Abu Tayi التي تضم أفضل المحاربين في جربة العرب، بقودهم عودة، وهو سرُّ بشري حقيقي أصبح مرافقاً دائماً للوزنس منذ ذلك الحين.

قررت فرقة المضادة التركية قضاء الليل في وادٍ بالقرب من آبار أبو اللسن Abu el Lissal على مسافة أربعة عشر ميلاً من معان في المكان الذي خبئت فيه مع لوزنس والأمير فيصل بعد عدة أشهر. في الوقت ذاته غادر لوزنس الفرقة وعدا بفرسه داخل الصحراء ليرى إن كان بإمكانه تحديد مكان الكتيبة التركية. وحالما تم له ذلك عاد مسرعاً إلى رجاله وأحضرهم إلى المرتفعات المحيطة بأبو اللسن، وبحلول الفجر كان الأتراك محاصرين بشكل كامل.

ظل العرب يطلقون الرصاص من مواقعهم في أعالي التلال المحيطة بالآبار لمدة اثني عشرة ساعة وصرعوا بعضاً منهم. كانت قوات السلطان في موقع حرج لكن لوزنس كان على يقين أنهم لو كانوا بقيادة رجال جريئين أكفيا، لاستطاعوا إخراج جنودهم من الصف الهزيل للبدو. والواقع أن الفائد التركي كان يفتقر إلى الشجاعة الضرورية في أحوال كهذه، وهذا ما شجع عودة أبو تايه لأن يصطحب عند غروب الشمس خمسين رجلاً من قبيلته ويزحف بهم إلى مكان لا بعيد عن الأتراك غير ثلاثمائة ياردة، وبعد أن استراحوا قليلاً خرجوا من محيطهم يسالة ودخلوا معسكر الأعداء. بُهِت الأتراك لهذه الجرأة لدرجة أن صفوفهم قد تفرقت لَمَّا اندفع الزعيم البدوي المسمى وسطهم لكن بعد أن هشمو منظره الرجائي ومزقوا بيت مبدسه وانزعوا السيف الذي كان يمسكه بيده وقتلوا جواده من تحته. ومع هذا كذبه كان العربي الكهل سعيداً وقال إنه كان أفضل قتال خاضه منذ شهر رمضان الفائت.

وكان لوزنس يرافقه من أعلى التلال على الجهة المقابلة للمنخفض، فيما كان مه

إلا أن امتطى هجينة وأسرع به فوصل إلى المكان الذي كان فيه الأتراك في حالة ذهول وارتباك، يتبعه أربع مئة بدوي على ظهور الجمال. اختلط الحابل بالنابل بين الأتراك والعرب مدة عشرين دقيقة، وكانوا كلهم يطلقون الرصاص بشكل جنوني. أثناء الهجوم اضطرب لورنس نفسه وضرب رصاص مسدسه خطأ إلى رأس هجينة فسقط ميتاً على الفور، وقذف لورنس من ركابه فسقط أمام دابته، ووقع بعض رجاله فوقه. لم يسقط أمام الذابة مباشرة لداسه الجمال المسرعة بأقدامها.

تفرق الأتراك مرتكبين بذلك خطأ فادحاً، تماماً كما ختم لورنس، وانتهت المعركة بمذبحة فظيعة. ومع أن العديد منهم فرّ في الظلام، فقد قتل العرب وأسروا عدداً يفوق عددهم الكلي بكثير. وفي الصباح وجدوا ثلاث مئة قتيل حول البئر. أما الأسرى فقد ساق لورنس والشريف ناصر معظمهم، بينما انطلق البدو إلى خيام الأتراك يقومون بسلبها كعادتهم. إن شهوة الغزو متأصلة في نفوسهم لأنهم لا يعدونها نقبصة بل يعتقدون أنها فضيلة من أهم الفضائل.

لقد بلغ حقد البدو مبلغه، فكانوا يريدون قتل الأسرى انتقاماً منهم لتجرائم التي ارتكبوها بحق نسائهم وأطفالهم. كما كانوا يريدون الثأر لعنقل الشيخ الكركي بنقاوي، زعيمهم الذي ربطه الأتراك بين أربعة يقال ومزقه إرباً إرباً. كان موت هذا الشيخ المأساوي قمة مجموعة من الإعدامات بالتعذيب، التي نفذها الأتراك فأغضب العرب لدرجة أن أقسموا بالآل يعاملوا أي تركي برأفة أو رحمة. لكن كان لدى لورنس فكرة أخرى. أراد أن يذيع التبأين أفراد الجيش التركي بأن العرب يعاملون أسراهم بشكل جيد، ونجح أخيراً في جعل أتباعه المنعطشين لشأر يعيدون النظر في تعاملهم مع الأسرى. وكما كان يأمل فقد آتت هذه الطريقة ثمارها بسرعة، وفي اليوم الذي تلا معركة أبو اللسن أخذت المجموعات تتوافدون انقطاع وهم يحملون أسلحتهم فوق رؤوسهم ويصيحون: «مُسلم، مُسلم» على نمط صيحة الألمان "kamerad".





أحمد شيوخ جزيرة العرب



الكولونيل لورنس مع المؤلف

الفصل الثامن

الاستيلاء على مرفأ الملك سليمان القديم

كان لورنس قد غادر ميناء الوجه بمؤن تكفي لشهرين، وسار منات الاميان إلى الجنوب. وبعد أن قدّم جزءاً من المخزون للأسرى الأتراك، أصبح أمر الطعام في وضع حرج. مع ذلك تابع الجيش نصف النجائع وقائده الشاب مسيرهم عبر الجبال الوعرة الفاحشة التي تطاول سماء شمال جزيرة العرب. سبقتهم أنباء انتصار انهم، وعندما وصل لورنس إلى القوية Gueira، وهو ميناء تركي في جبال الملك سليمان وبعد خمسة وعشرين ميلاً من الغتّة عند مدخل صمّ ضيق للغاية يعرف باسم وادي إصم، برزت حامية القوية Gueira أمامه واستسلمت دون إطلاق طلقة واحدة. ومن ثم تابع مسير، مع رجاله عبر وادي إصم إلى كثرة Kethura، وهي مركز آخر لحامية الأرض الوحيدة المفضية إلى الغتّة. وهناك هجم لورنس على حامية أخرى وأسر عدة منات من الرّحان. بعد أن شقّ الجيش طريقه عبر العمرّ الضيق، وصلوا إلى بئر قديم في خدرة Khadra حيث أنشئ حوض حجري في الوادي قبل عهد الرومان بألفي عام، ولا تزال آثاره موجودة إلى الآن. كان الأتراك قد جمعوا مدفعيتهم الثقيلة وراء البئر المتهذم، وكانت تمثل موقع الدّفاع الخارجيّ للعتبة. قبل أن يصل جيش الشّريف أمام هذا الحاجز الأخير، كان بدو قبائل عمران Amran والدراوشة Darausha والاحيوات Neiwal، الذين كانوا يسكنون الصحراء قرب العتّة، قد سمعوا بالانتصارات العظيمة في فويلة Fuweilah وأبو الحسن Abu el Issa، فأخذوا يركضون عبر الجبال بالمنات لينضموا إلى القوات العربية المتقدّمة.

كانت المهزيمة المذهنة للكتيبة التركية في أبو النّسن المرحلة الأولى في معركة الغّبة. وتحققت الثانية بالعمل الرائع عندما قام لورنس بما كان الأثر الذي يظنونونه مستحيلًا ونجح في قيادة حشد بدوي بدائي غير منظم عبر جبال الملث سليمان شديدة الانحدار، فوق الجدار الروماني القديم تحت أنظار رجال المدفعية الأتراك المذهوليين، ثم إلى الغّبة في صباح السادس من شهر يوليو عام 1917. ومن أجل منع حدوث مذبحة في حمامة الغّبة، كان على لورنس وناصر التحدث مع أتباعهم الشرسين منذ غروب الشمس حتى الفجر، ثم نزل ناصر إلى الوادي وجلس على صخرة ليستمع رجاله من إطلاق الرصاص. نفع الغّبة عند النهاية الجنوبية ل وادي عربة، وهو من أشد الوديان جفافاً ووحشة في العالم ويعتد من البحر الميت إلى خليج الغّبة. في هذا الوادي يُعتقد أن النبي موسى وبني إسرائيل شقوا طريقهم نحو أرض الميعاد، وفي هذا الوادي سار النبي محمد وعلي وأبو بكر وعمر. وها ألقى النبي محمد العديد من خطبه الأولى^(١).

وراء مصف دائرة ضيقة من أشجار التّخيل التي تحف الشاطئ، ترى المياه الزرقاء للخليج المحصور حيث كانت ترسو في قديم الزمان أساطيل الملك سليمان والسفن الإغريقية والسفن الرومانية ثلاثية المجاذيف، وراء الغّبة تبدو جبال بركانية وعرة قاحلة. أما البلدة، فهي - كأغلب البلدات في الشرق الأدنى، مؤلفة من ركام فوضوي من الأكواخ الطينية. كانت المظلات تغطي الشوارع الضيقة، والأكشاك في السوق مليئة بالقمشة المزركشة وسحايد الصلاة البانية، وأكواز من سكر القصب المزدحة بالدهاب، وأكوام من الثمر، وأطباق من الأواني النحاسية الملامعة والنحاس المطروق.

كانت قوى الأتراك والألمان قد خارت واستولت عليهم الحيرة بسبب الإنجاز غير المتوقع للعرب بعبور الجبال ثم إلى المعابر التي استسلمت بلا ضجة. بعد دخول لورنس الغّبة تقدّم أحد الضباط الألمان وحياه. لم يكن هذا الضابط يتكلم التركية ولا العربية وبيّن أنه لم يكن قد سمع شيئاً عن الثورة القائمة.

(١) من الواضح أن معلومات لويل توماس عن التاريخ الإسلامي ضحلة للغاية، فهو يغفل عن بعض الصحابين والكتاب أقاديل ومرويات عامة لا صحة لها.

صاح بحماسة: «لِمَ كل هذا؟ ومن هم أولئك الرجال؟».

أجاب نورنس: «إنهم من جيش الملك حسين، وكان الشريف حسين قد أعلن نفسه ملكاً آنذاك، وهو في ثورة ضد الأتراك».

سأل الألماني: «ومن هو الملك حسين؟».

جاءه الجواب: «إنه أمير مكة وحاكم هذا الجزء من جزيرة العرب».

قال الضابط: «وماذا أكون أنا؟».

«أنت الآن أسير».

«وهل سيأخذونني إلى مكة؟».

«لا بل إلى مصر».

«وهل الشكر مرتفع الثمن هناك؟».

«بل رخيص جداً».

«جيد».

ثم ابتعد وهو سعيد لخروجه من الحرب، ومن جهة أخرى لتوجهه إلى مكان يستطيع فيه الحصول على الكثير من الشكر.

هذه المرة انتقلت خطة المستشار البريطاني الشاب لأمير فيصل إلى حيز التطبيق. وأصبح الأتراك من الآن فصاعداً في موقع اندفاع، وأجبروا على تقسيم جيشهم إلى جزأين، أبقوا واحداً منهما في المدينة وخصصوا الآخر للدفاع عن الخط الحديدي الحجازي. كان في استطاعة نورنس لو أراد أن ينسف هذا الخط في مواقع عديدة فيعمل الأتراك في المدينة بشكل كامل، كما كان في مقدوره أن يجلب مدافع بحرية خاصة من خليج العقبة فيمحوا المدينة عن الخارطة ويجبر الحامية على الاستسلام. لكنه لم يحاول فعل ذلك لسبب وجيه منعرفه لاحقاً. كان في ذهنه مخطط أفضل وأشد طموحاً، ويتطلب تنفيذه بنجاح أن يغري الأتراك بفتحهم إلى إرسال تعزيزات

أكثر إلى المدينة، كالمدافع والجمال والبغال والسيارات المصفحة والطائرات وغيرها من أدوات الحرب التي يمكنهم أن يجلبوها من جبهات القتال الأخرى. كان يأمل بأن ينفوا على حامية ضخمة هناك حتى نهاية الحرب، مما يعني بقاء القليل من الأتراك المجاهدين للجيوش البريطانية في فلسطين وبلاد التراقدين، وبذلك تصبح قطارات المؤن التي ترسل من سوريا مصدراً دائماً لتزويد الجيش العربي. لو تم الاستيلاء على المدينة وإجلاء الأتراك نحو الشمال، لحرّم لوزنس من القرصة الزائفة بمعيشة جيشه على مؤن الأتراك. وكانت هذه المنفعة أفضل لديه بكثير من احتلال المدينة.

بعد احتلال الغنقة، عاش لوزنس ورجاله عشرة أيام على البلع غير الناضج ولحم الجمال التي قُتلَت في معركة أبو النسن. ثم أُجبروا على قتل جمالهم الخاصة بمعدل جمليْن في اليوم لإنقاذ أنفسهم ومئات الأسرى الذين بحوزتهم. ومن أجل الحفاظ على جيشه من المجاعة، ركب لوزنس هجينة السريع وسار لمدة اثنتين وعشرين ساعة متواصلة عبر الجبال غير المسكونة والوديان الفاحشة لشبه جزيرة سيناء. لقد أنهك تماماً بعد هذه المسيرة القياسية التي جاءت في نهاية شهرين من القتال المستمر، وألف ميل من التجوّل داخل واحدة من أشد الأراضي قحلاً وجفافاً في العالم، والتعبش على الخبز غير المختمر والتمر، ودون أن يستحم منذ أكثر من شهر، فما كان منه إلا أن أدار جملة إلى واحد من سوارع بور توفيق في الشويس، ومشى مترجاً داخل فندق سيناء، ثم طلب الاستحمام. بقي في حوض الاستحمام مدة ثلاث ساعات والضبّة يحضرون له الشراب البارد. قال إن ذلك اليوم هو أقرب مثال على فكرة الجنة التي يسعى إليها المسلمون. ومن الشويس توجه إلى الإسماعيلية، وهي محطة تقع في منتصف القناة.

لم يعلم أحد بوصول لوزنس إلى جزيرة العرب، وكانت القيادة العامة في القاهرة نجهل حركاته. وكان أول ما سمعته عن أعماله البطولية هذه يوم قابل لوزنس لأول مرة في الإسماعيلية، الجنرال ألبي الذي كان قد عهد إليه حديثاً بأن يكون القائد العام للحملة المصرية العسكرية.

أما تفاصيل هذه المقابلة فكانت أشبه برواية تمثيلية في بساطتها، كان ألبي قد

أُرسل من لندن ليخلف العمير آرشيولد موري Sir Archibald Murray ويتولى القيادة العامة مكانه. لم يكن مضي على وصول الجنرال ألبي إلا بضع دقائق وكان يسير على رصيف محطة الاسماعيلية مع الأميرال ويميس Wemmys. كان لورنس يقف في الجوار بملابسه العربية حين رأى الجنرال مع الأميرال. فما كان منه إلا أن همس في أذن أحد رجائ الأميرال سائلاً:

«من هذا الرجل؟»

أجابته الرجل قائلاً: «ألبي».

«وماذا يفعل هنا؟»

«جاء ليحلب محل مري».

بعد دقائق عدة تمكن لورنس من الإدلاء بتقريره للأميرال ويميس، الذي كان بعد الأب التروحي للثورة العربية. أخبره بأنه قد استولى على العقبة، لكن رجاله كانوا بأشد الحاجة إلى الطعام. وعد ويميس في الحال بإرسال سفن إغاثة، ثم أخبر ألبي بما قال لورنس، فأرسل الجنرال في طلبه فوراً. كانت المحفظة مزدحمة بضباط الإدارة وحشد من السكان المحليين الذين جدوا لثقتهم حبيباً بالبي، عندما ظهر فجأة ذلك الشاب الأشقر حافي القدمين بشبابه البدوية. سأله ألبي:

«وماذا تجعل لنا من أخبار؟»

فأجاب لورنس بصوت منخفض ودون أي تعبير على وجهه بأن العرب قد احتلوا أتمياء القديم عند رأس خليج العقبة. وعزا كل الفضل في هذا النصر للعرب، دون أن يشير أدنى إشارة إلى الدور الذي لعبه في المهمة. لقد ترك لديه انطباعاً بأنه كان يقوم بدور الزمبون فقط، مع أن الواقع هو أن الفضل في الاستيلاء على العقبة يرجع إلى قيادته الفذة وعبقريته الحربية.

شعر الجنرال بسعادة بالغة لأن العقبة أهم مركز حربي بجهة الميمنة، والقاعدة التركية الأساسية على الساحل الغربي لشبه جزيرة العرب.

ولما أخذ لوزنس يشرح بالتفصيل حالة الجيش العربي، وعد الأميرال ويميس Wemmys بإرسال زورق مليء بالطعام إلى العقبة. بل ذهب إلى أبعد من ذلك فقام بأعمال ستخذل اسمه في تاريخ العرب. كان العرب يخشون عودة الأتراك بقوات جديدة يستردون بها العقبة، لهذا انتقل الأميرال هو ورجاله إلى فندق في الإسماعيلية وجعله مركزاً لإدارته، وأرسل باخوته الخاصة حول سيناء لتبقى شهراً في العقبة ولترفع من معنويات العرب. وسُرَّ البدو برؤية هذه القلعة الضخمة العائمة واقتنعوا بأنهم لن يفقوا وحدهم في وجه الإمبراطورية التركية. كانت السفينة البريطانية هي التلّيل المادي على قوة بريطانيا، والتي لم يشاهد البدو مثلها من قبل.

لم يكتفِ الأميرال ويميس بهذا بل أرسل للوزنس ورجاله عشرين مدفعاً رشاشاً من سفينة وعدداً من الأسلحة البحرية. ولا تزال الأخيرة في مكان ما من جزيرة العرب، وربما تكون على سطح الممرل الطيني لعودة أبو نايه. بعد أن وضعت الحرب أوزارها بعدة شهور تلقى لوزنس رسالة من الأميرالية يطلبون فيها إعادة إحدى بنادقهم بعيدة المدى التي كانت قد أرسلت إلى الشاطئ من أجل دعم القضية العربية. أجاب لوزنس بأنه آسف جداً لأنه «قد أضاعها».

كنتيجة لانتصار لوزنس في العقبة وزيارته لمصر، قرّر البريطانيون مساندة العرب في حملتهم لنيل استقلالهم الكامل. وعاد عالم الآثار الشاب إلى العقبة عاتماً ظافراً، وبما أنه قد قاد الحملة خلال بضعة أشهر بهذه الطريقة الرائعة فقد ترفّت رتبته من ملازم إلى مقدم، على الرغم من عدم معرفته الفرق بين «يمين ذر» و«النجبة المتلاح».

أدرك الألمان والأتراك أن هناك قوة غامضة تلهم العرب بما يجب فعله. واكتشفوا بواسطة جواسيسهم أن لوزنس هو القوة المحركة للثورة العربية كلها. لهذا أعنوا عن جائزة خمسين ألف جنيه لمن يأتيهم به حياً أو ميتاً. لكن البدو لم يكونوا ليخونوا قائدهم مقابل خزانة سليمان.

وكان سقوط العقبة بعد احتلال مكة المكرمة أعظم حادث في الثورة العربية؛ لأنه

وخذ العرب النذين قام لوزنس بإقناعهم بأمر الثورة وأعطاهم الشعور العميق بالثقة بأنفسهم.

بعد إحراز الانتصار كان هدف لوزنس أن يستغل هذه الوحدة. على الرغم من أن أسلوبه وشجاعته الشخصية قد لعبا دوراً مهماً في نجاح العمليات، فقد كان من الذكاء بمكان تيعزو الفضل كله للقادة العرب الرئيسيين الذين يعملون معه من أمثال عودة أبو نابه والقرىف ناصر. وبالتطبع فلم يكن هؤلاء المحاربين الشجعان فرحهم بذلك، بل وأصبحوا من وقتها الأصدقاء المخلصين للوزنس.

كان لوزنس متلهفاً لنشر هذا التجاح الأولي، فأرسل رسلاً إلى كل قبائل الصحراء، على الرغم من أن أنباء معركة أبو اللسن والتقدم إلى العقبة كانت تطير في أنحاء جزيرة العرب بأسرع مما تذاق الأنباء بواسطة المذباب. كان يدرك الأهمية الكبرى للتذاعية، فقام بإرسال بعض من أذكى رجال العرب إلى داخل صفوف العدو لينشر خبر سقوط العقبة في كل أرجاء الإمبراطورية التركية.

وبهذا تمكن هذا الشاب البريظاني. خريج أوكسمورد. من الاستيلاء على ميناء الملك سليمان القديم في منطقة نابة من العالم، وفي معركة لم تكن ربما لتحدث لآلاف من السنين بل وأكثر، ومن ثم إحراز الانتصار المهم الثاني في أرض ألف نيلة وليلة تمهيداً لغزو سوريا. ومن مجرد قتال محلي، حول انتصار لوزنس في العقبة ثورة الحجاز إلى حملة مهمة واسعة المدى موجهة إلى قلب الإمبراطورية التركية. ومنذ ذلك اليوم أصبحت مجموعته من رماح بدو الصحراء الأجناح الأيمن في جيش آلبي، ومنذ تلك اللحظة راح الضابط البسيط يلعب دور عميد في الجيش.

* * *



الشریف لورنس خارج خيمته



أثر التوليب (اللقغم) على جسر نو كي

الفصل التاسع

عبر البحر الأحمر للانضمام إلى لورنس وفيصل

وكان الأمير فيصل قد وصل هو والكولونيل لورنس إلى العقبة مع الحملة عندما قدمت من فلسطين مزودة بمجموعة من آلات التصوير. ثم يكن من السهل أبداً الوصول إلى معسكر القاعدة العربية، وربما تكون معامراتنا في فعل ذلك هي خروج عن موضوع لورنس ورفاقه وذلك من أجل توضيح التبع الذي كانت فيه الحملة عن المكان الذي تجري فيه بقية الحرب العالمية.

بعد فترة قصيرة من لقائي بلورنس في القدس، وأثناء تناول طعام الغداء مع الجنرال ألبي ودوق كونوت Connaught، جاء في الحديث ذكر اسم عالم الأنار الذي أصبح جندياً. دفعني حب الاستطلاع والفضول إلى سؤال القائد العام عن السبب في إبقاء أخبار الثورة العربية وأعمال لورنس البضولية أمراً سرّياً. أجابني بأنه من الأفضل ألا نكثر من التحدث في الموضوع، لأنهم يأملون بأن عدداً كبيراً من العرب الذين جندوا إلزامياً في الجيش التركي سيهجرونه وينضمون إلى جيش الشريف حسين لتتال جزيرة العرب استقلالها. إنهم يحاقون أن يأخذ عرب سوريا وفلسطين وبلاد الزرافدين المجندين في الجيش التركي فكرة خاطئة بأن الحلفاء هم وراء الثورة في الحجاز، وبالتالي يمكن أن يعتقدوا بأنها ليست ثورة وطنية. لهذا السبب حرص الحلفاء على أن تبدو الحملة بصورتها الحقيقية كحركة عربية مستقلة. ولكن بعد نجاح جهود لورنس قال ألبي إنه لم يبق من حاجه نكنم الأخبار كتماناً تاماً، وأضاف أنني إن كنت مهتماً بما يحدث في جزيرة العرب فيكون من دواعي سروره أن يضمني إلى جيش الشريف

حسين حتى أتمكن فيما بعد من إخبار العائِم عمّا فعله العرب للمساعدة في كسب الحرب الكبرى.

كان ذلك متوافقاً مع ما كنتُ أفكر فيه كثيراً، أي طلب الإذن بالانضمام إلى الجيش، لكن تم تحذيري بإمكانية رفض القائد الأعلى للأمر بسبب التمزّية التي أحيطت بها الحملة. لهذا لم أضع الفرصة واغتنمتها للذهاب إلى المكان الذي سأحصل فيه على مغامرة العمر بكل تأكيد. أخبرونا أنه من المستحيل القيام بالرحلة من فلسطين إلى جزيرة العرب برّاً، وفي أصعب الحالات يمكن فعل ذلك بالمرور ضمن الأراضي التركية منكربين. لم يكن لدينا الوقت ولا الميل ولا المعلومات الضرورية عن البلاد واللغة للتفكير في هذه المحاولة، لهذا اضطررنا إلى Mr. Chase زميلي النشأ، وعدت إلى مصر لاستشارة رؤساء المؤسسات العربية في القاهرة. وهناك أخبرونا بما يلي:

«بإمكانكم الوصول إلى العقبة بواسطة مركب نقل البضائع، لكن المكان، باستثناء تمبكتو، هو من أبعد الأماكن في العالم. لن تجدوا حمالين للفنادق على الرصيف لاستقبالكم، ويجب أن تقنعوا بقطعة من المرجان كوسادة وبشجرة نخيل كمأوى».

في فترة ما قبل الحرب كان من الممكن لسفينة شراعية عائدة من بورنيو أو جزر سليمان بحمولة من جوز الهند، أن تصل طريقها في العاصفة فتقترّب من خليج العقبة، وفيما عدا ذلك من الساميات النادرة، لم يقم أحد بزيارة المكان منذ ألف عام.

«لن تجدوا ما نأكلونه سوى الخبز غير المختمر والتمر وربما بعض الجراد المجفّف». كانت تلك الملاحظة التي أبدّاها أحد الجنرالات، وباء عليه قمتا بشراء شيء من سلع الزّاهية من بينها خمسين لوحاً من شوكلاتة الحليب. كما حذرني كولونيل قاتلاً بجزل: «إذا كانت حياتكم تهتمكم فخذوا معكم الكثير من السجائر للبدو». لذلك عبأ كل فجوة من معدّاتنا بالسجائر الرّخيصة التي تساوي ثقلها ذهباً عند الضرورة. في اليوم الذي وصلنا فيه إلى جزيرة العرب سجّل ميزان الحرارة درجة تقارب درجة ذوبان الشوكولاتة، وعندما فتحت حقيبتي معدّاتي وجدت كتلة شبه سائلة

من الرصاص وأنواع الثقاب والتجائر والأقلام والدفاتر والشوكولاتة.

في طريقنا إلى جزيرة العرب سلكنا طريقاً ملتوياً وأبحرنا مسافة ألف وخمسمئة ميل في النيل إلى قلب أفريقيا ثم إلى الخرطوم، وعبرنا صحراء الثوبة لمسافة خمسمئة ميل ووصلنا إلى بورسودان على البحر الأحمر حيث أملنا بأن نعثر على مكان لنا في أية سفينة شحن.

كانت محطتنا الأولى هي الأقصر حيث استقبلونا استقبالاً حافلاً لم يحظَ بمثله تبدي روز قلت يوم مرّ بالأقصر في عودته من رحلة الصيد في شرق أفريقيا. احتشد حولنا عددٌ لا يحصى من المرشدين الضامرين الذين نرقبوا السنين طويلة وصول الشياح الأميركان. كان استقبالنا أشبه بالمعركة، ثم نجح المبعوثون من فندق الأقصر سحباً إلى عربة مصرية من الطراز القديم، وانطلقنا نتميل عبر الشوارع التي كان على جانبيها دكاكين للشياح مهجورة، بينما كان بقية الحشد يصيحون ويدورون حولنا بما يشبه رقص الدراويش.

لم يفسد رحلتنا في اليوم التالي إلى طيبة Thebes ذات المئة بوابة ومعبد الكرنك Karnak وأضرحة الملوك، سوى قصة بائسة قصها علينا دليلنا قائلاً: «لم يعد الشياح الأميركان يأتون إلى هنا ونحن الأدلاء نكاد نموت من الجوع». وأخذ العربي المسن بنوح بحزن قائلاً: «إنني أعمل دليلاً منذ خمسة وثلاثين عاماً، ليساعدني الله، وإن الأميركان هم وحدهم الشياح الحقيقيون أما الإنكليز والألمان والفرنسيون فإنهم ينظرون وفاتهم في عذّ فروشهم. إذا رأى الأميركي شيئاً يريد به بآل بكم هذا؟ فتخبره حسن الثمن، والحمد لله مهما يكن الثمن مرتفعاً يقول: «حسنًا، لفته». ثم قال متباهياً: نحن كبار الأدلاء متخصصون بالأميركان، وقد كنت قبل الحرب لا أُرسي بخدمة أي سائح غير أميركي كما يفعل الصياد الذي لا يكثرث للأفيال الصغيرة عندما يجد الكثير من متوفرة». ثم يضيف بصوت متضرع: «لماذا لا يوقف الرئيس ويلسون الحرب؟ لماذا ترسلون، أيها الأميركان، الأموال والطعام للأرمن لئلا نكنكم لا ترسلون شيئاً للأدلاء المصريين الفقراء الذين يتضورون جوعاً؟».

في أول أمسبة لنا بعد وصوتنا إلى الخرطوم، كنا نتعشى مع رئيس قسم المخابرات المركزية الإفريقية (في معظم رأس فرس النهر) عندما لاحظت فجأة أن وجهه قد شحب لونه. ولما ألقيت نظرة على السماء بجهة الشرق عرفت السبب. كان هناك جدار أسود صخيم يتجه نحو الخرطوم وكأنه سلسلة جبال تتحرك نحونا. إنها الهبوب المفزع، وهي عاصفة رملية أفريقية هائلة. انفضّ حفل العشاء بختة، وأسرع الضيوف إلى منازلهم. وما كان مني إلا أن ففرت على حمار كان بانتظاري واندفعي مسرعة إلى فندق تشارلز غوردون الذي يعد نصف ميل.

كانت ليلة رائعة بضئها القمر مع نجوم متلألئة بجهة الشمال والغرب والجنوب، أما بجهة الشرق فكانت أرى جبل الزمل يتحرك نحوي بعنف، بدا وكأن يوم القيامة يقترب. وبعد فترة قصيرة أصبح على مسافة بضعة ياردات، ثم ما لبث أن انفضّ فوقنا. أخذ الزمل الطائر يلسع وجهي كالإبر ويعمي عيني. انحيت فوق رقبة دابتي الصغيرة عليّ أتمكن من مقاومة العاصفة قدر الإمكان، لكن ذلك كان كل ما استطعنا القيام به لتبقى طريقنا عبر كتلة الزمل الدوارة لنصل إلى الفندق. كانت الحرارة في الداخل لا تطاق، فحاول الجميع التوم والتوافد مفتوحة، فكنا مهذدين بأن نُدمن مع أسرتنا تحت الزمال. وعندما أغلقت التوافد أصبح الجو خانقاً واستمر الزمل بالاندفاع عبر الشقوق. نارت الرياح لمدة ساعات، ولم يبق منزل في الخرطوم لم تخترقه الزمال. لقد شهدت الزوابع وسيل المقطر والعاصف الثلجية القطبية والرياح العاتية في المحيط الجنوبي والرياح الموسمية والأعاصير، لكنها كلها لا تعدل رياح الهبوب هذه. في ألاسكا، عندما يمكث القادم الجديد، أو چيچاكو cheechacko، في أقصى الشمال خلال فترة الشتاء القاسي يصبح كالخميصة ويُقبل في رابطة الأخوة لرواد القطب الشمالي. في السودان هناك قول مشابه أن من ينجو من الهبوب يصبح بوكو أفريكان Pucko African. لكن الحرارة التي تبلغ سبعين تحت الصفر في كندا أفضل من حرارة مئة أثناء هبوب السودان.

بعد ظهر يوم من الأيام اصطحبني ممثل من مكتب المخابرات البريطانية، بعداً

عن الخرطوم مسافة بضعة أميال، لزيارة «أرفع آثار مكانة في السودان». لقد أصبح الناس أغنياء بعد الحرب لدرجة أنهم دفعوا بيع محصولهم من الحبوب، والذي كان الجبس في فلسطين وجزيرة العرب بأمن الحاجة إليه أبدى رغبتهم في زيارة هذا الشخص رفيع المقام، إذ خطر للسلطات أن زيارة رجل أجني له قد تسعده وتغير قراره بشأن بيع مخزون الحبوب، مما يدفع السكان المحليين الآخرين لأن يحذوا حذوه.

انطلقنا في عربة الحاكم، وهي مركبة مكشوفة رائعة تجرها خيول بيضاء جريئة. كان سائقنا رجلاً مضطرباً تبدو في عينيه نظرة الذعر، وكان يحمل مكنسة من الشعر المعجد مينة بشحم الحروف ونها أسياخ خشبية تبرز من كل زواياها. انطلقنا نعدو عبر الصحراء إلى قرية بزي، حيث وجدنا الشريف يوسف الهندي، الرجل الجليل، يتظرنا عند بوابة قصره الطيني. كان الشريف رجلاً عربياً متميزاً طويل القامة نحيل الوجه ذا عيين منومتين، يلبس صندلاً وثوباً من الحرير الأخضر والأبيض وعمامة خضراء. قادنا إلى حديقته ودعانا لتسمرض أغرب مجموعة من المشروبات رأيناها في حياتي. كان هناك أنواع تتدرج من عصير الزمان إلى شراب البرقوق، ومن ماء الورد إلى عنق الحصان horse's neck. كانت متدرجة الألوان من البنفسجي إلى الرمادي الداكن. كانت تقدم في أوعية متنوعة من الأفداح الزجاجية إلى الكؤوس الفضية. لحسن الحظ، تقتضي العادات أن تتناول رشفة صغيرة من كل نوع، وإلا لكنت التهبجة مأساوية إذ كان للعديد منها طعم لاذع.

أذكر في تلك الزيارة سلسلة من المفاجآت كانت أولها جمان الحديقة داخل الجدران الطينية البشعة لقصر الشريف. أما الثانية فكانت السوائل المنعشة الموضوعة أمامنا. لا بد أن لدى الشريف يوسف الهندي في قصره جنباً من قصص ألف ليلة وليلة يمزج له المشروبات. حتى في شبابه، عندما أوكّل إلي تقطيع مؤتمر الإخاء الجامعي الوطني، لم يطلب مني أن أخوض تجربة شراب كالتي صادفتها في واحة الشريف يوسف الهندي. وجاءت المفاجأة الثالثة عندما ذهلت برؤية منزله من الداخل ونحن

نعمه إلى شرفة مغربية قريبة من السطح حيث وجدنا مجموعة أخرى من المشروبات. لكن ذروة المفاجآت كانت لهذا الاكتشاف أن مضيتي لم يكن طبيماً وساحراً أفريقياً، بل رجل عليم ذا معرفة واسعة. كانت مكتبته تحتوي على الترجمات العربية لمحاضرات مستر لويد جورج ولورد بلفور ونودور روزفلت وودرو ويلسون. في الحقيقة وجدت أن هذا الرجل السوداني الجليل يعرف عن بلادي أكثر مما أعرف.



تحدثنا في أمور الدين، وتأثرت لروح السامع لديه. قال لي: «أعتقد، كما يعتقد كل المسلمين المثقفين، أن المبادئ الأساسية لكل الديانات العظيمة في العالم، اليهودية والمسيحية والبوذية والإسلام، هي نفسها؛ أي لا إله إلا الله وأنه هو العلي؛ وأن علينا أن نتقبل آراء الآخرين؛ وأن على كل الناس أن يعيشوا معاً كإخوة وأن نتعامل مع الآخرين كما نحب أن يعاملنا الآخرون».

لم يكن من الصعب فهم لم يُعد الشريف يوسف الهندي رجلاً ذا مكانة رفيعة بين أبناء بلده النجيلة أنصاف المتعلمين. كانت تصرفاته الملكية وقاره وهيبته وصوته الموسيقي وعينه اللامعتان الموثقتان وحكمته، كل ذلك كان من شأنه أن يميزه في أي بلد. إنه ليس حبشياً بل هو من قبيلة قريش التي ينتمي إليها النبي محمد.

إنه عمل مُربح حقاً أن تكون رجلاً حليلاً في السودان. يمضي الشريف يوسف الهندي معظم وقته وهو يطلق أسماء نلمو لودين. عندما يولد الطفل يأتي والده راكضاً إلى الشريف فيلقي بنفسه عند قدميه ويقول:

«أيها الشريف، ما هو الاسم الذي يجب أن أسمى ابنتي به؟»

فيجيب الرجل الجليل:

«انهض أيها الرجل النعز من. اذهب الآن وخذ إلي في الغد».

وعندما يعود الأب في اليوم التالي يقول الشريف:

«الحمد لله رأيت انتسي محمداً في المنام وقال لي إنه سيكافئك على إيمانك
وسيمنح ابتلك المباركة اسم ابنته، فاطمة، تجنيه من فضلك!»،

من الخرطوم عبرنا صحراء التوبة إلى بورسودان على البحر الأحمر. وهنا وجدنا ما كنا
نتمناه؛ سفينة بخارية متجهة إلى ساحل جزيرة العرب. كانت قارباً متهدماً لتحميل البضائع،
نم نقلها من الخدمة الساحلية البريطانية الهندية إلى البحر الأبيض المتوسط، حيث نجت
خلال السنوات الأولى من الحرب من أحداث عصبية، وكانت هدفاً لغواصات الفيصر.
كان على مننها، بالإضافة إلى بنا، مئتان وستة وعشرون خروفاً سودانياً، ومئة وخمسون
حصاناً وبغلاً من أميركا وأستراليا، وسبعة وستون حملاً من الحبشة، وثمانية وتسعون فارساً
من الجيش التركي، واثنتان وثمانون عاملاً من فلاحي مصر، وأربعة وثلاثون اسكتلندياً،
وسنة ضباط بريطانيين، وطائرتان باليتان. وكان الطاقم مؤلفاً من الهندوس والجوايين
والصوماليين والبربر والهمج. أما الزبان فكان رجلاً اسكتلندياً بديناً مرحاً اسمه روز. أشك
كثيراً لو كان للكابتن كيد Captain Kidd. في أبيح أيام الفرصة في الكاريبي، أن يبحر
بمثل هذا الخليط من البضائع والأشخاص.

عزل ذوي الجنسيات المختلفة أنفسهم في مستعمرات عرقية صغيرة، وكانوا يعدون
طعامهم الخاص في أماكن مختلفة من ظهر السفينة. من المستحيل تخيل الحالة،
وكذلك الرائحة، التي أصبحت عليها السفينة أوزاردا Ozarda بعد عدة أيام من
إبحارها. كان هناك بعض السودانيين من صحراء التوبة، حيث كان من الصعب عندهم
الحصول على الماء الكافي للشرب ناهيك عن ماء الاستحمام؛ فكان بعضهم مقن
لم يحصلوا على حمام حقيقي طوال حياتهم. لكن كان هناك واحد منهم أطلق عليه
الاسكتلنديون لقب بُرت المستحم Bathing Bert. فقد كان يصبر على الاستحمام
بواسطة الدلو خمس مرات في اليوم.

أما العنّال المصريون، فقد كانوا يسألونا طوال الوقت برقصاتهم الرائعة. لم يكن
هناك مكان يتسع لرقص الجميع معاً، فكانوا يتناوبون في ذلك، وكان بعضهم يرقصون
حتى يخرّوا على سطح السفينة من الإنهاك.

لم يكن هناك مكان لنوم الركاب، لذلك اضطروا للنوم على ظهر الباخرة مع الحمير والبغال. كنت أنام بجانب بقلة بلون الفئران من هانيسال، في ولاية ميزوري، بلد مارك توين. يبدو أنها كانت كثيرة النشأوم، إذ كانت نجيش في مخيلتها الأفكار السوداء التي أفضت مضجعها وحرمتها وحرمتي معها لذيد النوم، ولو قضى مارك توين ليلة بجوارها، لفقد روح الفكاهة لديه^(١).

كان على من السفينة ضابط بريطاني متجه إلى الخليج العربي، كان يقص علينا رواية حتى يصيبنا الملل لدرجة أنموت. سأروي لكم إحدى قصصه ليس لأنني أظنها مضحكة بل لأنني أعلم أنها غير مضحكة ولأنني أريد أن أطلعكم على شيء مما كنا مجبرين على تحمله. قال إنه كان خارجاً نصيد الأسود في أفريقيا الوسطى، ولم يشك أحدنا بذلك إذ كان قد سافر في أنحاء العالم من كامشاتكا Kamschatka إلى الكامبيرون، في أحد الأيام ففر نحوه أسد من شجيرة لكنه استطاع نغاده في الوقت المناسب وجعله يبعد عن رأسه بجهة اليمين، مَرَّت بضع دقائق، ولما فشل الأسد في العودة نحوه زحف على بطنه ليكتشف الأمر. وعندما وصل إلى مكان مكشوف نظر بحذر من خلال الأعشاب الطويلة فرأى الأسد نفسه يتدرب على القفز المنخفض. خطر في بالنا مرة أن نقدّم الشجائر للفازين من الجيش التركي، الذين لم يكونوا يفهمون سوى بضع كلمات من اللغة الإنكليزية، مقابل الاستماع إلى قصصه. كانوا يضحكون عندما يضحك مما سُرّه كثير أو يالتأكد أزيح عن عاتقنا حمل ثقيل.

عندما وصلنا أخيراً إلى ميناء الملك سليمان عند رأس خليج الغُنبَة، وهو من الموانئ القديمة المهجورة منذ عصور طويلة، رست سفيتنا على بعد ميل من الشاطئ. نزلنا من السفينة وقفزنا نحو حدود أشجار التّخيل في سفح جبال الملك سليمان، ثم نزلنا الحمير والبغال. حدث أن بعضاً غاضباً رفس حماراً من على ظهر السفينة. ظهرت في الحال سمكتنا فرش وشرعنا في الهجوم عليه. أمسكت واحدة بقائمه الأمامية و أمسكت الأخرى بعجز الحمار المسكين وشقناه إلى نصفين. أخبرنا ربان السفينة

(١) نشرنا في هذه السلسلة كتابه، *Innocent Abroad* (أبرار في العرة).

بأن أسماك القرش في البحر الأحمر أكثر منها في أي بحر آخر على ظهر الأرض.

استقبلنا على الشاطئ المرجاني آلاف من اليدو الذين حيّونا بإطلاق الرصاص من بنادقهم ومسدساتهم. بدأ إطلاق الرصاص ونحن ما نزال بعيدين عنهم، فاعتقدت ومستر تشايس Mr. Chase أننا وصلنا أثناء حدوث معركة ما. إن منظر الشاطئ المرجاني الذي تحفه أشجار النخيل لهو منظر جميل مليء بالألوان، وكذلك منظر اليدو وقد أطلقوا الحاصم وارتدوا الثياب الأخاذة وغطاء الرأس الغريب، وحملوا الأسلحة من مختلف الأشكال والأنواع، الحديثة منها والقديمة، فبدأ المشهد وكأنه موكب شرقي غريب. نعم إنه مشهد غريب، وكان هؤلاء بعضاً من الفرسان العرب العصريين للكلو لوبيل لورنس.

لقد تحول ميناء الملك سليمان، الذي كان مهجوراً، إلى معسكر عظيم، ونكدست أكوام ضخمة من المعدات فوق الرمال تحت أشجار النخيل. استقبلنا بعض الضباط البريطانيين، الذين أوكلت إليهم مهمة استقبال المؤن في العقبة، وساروا بنا إلى خيمة قرية حيث رونا ظمأنا، وبعد ساعات فلائل وصل لورنس إلى وادي يضم عائداً من إحدى حملاته الغامضة.

لن تجد في حياة لورنس أثناء إقامته في الصحراء يومين متماثلين، لذلك من الصعب وصف يومه الاعتيادي، لكن الزويتين في معسكر القيادة للجيش العربي، عندما لا يكون هناك غزو ghazu، يتبع برنامجاً كهذا. ينهض الجنود من نومهم في الساعة الخامسة صباحاً عندما تسقط أول خيوط الفجر على القسم المسننة لجبل سيناء، فيصعد إمام الجيش إلى كتيب دمل مرتفع ويؤذن لصلاة الفجر. كان شاباً ذا صوت قوي يوقظ كل إنسان أو حيوان في العقبة، وحالما ينهي يقف إمام خاص بالأمبر فيصل أمام باب خيمته ويؤذن للفجر بصوته العذب: «تبارك الله الذي يولج الليل في النهار».

كانت الرحالة المشهورة في سوريا مس غروتروديل، التي عملت في دائرة الاستخبارات في الشرق الأدنى إبان الحرب العالمية بالرغم من كونها امرأة، قد كتبت وصفاً حياً للشعور الرائع عندما ينهض المرء مبكراً في الصحراء إذ قالت: «أن تستيقظ

عدد الفجر في الصحراء هو أشبه بالاستيقاظ في قلب حجر الأوبال. شاهد الصحراء في صباح صافٍ ثم مُت إن شئت^١. يمكن حقاً تأليف كتاب معنع من المغامرات والرومانسية عن تجربة يسر بل أثناء الحرب في صحراء بلاد الرافدين^{١١}.

بعد الانتهاء من الصلاة بوضع دقائق بجيني فنجان من القهوة المحلوة بحمله إليّ أحد خدام فيصل. كان الأمير يحتفظ لنفسه بخمسة من الشبان الاحباش الأقوياء، عيّد بعدون قطة في الوفاء، لأن الأمير لم يكن يعاملهم كعبيد. وعندما يرغب أي واحد منهم في بعض المال يأمره فيصل بأن يأخذ ما يلزمه من كيس الذهب. لم يكن يعترض مهما أخذوا، وبهذا لا تحذّثهم أنفسهم بالسرقة أبداً.

في الساعة السادسة اعتاد لورنس تناول طعام الفطور مع فيصل في خيمة الأمير، وكانا يفترشان سجادة عجمية على الطريقة البدوية. كان طعام الفطور في الأيام المحظوظة مؤلفاً من خبز عجيين كثير الطبقات وقد أكثروا فيه التوابل والبهارات ويطلقون عليه اسم «كعك مكة»، وذرة مطبوخة، وبالطبع هناك التمر الذي لا يمكن الاستغناء عنه. وبعد الفطور تُقدّم أكواب زجاجية فيها شاي محلى. بعضي لورنس وقته إلى الساعة الثامنة في مناقشة الأحداث التي يحتمل وقوعها أثناء النهار إمامع الضباط البريطانيين أو مع القادة العرب البارزين. وفي الوقت نفسه يجتمع فيصل بسكرتيره الخاص، وفي بعض الأحيان يجلس مع لورنس في خيمته يتحدثان في أمور خاصة. في الساعة الثامنة يعقد فيصل ديواناً يلتقي فيه بأفراد قومه. كان من عادة الأمير أن يجلس في طرف الخيمة على سجادة كبيرة مبسوطة على منصة. ويجلس أصحاب الشكاوى وذوو الحاجات أمام الخيمة فيكونون نصف دائرة حتى ينادي عليهم. وكانت كل القضايا تسوى بسرعة ولا يُترك أي منها.

أذكر أنني كنت ذات يوم في الخيمة مع لورنس أحضر جلسة من هذه الجلسات، عرايتُ شاباً بدوياً قد سُحب داخل الخيمة بتهمة أن له عينا صائبة. لم يكن فيصل موجوداً فترأس لورنس الجلسة وأمر المجرم بالجلوس في الطرف المقابل من الخيمة

(1) ولقد نشرنا في هذه السلسلة كتابها الممتع «The Desert and the Sown» العامر والغمر.

والنظر إليه، ثم أخذ يحدّق في عينيه مدّة عشر دقائق وبهذا وكأنه عينيه الرّفاوين قد أحدثتا ثقباً في روح المتهم. وفي النهاية صرّف البدوي وقال إنّ الروح الشريرة قد طردت منه بفعل الله.

في يوم آخر جاء أحد حراس لورنس إليه شاكياً بأن واحداً من رفاقه يملك عيناً شريرة وقال: «يا بحر العدائنة، نظر ذاك الرّجل إلى جملي فأصبح أعرج من فوره». حلّ لورنس المسألة بأن أعطى الرّجل المتهم بالعين الشريرة الجمل الأعرج وأعطى جمل المتهم لصاحب التهمة.

يخشى البدو العيون الرّقاء. وكانت عينا لورنس أشد زرقاً من مياه البحر الأبيض المتوسط، لذلك كان البدو يعتقدون أنه رجل غير عادي. ألقا عيون البدو فكلها تقريباً كالمخمل الأسود.

عندما يكون فيصل موجوداً، كان لورنس يتخفى ويمتنع عن فضّ النزاعات. فهو لم يكن يطمح إلى أن يصبح حاكماً لجزيرة العرب، وكان يعلم أنه من الأفضل للمستقبل حسم المنازعات والفصل في قضايا العرب عن طريق واحد منهم. في الواقع لم يفهم لورنس بأيّ عمل يستطيع فيه تمويه رجل عربي قادر على تولّي الأمر بنجاح.

في الساعة الحادية عشرة والتّصف كان فيصل ينهض عادة ويعود إلى خيمته حيث يتناول طعام الغداء. أمّا لورنس فكان يقضي حوالي نصف ساعة يطالع كتب الفلسفة أو الشعر الإنكليزي. كان يحمل معه ثلاثة كتب هي «كتاب أوكسفورد للشعر الإنكليزي»، و«موت آرثر» لمالوري Malory، وكتب أريستوفانس التي تدلّ على ذوقه للكاثوليكية.

كان طعامه خميغاً عند الظّهر، وهو مؤلف من انجوب المظبوخة والعدس والمطير المعجوز على الرّملي (الملّة)، والأرز أو حلوى العسل. كنّ الوحيد الذي أتناول الطّعام بالملقعة أمّا لورنس فكان يجاري العرب في الأكل بالأصابع. بعد الغداء كانت هناك فترة من الحديث العام يختم ساعة الغداء. ثم تقدّم لنا القهوة المرة الذّاكنة

والشاي المحلي، عند شرب الشاي والقهوة يصدر البدوي أصواتاً قدر المستطاع، وهي الطريقة المتهذبة لتظهر أنك مستمتع بشرايك. ثم يقوم الأمير بإعلاء رسائل على كاتب عربي، أو يأخذ قطعاً من الراحة، بينما يذهب لورنس إلى حبيته الخاصة ويتربع على سجادة صلاة ويفرق في كتابات وردزورث Wordsworth أو شيلي Shelley. وإذا كانت هناك قضايا للفصل بها يعقد الشريف لورنس والشريف فيصل مجلساً آخر في خيمة الاستقبال. أما بين الخامسة والسادسة بعد الظهر فكان فيصل يجتمع بالخواص وكان لورنس يجلس عادة معه، أما الحديث فكان يدور حول الاستطلاعات التليلية والعمليات العسكرية القادمة.

في تلك الأثناء تكون النار متقدة في أكوام من الشوك وراء خيمة الخدم، حيث ينحرون خروفاً آخر باسم الله الترحمن الرحيم ويدفون يشيه. وفي الساعة السادسة تأتي وجبة المساء التي تشبه وجبة الغداء لكن مع قطع أكبر من لحم الضأن فوق تلال الأرز، ينلو ذلك أكواب من الشاي حتى يحين موعد الترم الذي لم يكن له وقت محدد لدى لورنس. في الليل كان يفرد بالقيادة العرب فيتحدث إليهم طويلاً، وفي بعض الأحيان كان فيصل يمتنع أصحابه بقصص مغامراته في سوريا وتركيبه خلال التمانية عشر عاماً التي أمضاها عائلته في رعاية الباب العالي، وتحت عين السلطان التي لا تنام.

كنا نحن أيضاً نقرأ أثناء الليل. وقبل مغادرتي لمصر كنت قد حصلت على نسخ مستعملة لسجلات بعض من الرحالة المشهورين في جزيرة العرب كيوركهارت وبرتون وداوني. وبإستثناء كتاب داوني الرائع لم أجد كتاباً في مجموعتي العشوائية يضاهي بروعة كتاب العامر والغامر⁽¹⁾ للآنسة جرنوديل. زاد اهتمامي به بفضل القصص التي كان الكولونيل لورنس يرويها لي عن مغامرات الكتابة أثناء الحرب. لقد تجولت تلك المرأة البريطانية الرائعة في الأماكن الثانية من الشرق الأدنى لعدة سنين

(1) هكذا سقينا بالعربية كتابها الممتع *The Desert and the Sown* وشربناه في هذه السلسلة مؤخرًا.

سبقت الحرب. كانت مفكرة وعالمية وليست مجرد رحالة تسمى وراء سوء السمعة. لقد قطعت مئات الأميال، مع مرافق عربي أو اثنين، على طول حدود الصحراء العربية الكبرى، وزارت القبائل البدائية ودرست لغتهم وعاداتهم. كان اطلاعها واسعاً لدرجة أن فرع المخابرات البريطانية طلب منها أن تقبل منصباً إدارياً، ولعبت دوراً لا يستهان به في كسب صداقة بعض رجال القبائل المتعطشين للدماء الذين يسكنون وادي دجلة والفرات. وفي كتاب «العامر والغامر» نلقي بسبيل الكثير من الضوء على حياة سكان البادية.

«إن حظ الرجل العربي متقلب كمحظ المقامر في البورصة. يكون في أحد الأيام من أغنى الأغنياء، وقد لا يملك في صباح اليوم التالي لاناقة ولا جملاً. إنه يعيش حالة من الحرب، وحتى في حال إبرام المعاهدات مع القبائل المجاورة، فلا يأمن أن تغزوه ليلاً عصابة من مئات الأميال، وأذكر على سبيل المثال قبيلة غير معروفة في سوريا هي قبيلة بني عواجي Awajeh التي سطت منذ عامين على الأراضي الواقعة إلى الجنوب انشرف في من مدينة حلب بعد أن قطع أفرادها، كل اثنين على جمل واحد، ثلاثمائة ميل في الصحراء من مقرهم فوق بغداد لينهبوا القطعان ويقتلوا أعداداً كبيرة من الناس. لقد دامت هذه الحال على مدى ستين طويلاً، ومن يقرأ السجلات الأولى للصحراء انذخيلة يجد أنه أمر مغرق في القدم، وتكن الغريب أنه خلال هذه القرون لم يتعظ العرب من تجاربهم. العربي لا يشعر بالأمان أبداً، لكنه يتصرف وكأن الأمن هو خبره اليومي. يقوم بنصب مخيمه الواسع المؤلف من عشر أو خمس عشرة خيمة فوق أرض واسعة لا يمكنه درء الخطر عن نفسه فيها.

«إنه بعيد جداً عن أصحابه فلا يمكنه طلب النجدة، بعيد جداً فلا يمكنه جمع الخيالة للحاق بالغزاة، الذين ينسحبون ببطء حتماً بعد أن أنقلوا بالقطعان المسلوكة، وتحقق السجاح بمطاردة مفاجئة. وبعد فقدانه لكل ممتلكاته المادية يتجول في الصحراء شاكياً فيعطيه أحد الرجال قطعة أو اثنين من قماش منسوج بشعر الماعز، ويعطيه آخر وعاءاً لصنع القهوة، ويهديه ثالث جمللاً، ورابع يضع أغنام، إلى أن يجد سقفاً يؤويه

وحوانات تكفي لبرد الجوع عن عائلته. هناك عادات جيدة عند العرب كما يقول
 نمرود، فيمكنك الرجل لشهور، وربما لسنوات، إلى أن تحسن الفرصة فيهم خيانتو
 فيبته مع حلفائهم ليستعيدوا كل قطعائهم السلبيّة وزيادة. ويدخل العداء طوراً آخر
 الحقيقة هي أن الغزو هو الصناعة الوحيدة والرياضة الوحيدة المعروفة في الصحراء.
 «كصناعة، تبدو للعقل التجاري مرتكزة على مفهوم خاطئ لقوانين العرض
 والطلب، أمّا كرياضة فهناك الكثير مما يقال بهذا الصدد. تجد روح المغامرة ضائتها
 فيها، ويا يمكنك تخيل الركوب عبر الشهل ليلاً، وسرعة الأفراس عند الهجوم، وفرقة
 البنادق الرائعة، والابتهاج باكتشاف أنك رجل جيد عندما تعود إلى مضاربك محملاً
 بالغنائم. إنها أفضل شكل من أشكال الفانتازيا كما يقولون في الصحراء، مع إضافة
 نكهة من الخطر إليها. لا يوجد خطر كبير في القضية، بل يمكن الحصول على منعة
 حقيقية دون إراقة الكثير من الدماء، ونادراً ما يميل العربي العازي إلى القتل. إنه لا
 يرفع يده أبداً في وجه طفل أو امرأة، وإذا حدث وقتل رجل ما يكون ذلك بطريقة
 الخطأ، بما أنه ما من أحد يعلم المصير النهائي لرياضة البندقية بعد إطلاقها. هذه هي
 نظرة العرب إلى الغزو».



حادث نحطّم في الصحراء



لوئیل توماس

الفصل العاشر

معركة سبل الحسا

بينما كانت القوات الحجازية تدفع شمالاً من رأس خليج العقبة، انضمت إليها فيلكتان من أفضل القبائل المحاربة في جزيرة العرب هما قبيلة ابن جازي الحويطات وبنو صخر، وفي الوقت نفسه جاءت قبائل جبهة وعتيبة وعنزة على ظهور الجمال لتنضم إلى فيصل ولورنس.

ذهب لورنس إلى فلسطين مراراً بعد سقوط العقبة ليجتمع بالنبى. ومنذ ذلك الحين والإنكليز في فلسطين وجيش الملك حسين في تعاون مستمر.

قسم الجيش العربي إلى قسمين مختلفين، يُعرف الأول بالنظاميين، والآخر بغير النظاميين. النظاميون كلهم من المشاة ولا يزيد عددهم عنى عشرين ألفاً، وكانوا إما من الفارين من الجيش التركي أو من العرب الذين كانوا يقاتلون تحت راية السلطان، ثم تطوعوا للانضمام إلى قوات الملك حسين بعد وقوعهم أسرى في يد الإنكليز في بلاد الرافدين أو في فلسطين. تم استخدامهم أولاً في حماية المواقع التركية القديمة التي استولت عليها حشود الشريف. ثم، بعد أن تدربوا بشكل جيد، استخدموا كمحموعات للصاعقة مهاجم المواقع المحصنة. وكان هؤلاء الجنود تحت قيادة رجل إيرلندي هو الكولونيل P. C. Joyce جويس، الذي لعب دوراً مهماً في الحملة العربية بعد لورنس مباشرة بين غير العرب من القواد. أما غير النظاميين، الذين كانوا أكثر عدداً من النظاميين، فكانوا من البدو ويمتطون الجمال والخيول. وبالإجمال، أصبح لدى لورنس أكثر من مئتي ألف مقاتل.

نصّور معركة سبيل الخشنا أنْصْرِفَةُ التي قاد بها قوات الملك حسين. أرسلتُ تُرْكِيَّة فوجاً عسكرياً بقيادة حامد فخري بك، مؤلفة من مشاة وخيالة ومدفعية ثقيلة وفرقة مزوّدة بمدافع رشاشة، أرسلتها عبر الخط الحديدي الحجازي من الكَرْك، الواقعة في الجنوب الشرقي للبحر الميت، لاستعادة الطُفَيْلَة التي كانت قد سقطت في يد الجيش العربي. كانت هذه الكتيبة التُركِيَّة قد سُكِّلت على عجل في حوران وعَمَّان وكانت تنقصها المؤن.

عندما التقى الأتراك بالبدو الذين كانوا يسبِّرون في الطليعة عند سبيل الخشنا، قاموا بردهم على أعقابهم إلى الطُفَيْلَة. وكان لورنس قد وضع حامية صغيرة على الضفة الجنوبية من الوادي الكبير للدِّفاع عن القرية، ويتولّى أمر هائل الشَّرِيف زيد، أصغر أبناء الشَّريف حسين، مع خمسة مقاتلين من النظاميين وغير النظاميين. في تلك الأثناء أرسل لورنس معظم أمتعة جيشه في اتجاه آخر، وظن السَّكان المحليون أن الجيش العربي كان يفرّ مبتعداً.

قال لي لورنس «أعتقد أنهم كانوا يفعلون ذلك». كانت الطُفَيْلَة في حالة اضطراب وهبَّان. أخبرنا الشَّيخ دياب العوران عن الاسبياء المتزايد بين القرويين والإشاعات التي تدور حول وجود خيانة، لذلك نزل لورنس من سطح منزله قسَّ العُجْر ودخل التَّوارع المزدحمة ليتلقَّط الأخبار. كان يرتدي ملابس الواسعة مما ساعده على إخفاء شخصيته في الظلام. كان عامة النَّاس يتقدِّون الملك حسين كثيراً ولم يكونوا على مستوى عالٍ من الاحترام. كان الجميع يصيحون بدعوى، وكان في قرية الطُفَيْلَة حائنة من الاضطراب. سرعان ما أُحْلِيَت البيوت، وكانت البضائع معزومة داخل التَّوافذ في التَّوارع المزدحمة. كان هناك عرب يرتضون بخيولهم ويطلقون الرصاص في الهواء وبين أغصان شجر التَّخِيل. ومع كل بريق يصدر من بندقية، كانت جروف الطُفَيْلَة تبرز بشكل حاد وواضح في أفق السَّماء الملوَّنة.

بدأ رصاص العدو ينطأر عند الفج، وقد ذهب لورنس إلى الشَّريف زيد وأقنعه بضرورة إرسال أحد ضباطه مع رُشاشين لمساعدة أهالي الطُفَيْلَة الذين كانوا يحتلون

القمة الجنوبية من التلال. رفع وصول الزشاشين من معنويات انقرويين وهجموا من جديد. كانوا يصبحون باسم نبي الله واستطاعوا دحر الأتراك إلى نل آخر وعبر سهل صعب في وادي النخشا. استولوا على التل نكنهم وجدوا انقسم الزششي من الجيش التركي، الذي كان يزعمه حامد فخري، متعركاً وراءه تماماً.

اشتد القتال وسقط قتلى كثيرون من الجانبين. كان الإطلاق المستمر للمدافع الزشاشية والقصف القوي قد فتر من حماسة العرب. تردد زيد في إرسال احتياطي الذخيرة لديه، فركب لورنس باتجاه شمال الطفيلة طلباً للتعزيزات. وفي الطريق التقى بجند مدفعية عائدین بعد أن مات خمسة منهم وانفجر مدفع من المدافع ونفذت الذخيرة. أرسل لورنس رسائل مستعجلة إلى زيد يحثه فيها على إرسال مدفع وذخيرة وما أمكن من الزشاشات، إلى الطرف الجنوبي من السهل الصغير بين النخشا ووادي الطفيلة.

عاد لورنس بفكره إلى الخط الأمامي من التل، ورأى أن الأمور مضطربة. كان التل في حوزة ثلاثين من خيالة ابن جازي الحويطات وجماعة صغيرة من القرويين، ويمكن من رؤية العدو بشق طريقه على طول الحدود الشرقية لتلال السهل حيث كان هناك عشرون مدفعاً رشاشاً تركياً يطلق النار. كانوا يحاولون الالتفاف حول التل الذي كان بيد العرب. كان الضباط الأتمان، الذين يواجهون الأتراك، يصيحون مسار إطلاق الشظايا التي كانت تكشط قبة التل وتنفجر دون إحداث أذى في السهل الصحراوي. ولما جلس لورنس هناك بذوا بمطرون جواتب التل وقمته بشظايا فولاذية وأخذوا يحصدون نتائج باهرة. عرف لورنس أن فقد السيطرة على الموقع لن يستغرق سوى بضع دقائق. ظهرت طائرات استطلاع في السماء وساهمت في تقليل فرص قوات الشريف بفصفها من الهواء.

أعطى لورنس الخيالة كل الطلقات التي استطاع جمعها، بينما ركض المشاة من العرب عائدین إلى السهل، وكان معهم، بما أنه قد رجع من الطفيلة إلى الجروف مباشرة، فإن دوابه لم تلحق به، انتظر الخياليون خمس عشرة دقيقة أخرى ثم عادوا دون

أن يصيبهم أذى. جمع لورنس رجاله في جهة معاكسة فوق تلٍ يبلغ ارتفاعه ستين قدماً، ويشرف على التهل تماماً. كان الوقت ظهراً، وكان قد فقد خمسة عشر رجلاً ولم يتبق لديه سوى ثمانين. ولكن، بعد بضع دقائق، ظهر مئات من رجال العقيل وبعض رجاله الآخرين، يحملون مدافعاً رشاشاً. كما جاء رجل سوري، هو لطفي العسلي، بمدفعين آخرين، وبقي لورنس ممسكاً بمدفعه حتى الساعة الثالثة عندما جاء الشريف زيد بمدفعية ثقيلة ومدافع رشاشة وخمسين خيلاً ومثتين من المشاة العرب.

في تلك الأثناء، كان الأتراك قد احتلوا مواقعهم الأمامية القديمة، ولحسن الحظ كان لورنس يعمل وفق مجال دقيق. لقد زاد من سرعته بينما كان أصحابه يتسحجون بشكل عشوائي إلى المواقع المعاكسة. وبإثر ذلك وضع مدفعيته على قمة التل وأرسل الخياليين إلى المبنية ليدعم الحدود الشرقية للتل. كان هؤلاء الرجال محظوظين جداً إذ تقدموا دون أن يراهم أحد إلى أن التقوا حول الأتراك وأصبحوا على بعد ألفي ياردة منهم. وهناك ترجلوا وضربوا هجوماً على العدو، والذخان الأبيض يتصاعد من فوهات مدافعهم.

في الوقت ذاته، جاء أكثر من مئة عربي من بدو النجدي Aimi وانضتوا إلى لورنس، بعد أن رفضوا القتال في اليوم السابق، إذ لم تعجبهم كمية الغنائم التي سبغوها. لا يقاوم البدو القتال عند حدوثه، لذلك أرسلهم إلى جهة الميسرة وحفوا وراء التل الغربي للسهل إلى أن أصبحوا على بعد مئتي ياردة من خصومهم. كان التل الذي يحتله الأتراك صخرياً وعراً، وبهذا أضحي الهجوم عسيراً. كانت شظايا القذائف تصطدم بالصخور القاسية وترتد عنها بشكل مرعب مما سبب خسارة كبيرة في صفوف العدو. أمر لورنس الرجال الذين في الميسرة بأن يطلقوا دفعة كبيرة من الطلقات من مدافعهم الرشاشة الهوتشكيس Hotchkiss والفيكرز Vickers، على الأتراك الذين يقومون بتلقيح المدافع. وكانوا من الدقة بحيث قصوا عليهم كلهم ثم أمر خياليه بالهجوم على الأتراك المنسحبين في جهة المبنية، بينما تحرك هو والمشاة

(١) هكذا تبنى في الاسم كما يكتبه لويل توماس، علماً أنه لم يكن يعرف العربية مطلقاً

من النوسط إلى الأمام والزوايا تخفق بحماسة. استسلم الأتراك وأحبط هجرهم، وما كادت الشمس تميل للغروب حتى كان لورنس قد استولى على خطوط العدو وطاردتهم حتى مواقع مدافعهم في وادي النخيل. حلّ الظلام عندما تخطى رفاقه عن المتحارب بالأتراك بعد أن أنهكهم قلة التلّوم والطعام. صاح الرجال المرحفون بعبارة «الله أكبر» وهم يهرون على ركبهم ووجوههم نجاه مكّة، يحمدون الله التقدير على هذا النصر. لقد دحر لورنس كتيبة تركية كاملة، وكان من بين القتلى حامد قحري، قائد الكتيبة المهزومة.

* * *



مجلس حرب في الصحراء



الشيخ عودة أبو ثايه، روبن عود البشري
والشيخ محمد أبو ثايه، أبو البلاغة

الفصل الحادي عشر

لورنس مدقّر القطارات

لم يلعب القدر دوراً أغرب من ذلك الذي حوّل فيه خربج جامعة أوكسفورد الشاب من عالم آثار مُجدّد إلى قائد يقوم بأكثر من مئة غزوة ويلهم الملوك ويقود جيوشاً، والأدهى من ذلك، يحقّ له أن ينال بطولة العالم في فنّ تدمير القطارات.

ذات يوم كان لورنس وفرقة يسيرين في وادي إضم، ووراءه نحو ألف بدوي يمشطون أسرع جمال سبق أن جُلبت إلى نجد. كانوا يريدون أناس يد حربية يصفون فيها أعمال البطولة التي قام بها الشريف الأشقر الذي كان الجنرال ستورز قد أطلق عليه لقب «ملك العرب غير المتزوج». كان لورنس يترأس الفرقة ولا يأبه كثيراً بهذه الأهازيج التي تضعه في مصاف العظماء كأي بكر. كنا نتناقش في إمكانية كون الحضارة الحثية صلة الوصل بين حضارات بابل ونيوى وكريت القديمة. لكن تفكيره كان منشغلاً بأمور أخرى، وفجأة قطع الحديث وقال:

«أتدري، إن أحد أشد المشاهد إثارة التي رأيتهَا كان حمولة قطار من الجنود الأتراك تتناثر في السماء إثر انفجار لغم أرضي!».

بعد ثلاثة أيام انطلقت الفرقة تيّلاً باتجاه طريق الحج حيث كان هناك متنازعاً رجل من قبيلة الحويطات جاؤوا لتجدة لورنس. وبعد يومين من الركوب الشاق فوق أراضي هي أكثر جفافاً من حبال القمر، وعبر وادي يذكر بوادي الموت في كاليفورنيا، وصلت الفرقة إلى صف من التلال بالقرب من مركز سكة حديد تركي مهم يحمي بلدة معان. ثم جلى الجميع بإشارة من لورنس وتركوا أحمالهم ثم صدّوا إلى قمة أقرب تلة، ومن خلال

حروف الحجارة الرمزية نظروا أسفل منهم إلى سكة الخط الحديدي.

كان ذلك الخط هو نفسه الذي أنشئ قبل سنوات لتتمكن الحكومة التركية من المحافظة على هيمنتها على جزيرة العرب عن طريق نقل الفرق العسكرية. كما أنه سهل سفر المحتاج إلى المدينة ومكة. كان في المدينة حامية مؤلفة من أكثر من عشرين ألف تركي وكانت محصنة بشكل جيد. كان في مقدور لورنس وأصحابه أن يقتلعوا هذا الخط بأكمله متى يشاؤون، لكنهم احتاروا أن يشعروا سياسة أكثر دهاء. لذلك، عندما كانت العون تنفذ من أيدي لورنس ورفاقه، كانوا ينسللون خلسة ويفجرون قطاراً أو قطارين ويقومون بسلبهما ثم يختصون بكل ما أرسلته القسطنطينية إلى جنودها. بفضل الخبرة التي اكتسبها لورنس في هذه الغزوات، أصبحت معرفته بالمتفجرات بقوة معرفته بالآثار، وكان يفخر بقدرته الفريدة على تدمير السكك الحديدية. وكان أبنوه، من جهة أخرى، يجهلون طريقة استخدام الديناميت ولهذا كان لورنس يقوم بزرع الألغام وحده ثم يأتي باليدو ليساعدهموا في عمليات لنهب والسلب.

وبلغ من خوف المسافرين في هذه القطارات أنهم كانوا يدفعون في تذكرة العربات الأخيرة ستة أضعاف ثمن تذكرة السفر في العربات الأمامية، لأنهم كانوا يعلمون أن الأيدي انجهنمية لم تكن تصل إلا للنقاطرة والعربات الأمامية.

لقد قام لورنس بنسف قطارات كثيرة حتى أنه أصبح على اطلاع بنظام النقل والتوريدات كالأثرak أنفسهم. في الواقع كان يقوم بنسف القطارات المارة بالخط الحجازي بشكل مستمر، لدرجة أن المقاعد الدمشقية في العربات الخلفية أصبحت تباع بخمسة أو ستة أضعاف ثمنها العادي. كان هذا الازدحام في المقاعد الخلفية من القطار يعود إلى أن لورنس كان يفجر زهراات التوليب، كما كان يدعو ألغامه، تحت المحرك تماماً وبذلك يحدث التخريب في العربات التي في المقدمة فقط.

هناك سببان يكمنان وراء عدم تعليم لورنس العرب كيفية استخدام المتفجرات الحرارية، الأول هو أنه كان يخشى أن يستمر البدو بالنهب بنسف القطارات حتى بعد انتهاء الحرب. كانوا ينظرون إلى الأمر وكأنه نوع من الرياضة المسلية والبريعة في

آن معاً، السبب الثاني هو أنه من الخطورة بمكان ترك آثار أقدام على طول خط الشبكة الحديدية، وكان يفضل ألا يعمد بزرع الأنغام لرجال قد يكونون مهملين لهذا الأمر.

ربض أفراد الفرقة خلف كتل من الحجارة الرملية لمدة ثماني ساعات حتى مر عدد من الدوريات بالقرب منهم. علم لورنس أنهم يذهبون في فواصل استراحة مدتها ساعتان. في منتصف النهار، وبينما كان الأتراك ينالون قسطاً من الراحة، تسلل لورنس إلى حط سكة الحديد ومشى حافياً فوق عربات النوم حتى لا يترك أثراً على الأرض يمكن أن يراها الأتراك، ثم انتقى المكان الملائم لزرع العبوة. عندما كان يقصد نصف محرك القطار فقط، كان يستخدم رطلاً من الجيلاتين المتفجر، أما عندما كان يرغب في نصف القطار بأكمله، فقد كان يستخدم أربعين إلى خمسين رطلاً. في هذه المرة، حتى لا يخيب أمل أحد أبداً، وضع ما يزيد عن خمسين رطلاً بقليل. استغرق الأمر حوالي ساعة من الزمان لحفر حفرة بين عربات النوم ودفن المتفجرات فيها ثم توصيل سلك دقيق من أسفل الشبكة إلى فوق العمرتفع، وصولاً إلى جانب التل.

إن زرع اللغم عمل طويل وممل، قام لورنس أولاً بإزالة الطبقة العلوية من حصي الشبكة ووضعها في كيس حمله في عاءته. ثم انتزع من التراب والضخور ما يكفي لعمل صفحتي نفض بسعة خمسة غالونات، حملها إلى مسافة تبعد عن الشبكة بخمسين ياردة تقريباً وبعثرها حتى لا تراها دوريات الأتراك. بعد ملء الحفرة بخمسين رطلاً من الديناميت، أعاد الطبقة المنطحية من الحصى فوقها وسواها بيده. وكاحتياط أخير، أخذ فرشاة من شعر الجمل كنس به الأرض، وحتى لا يترك آثار أقدامه، مشى إلى الوراء لمسافة عشرين ياردة وأزال بالمكنسة كل أثر له. قام بدفن الثلث مسافة متني ياردة فوق منحدر التل ثم جلس يهدوء تحت شجيرة ينتظر بلا مبالاة وكأنه يرعى قطيعاً من الغنم. عندما قدمت القطارات الأولى بحراسها المنتشرين على أسطح العربات وفي المقدمة وبنادقهم معبأة، لم يروا شيئاً غير استثنائي سوى بدوي يجلس على سفح التل ويده عصا الزاعي.

ترك لورنس الأعجالات الأمامية لعربة المحرك تسر فوق اللغم، وبينما كان أفراد فرقة

مستلقين دون حراك وراء الصُخور، أوصل التيار إلى العبرة التاسعة. انفجرت بصوت يشبه انهيار بناء مؤلف من ستين طابقاً، وانبعثت إلى الأعلى سحابة من الدخان والبخار الأسودين. مع صوت فرقة الحديد ارتفعت عربة المحرك عن الشبكة ونحطت إلى نصفين. انفجر مرجل البخار وتطايرت قطع الحديد والفولاذ إلى مساحة يبلغ قطرها حوالي ثلاثمائة ياردة، وكادت بعض الضمايح الحديدية تصيب لورنس لكنها تجاوزته بمقدار بوصات.

بدلاً من المؤن، كان القطار يحمل أربع مئة جندي تركي في طريقهم لسجدة القوات في المدينة. نزل الجنود من العربات واندفعوا نحو لورنس بطريقة تنذر بالوعيد. كان البدو المخشبين في قمم التلال ينظرون إلى الأثر الكارثي. كان من الواضح أن الضابط التركي بشك يأخذ هذا العربي الوحيد هو الإنكليزي الغامض الذي وضعت من أجل القبض عليه جائزة الخمسين ألف جنيه. صاح بعبرة ما، وبدلاً من إطلاق الرصاص ركض الجنود نحو لورنس بنوون أخذه أسيراً، لكن، قبل أن يتقدموا أكثر من ست خطوات، سحب لورنس مسدسه الكولت ذا السبطانة الطويلة من عباءته وبدأ بإطلاق الرصاص فدار الجنود على أعقابهم ولادوا بالفرار، كان يحمل دائماً أحدث سلاح أميركي، وبروي الضباط البريطانيون أنه كان يمضي الساعات في التدريب على الهدف مما جعل منه رامياً محترفاً.

فر الأثر الكارثي إلى خلف المرتفع وأخذوا يطلقون النار من بين عجلات العربات، لكن لورنس، الذي توقع ذلك، كان قد وضع مدفعين رشاشين من نوع لويس حول منحني في الشبكة بحيث يغطيان الجهة المقابلة للمرتفع الذي اتخذ الأثر الكارثي ملجأ لهم. أطلق طاقم المدفعين الرصاص، وقبل أن يدرك الأثر الكارثي ما حدث، كانت صفوفهم قد تمزقت وغدا كل رجل وراء المرتفع إما قتيلاً أو جريحاً بينما فر البقية مذعورين في كل الاتجاهات. أما العرب الذين كانوا يرقبون العملية وراء الصُخور، فقد أخذوا ينادقهم وهجموا على العربات وألقوا كل ما كان بداخلها إلى الخارج. كانت القنائم مؤلفة من أكياس من العملات التركية الفضية والأوراق النقدية، والعديد من قمم الجوخ

الشرفية الجميلة. كرم الغزاة الأسلاب كلها على المرتفع وبدؤوا، وسط صحبات المرح، بتقسيمها فيما بينهم، بينما كان لورنس يوقع نسخاً من بيانات السحنة وترك إحداها مع جريح تركي كان ينوي الإبقاء عليه. كانوا أشبه بالأطفال الذين يجتمعون حول شجرة عبد الميلاد. أحياناً ترى رجلين يتنازعان على سجادة كرمانية حريرية، فكان يفصل لورنس بينهم ويعطي السجادة لرجل ثالث.

في أوائل شهر سبتمبر غادر لورنس العقبة بصحبة اثنين من شيوخ عقيلات بني عطية من المدورة، وسار إلى الأرض ذات الحجارة الملونة التي يدعوها رجال القبائل «وادي زم». وفي أقل من أسبوع كان قد انضم إليه 116 رجلاً من التوايه والزوايدة Zuwida والدراوتة والذومانية Dhumaniyah والطفاطقة Togatga والزلياني Zelehami والحويطات.

كان الموعد المحدد عند جسر صغير لشبكة الحديدية بالقرب من كيلو 5K7 جنوبي مدينة دمشق. هناك دفن لورنس ألغامه بين الشكك ووضع مدافع لويس وستوكس في مواقع إستراتيجية على بعد حوالي ثلاثمائة ياردة. بعد ظهر اليوم التالي رصدتها دورية تركية، وبعد ساعة انطلق فريق من أربعين غيلاً تركياً من حصن حالة غمار Harat Ammar لمهاجمة فرقة زرع الأتغام في الجنوب. تقدّم فريق آخر قوامه أكثر من مئة جندي يحيط بلورنس من جهة الشمال، لكنه قرّر أن يخاطر ويثبت في موقعه.

بعد فترة قصيرة ظهر قطار ذو قاطرتين وعربتين يتحرك ببطء قادمًا من حالة غمار وقد برزت المدافع الرشاشة والبنادق من الأسطح وفتحات الرمي في العربات والقطار يتابع تقدّمه. ضغط لورنس على القابس الكهربائي فاتفجر لغم تحت القاطرة الثانية مباشرة. كانت الصدمة كافية لنخرج القاطرة الأولى عن الشبكة وتفجر الرجل وتحطم مقطورة الماء والنوقود في الثانية وتضررت العربة الأولى وتخرج الثانية عن مسارها. وبينما كان العرب يحتشدون لسلب القطار المنسوف أشعل لورنس صندوقاً من المتفجرات تحت القاطرة الأمامية ليكمل تدميرها. كانت المقطورات مليئة بالأمثلة القيمة وطار صواب العرب من شدة المرح. كانت المحصلة قتل سبعين تركياً

وأُسِر تسعين ونسف ملازم نمساوي وثلاثين رقيباً من النمساويين والألمان.

في قبيلة المحرقات المحاربة كثير من الشيوخ، وبالتالي فإن الشيخ الرئيسي لا يملك سلطة واسعة. كان هؤلاء الرجال كثيراً ما يرافقون لورنس في غزواته. وفي إحدى الحملات إلى خط حديدي قريب من بير الشدية Biresb-Shediyah كان عليه أن يحكم في اثني عشرة قضية اعتداء مسلح وأربع سرقات جمال وقضيئي عيون شريرة لقد فصل في أمور السحر بعكسه على المدعى عليه البائس. وكان يفصل في قضايا العيون الشريرة بإطلاق سراح المتهم.

في مناسبة أخرى، خلال الأسبوع الأول من شهر أكتوبر، كان لورنس جالساً في الهواء انطلق بالقرب من كيلو 500، وكان أصحابه البدويون مختبئين وراءه داخل أجمة من القش. ظهر قطار كبير له اثنا عشرة عربة، وكانت نتيجة الانفجار أن نهشم مرجل المقاترة وانفجر العديد من الأنابيب وقذفت الأسطوانات في الهواء مزينة العربات بشكل كامل ومعها المهندسين ورجل الإطفاء، وأحاط بإطار المقاترة والتوت عجتا القيادة الخلفيتان وانكسرت المحاور. وعندما قدم لورنس تقريره الرسمي عن هذه الحملة أضاف ملاحظة طريفة بأن المقاترة قد أصبحت «غير قابلة للإصلاح». وقد تحطمت عربة ائماء والوقود والعربة الأمامية أيضاً. كان من بين الأشخاص في القطار نظمي بك، وهو جنرال تركي، قام بإطلاق رصاصتين من مسدسه النماوزر، ثم ما لبث أن توقف. وعلى الرغم من أنه بدا من الحكمة أن يتجه لورنس إلى الجمال والنقل البعيد، فقد انفض وجماعته على القطار واستولوا على ثعاني عربات وقتلوا عشرين تركيا وحملوا معهم سبعين طنّاً من الأغذية دون أن يصابوا بأي خسائر.

كان مرافقه الأوروبي الوحيد في بعض حملاته لتسجير القطارات هو جندي أسير الي جسور يستخدم المدفع الرشاش ويدعى الرقيب ييلز Yell. كان شرهاً للإثارة ونمراً في القتال. في إحدى المرات، عندما كان في حملة مع فريق من قبيلة أبو نايه، قتل ييلز بين ثلاثين إلى أربعين تركيا بمدفع لويس. وعندما قسمت الغنائم على البدو، أصر ييلز، بأسلوبه الأسرالي، على نيل حصته. أعطاه لورنس سجادة عجمية وسيفاً تركيا رافعاً.

لعب الشريف علي والشريف عبد الله دوراً مهماً أيضاً في الحملات على الخط الحجازي وفي الاستيلاء على عدد كبير من قوافل الجمال التركية قرب المدينة. في عام 1917 قام لورنس، مع رفاقه وبمساعدة من فيصل وعلي وعبد الله وزيد، بنسف خمسة وعشرين قطاراً تركياً وتحطيم خمسة عشر ألف سكة وتهديم خمسة وسبعين جسراً وقناة. خلال الأشهر الثمانية عشر التي قاد فيها العرب لغموا تسعة وسبعين قطاراً وجسراً، ومن الممفث نلتظر أن واحدة فقط من الحملات التي شارك فيها لم نأبِ بنتيجة مرضية. قال الجنرال ألتبي في أحد تقاريره إن الكولونيل لورنس قد جعل من تدمير القطارات رياضة وطنية في جزيرة العرب!

في حملة لاحقة في درعا، وهي أهم نقطة تقاطع للشبكة الحديدية جنوبي دمشق، فتجر لورنس لغماً تحت عجلة قيادة قطار طويل ومسلح بقوة. تبين فيما بعد أن جمالاً بالسا. القائد الأعلى للقوات التركية، كان على متن القطار مع حوالي ألف من الجنود. هبَّ جمال من مقصورته وفقر داخل خندق يتبعه كل فريق الإدارة.

كان مع لورنس أقل من ستين بدويًا، لكن كانوا جميعاً أفراداً من حرسه الخاص ومقاتلين متميزين. وعلى الرغم من عدم التماس، تمكن الرجل الإنكليزي ومرافقوه العرب من خوض معركة حامية قُتل فيها مئة وخمسة وعشرون تركياً وفقد لورنس ثلث رجاله. والتحفت بقية القوات التركية بقائدها ولاذ لورنس وصحبه بالفرار.

في كل محطة من محطات خط الحجاج الحجازي هناك جرس أو جرسان يقرعهما الموظفون الأتراك ليتهبوا الركاب أن القطار جاهر للانطلاق. هذه الأجراس تزين الآن منازل أصدقاء لورنس، ومعها أيضاً دزينة أو أكثر من الأعمدة المحددة للمسافات ولو حاث أرقام نصف القاطرات التي كانت فيما مضى تنجز القطارات فوق الشبكة من دمشق إلى المدينة. قام لورنس ورفاقه بالتقاط هذه الأشياء إثباتاً لانتصاراتهم. عندما كنت في جزيرة العرب سمعتُ ملاحظة تحمل روح الفكاهة والمجدية في آن معاً وهي أن لورنس كان يستولي على موقع تركي لمجرد إضافة جرس آخر إلى مجموعته؛ وكان من الشائع أن ترى لورنس أو أحد ضباطه يمشون خلفاً على منصة الشبكة بين

الدوريات، بحثاً عن الشاخصة المعدنية التي تحدّد مسافة 1000 كيلو جنوبي دمشق. وعندما يجدونها يقتلعونها ليصبح من الديناميت. وعندما لا يكون لورنس مشغولاً بحركة كبيرة ضد الأتراك أو بتعبئة البدو، كان يمضي وقته عادة في نسف القطارات وتحطيم المتكك.

أصبح عائم الآثار الشاب هذا مشهوراً جداً في الشرق الأدنى كمفتجر للجسور والقطارات لدرجة أنه بعد الهزيمة النهائية للجيش التركي، وعندما وصل الحبر إلى القاهرة بأن لورنس سيمرّ قريباً من مصر في طريقه إلى باريس، أعلن الجنرال واطسون مازحاً، وهو القائد العام للقوات، أنه ذاهب في مهمة رسمية لحراسة قصر النيل، جسر بروكلين في مصر، الذي يعبر النيل من القاهرة إلى الضواحي السكنية في الجزيرة.

سرت إشاعات مفادها أن لورنس لم يكن راضياً بانتهاء الحملات مع رصيده المفرد من زرع الألغام، الذي بلغ تسعة وسبعين. لذلك دأبت قصة على طول خط الحليب والعسل بين مصر وفلسطين بأنه قد اقترح جعل الرقم ثمانين، ونسف مهته كمفتجر بزرع الألغام ودأب تحت قصر النيل خارج باب مركز البحرية البريطانية.





لورنس في ثوب عربي



خط الساحل عند رأس خليج العقبة

الفصل الثاني عشر

شُرَّاب حليب الحرب

بينما كان نورنيس يرتحل من شيخ إلى شيخ ومن شريف إلى شريف يروجهم، باللغة الفصحى لقائده، لئلا تضمام إلى الحملة ضد الأتراك، كانت أسراب من الطائرات الألمانية تحتشد قادمة من القسطنطينية في محاولة منهم لإخافة الجيش العربي بطيورهم الشيطانية الغريبة. لكن العرب رفضوا الخوف، بل أصرّوا على أنه ينبغي على قائدهم البريطاني واسع الحيلة أن يأتي لهم بمثل هذه «المستونو المقاتلة».

بعد قيام الألمان بشن حملتهم الجوية الشنيعة على القنفة بفترة قصيرة، جاء مبعوث ملكي يعدو بجمعه إلى أن وصل إلى خيمة نورنيس. ودون أن ينتظر إباحة الجمل انزلق من فوق سنامه وسلم رسالة كتب فيها ما يلي:

«أيها المخلص، لدى الحكومة طائرات كالجراد. ولكنني، بمشيئة الله، التحس منك أن تطلب من الملك إرسال دزينة منها أو ما يقارب الدزينة».

(التوقيع) حسين

إن سكان جزيرة العرب متقفون جداً وشاعريون في التعبير عن أنفسهم. إنهم يقسمون بروعة الضياء وسكون الليل، ويلوّنون كلامهم بالتشبيهات المجازية كالوان سجاجيد الصلاة التركمانية لديهم.

هناك مجلة أميرية فاجأت الناس بمباشرة وهو أن قسماً كبيراً من الناس يستخدمون الأحرف العربية أكثر من الرومانية أو اللاتينية. إنهم فخورون جداً بلغتهم ويسكنونها لغة

الملائكة كما يعتقدون أنها لغة أهل الجنة، وهي من أصعب اللغات في العالم. يختلف العرب عنا في طريقة التفكير، فهم يدورون الجملة من نهايتها ويكتنون من اليمين إلى اليسار. لديهم 450 كلمة بمعنى «خط أو صف»، و822 كلمة بمعنى «جمل»، و1037 كلمة بمعنى «سيف». لغتهم مبنية بالألوان، ويسمون «المشرد» ابن الشارع، وابن أوى «ابن العواء». سطر كاثيو الزنابل العرب رواياتهم بروح أخاذة، على سبيل المثال كتب الأمير عبد الله إلى الكولونيل لورنس قائلاً: «كان القتال يستحق المشاهدة، فقد كانت المقاطرات الملحة نقر بعريذات القطار كأفعى ضربت على رأسها».

تحصن العرب لدى إحصار لورنس من مصر سرباً من طائرات عتيقة بعضها مزودة بالقنابل وأخرى للاستطلاع، وانصرفوا على الأتراك في معركة صحراوية جنوبي البحر الميت. أرسل قائد الجيش العربي رسالة إلى الملك جورج بهذا الصدد يقول فيها: «إلى جلالة ملك إنكلترا. استولت فرقنا المتحصنة على إحدى مقاطعات العدو بالقرب من الطفيلة. نصلكم الحقائق لاحقاً - فبصل».

كتب قائد آخر يخبر عن حدوث المسبب قائلاً: «تقدمت للإمام مع قومي، شاربي حليب الحرب، كما تقدم العدو لملاقاتنا. لكن الله لم يكن حليفهم».

أثناء الحرب، قامت الحكومة البريطانية بمد خطوط هاتف و برق من جدة على البحر الأحمر إلى قصر الملك في مكة. لم ينفذ هذه الخطوط أشخاص مسجونون بل مسلمون من مصر. وبالرغم من نفور الملك من أية اختراعات عصرية، فقد سمح بتركيب الخطوط فقط لأنه يدرك أهمية البقاء على اتصال مع الحلفاء. وبما أنه أصّر على العيش في مكة، فإن الهاتف والبرقيات هي من الضروريات الحربية، ويوجد الآن حوالي عشرين خطاً هاتفياً في جهازه الإداري. في أحد الأيام اتصل جنرال بريطاني بالملك من جدة ليدافع معه قضية حرية سياسية ملحة. أثناء الحديث سمع الملك أصواتاً أخرى على الخط فصرح غاصباً عبر الأسلاك مخاطباً عامل المقسم: «أمرك أن تقطع كل الخطوط في الحجاز لمدة ساعة! أنا الملك أنكلم». وهكذا تم إيقاف شبكة الهاتف في الجزيرة بناءً على أوامر ملكية. إذا صادف أن كنت في جزيرة العرب

وأردت أن تتصل بملك الحجاز هاتفياً، فما عليك إلا أن تطلب «مكة رقم واحد».

بعد الاستيلاء على جدة بوقت قصير، اجتمع لورنس والكولونيل ويلسون C. E. Wilson، حاكم بورسودان، ومستر رونالد ستورز والأمير عبد الله، وبهدف التسلية جعلوا الفرقة التركية، التي أسروها قبل بضعة أيام، تعزف مقطوعة «Deutschland, über Alles»، «ترنيمة الكراوية»، وأغاني ألمانية أخرى. صادف أن اتصل الملك أثناء العزف، ولما سمع الخليط المتنافر طلب من المستقبل أن يترك التماعة، وبقي لنصف ساعة في قصره في مكة يضحك بجذل بينما الفرقة تؤدي بأسوأ طريقة.

لم يجبر الطيارون القادمون إلى جزيرة العرب على لبس غطاء الرأس العربي فحسب، بل على الطيران وفق ارتفاع مناسب خشية اصطيادهم من قبل البدو الذين يمتكون رغبة لا تقاوم في إضلاق الرصاص على أي شيء يتحرك بسرعة. قاموا مرة بإطلاق وإبل من الرصاص على سيارة مصفحة ثم أرسلوا بالغ اعتذارهم. لقد اعترفوا بأنهم كانوا يعلمون أنها آلية صديقة، لكنها كانت تجري بسرعة كبيرة بحيث لم يقاوموا إغراء محاولة إصابتها.

أدخل الكولونيل لورنس ورفاقه أول سيارات آلية إلى جزيرة العرب، واتخذ الأمير فيصل لنفسه عربة ترن طناً كسيارة ملكية خاصة. رافقته في إحدى رحلاته من العقبة إلى مركز الخط الأمامي في الوهيدة Wahaida في الصحراء شمالي الحصن التركي في معان على الخط. التحديدي الحجازي، خيمنا ليوم واحد على قمة تل مرتفع وسط أطلال قلعة تركية قديمة. أقام فيصل وليمة غداء على شرفنا، حيث جلسنا على صناديق فارغة بدلاً من الطريقة العربية بالجلوس على الأرض، وارتجلت طاولة لأجلنا. كان هناك النجدي توري باشا ومولود Malud بك والمعجوز عودة أبو نايه. قبل الوجبة قدموا لنا أكواباً من الشاي المحلى، ثم جاء الطعام وهو طبق كبير من الأرز المجذبل بقطع من

(١) أنشودة ألمانية شهيرة تعني: «ألمانيا فوق الجميع»، غدت لاحقاً في أيام الحزب النازي شعاراً أثراً يتغنى به الجميع.

لحم الضأن والماعز، ووضع في وسط الطاولة. بالإضافة إلى ذلك كان هنالك طبق آخر من الأرز المخلوط يقطع اللحم. كما أنقل سطح الطاولة بالفاصرياء مع مرق البندورة، والعدس والبارلاء، والزقان، والتّم والثين المحقّقين، ونوع من الحلوى مصنوع من السمسم والشكر، شبه الأسبست النّبي. وقد تناولنا أجناس كاليفورنيا كان قد أرسل من مصر كهدية للأمير.

لم يكن العجوز عودة أبو تايه قد رأى مثل هذه الأجناس شويّة المنظر في حياته، ولشدّة الإغراء من أحل تذوّقها لم يستطع المقاومة حتى نهاية الوجبة. لقد أهمل الطعام الموضوع أمامه كما رمى بالوسمبات عرض الحائط، وانقض على الأجناس وانتهمه كله قبل أن ينهي أحد منا وجبة الأولى. في نهاية الوجبة، دارت أكواب صغيرة من القهوة المنكهة بالهال، وهي حيوب هندية لها طعم التّنعاع، كما دار وعاء فيه ماء من أجل إزالة بقايا الصّلصة التي قد تكون علفت في لحائنا. بعد ذلك أحضر خدم الأمير الأحباش النّجائر وأخذنا نتمسّى ونفترج بعناظيرنا على المعركة الذّاترة على بعد بضعة أميال في منخفض قريب من معان.

قبل الغداء وبعد توافدت مجموعات من العرب إلى الخيمة لتقبيل يد الأمير فيصل. لم يكن يسمح لهم بلمس يده بشفاهم بل كان يسحبها قبل أن يتقبّلوها، ليظهر لهم أنه يكره أن يعاملوه بطريقة خاصة من الخضوع والتّذلل.

نقد اكتسب فيصل ولورنس الكثير من مزاياهما القيادية بفضل معرفتهما بالاستقلال التقليدي للقبائل إن الثبائل الأصيلة التي جابت طول وعرض جزيرة العرب بحرية طوال حياتها، وقامت بحروب صغيرة خاصة بها، لا يمكن إصدار الأوامر إليها أو تجنيدها بشكل إلزامي، بل يجب أن تُعامل بنبافة لإقناعها بخوض الحرب الكبرى وجعلها تُشعر بأهميتها الخاصة.





العالم الذي أضفى حلمه حقيقة



من عالم أنار إلى بطل العالم في تدمير المفطرات

الفصل الثالث عشر

عودة أبو تابه، روبن هود البدوي

"باسم الله، أنا عودة أبو تابه، أحذركم بأن ترحلوا عن بلاد العرب قبل نهاية شهر رمضان. ونحن العرب نريد هذه البلاد لأنفسنا. وإن لم تغرجوا من بلادنا فوحن لحية النبي يعلن أنكم خارجون عن الشرع والحماية، ودمكم مهدور لأي كان".

كان هذا هو إعلان الحرب الرسمي والشخصي الذي كتبه عودة أبو تابه شيخ الحويطات، وأعظم بطل عرفه التاريخ الحديث في جزيرة العرب، وأشهر مقاتل أنجسته الصحراء منذ أربعة أجيال. كان ذلك الإعلان موجهاً إلى سلطان تركيا، وإلى جمال باشا نائب الملك في سوريا وفلسطين والجزيرة، وإلى متصرف مدينة الكرك وهو الحاكم العثماني لمقاطعة مهمة في طرف الصحراء قرب القسم الجنوبي من البحر الميت حيث يعيش عودة. استنجدت الثورة العربية بروبن هود البدوي لأنها رؤيته بحجة رائعة لإعلان الحرب المذائية ضد الحكومة التركية.

عندما سمع عودة بأن الشريف حسين قد بدأ ثورته ضد الأتراك، ركب مع أتباعه الشجعان من قبيلة الحويطات وعذبوا بخيولهم فوق رمال الصحراء إلى مضارب الأمير فيصل وحلفوا بالقرآن بأن أعداء الشريف سيكونون أعداءهم هم أيضاً، ثم أقبلت وليمة على شرفهم. وفجأة تذكر عودة وهو يتناول الطعام أنه يستعمل أسناناً اصطناعية تركية، فنهض من مجلسه وهو يلعن طبيب الأسنان التركي الذي صنعها له وخرج من الخيمة وحطم الأسنان على إحدى الصخرات. وبقي مدة شهرين يعاني ولا يستطيع تناول سوى الحنظل والأرز المسلوق، ولما عاد لوزنس من مصر شكاً

إليه عودة ما يعانیه فأرسل لورنس من فورهِ إلى طیب أسنان بریطاني في القاهرة ليأتي
ويصنع للمجوز قطعاً آخر من الأسنان من إنتاج بلاد حليقة!

كان لولائه وصداقته الأبدية أثرٌ قيمٌ للشريف حسين والحلفاء في ثورتهم العربية.
بالإضافة إلى ذلك، فقد قدّم خبراته الغنية النادرة في شؤون الحرب المناسبة لبلده.
باستثناء لورنس، كان عودة أعظم غازٍ في جزيرة العرب الحديثة. خلال الأعوام السبعة
عشرة قتل خمسة وسبعين رجلاً في قتال المواجهة. وكانوا كلهم من العرب إذ أنه لا
يحصي الأثر الذي سجلته. لا أظن أنه يدعي ذلك فقد أصيب باثنين وعشرين جرحاً،
ورأى معظم رجاله يصابون في المعارك ومعظم أقربائه يُقتلون. أما ذراعه الأيمن
فهو متيسر إلى درجة أنه لا يستطيع تثبيته ليحك ظهره. ولهذا كان يستعمل العصا التي
يسوق بها جملة. ومع أن أراضي قبيلة الحويطات تقع بالقرب من خليج العقبة، فقد
قام عودة بغزو أماكن تبعد ستمئة ميل جنوب مكنة، ووصل إلى شمال حلب، وإلى
أماكن تبعد ألف ميل شرقي بغداد والبصرة. وكانت الدوائر تدور عليه أحياناً، ففي
سنة من التسعين شرّ غارة على ابن سعود الذي كان حاكماً على وسط جزيرة العرب،
وجاء بعض الذرود من جبل حوران الواقع جنوبي مدينة دمشق، وسلبوه كل جماله.
تحمل عودة هذه الخسارة بهدوء وبشكل فلسفي، لكن نبأ سوء حفظه وصل إلى صديقه
نوري الشعلان أمير الجوف والحاكم على شمال وسط جزيرة العرب. فأرسل نوري
الشعلان فوراً لعودة نصف ما يملك، وفقاً لقوانين الصحراء غير المكتوبة.

يفتخر عودة بأنه مثالي للعربي الأصيل، ولقد بعدت به غزواته الناجحة التي بلغت
المنة بعيداً عن مسكنه قرب البحر الميت إلى كل أنحاء العالم العربي. أما الأسلاب
فكان ينفقها على كرمه المذهل. إنه يتحدث مطولاً بصوت جهوري عالٍ يشبه سيل
الجيل الجارف.

بالرغم من عودة قد حصل في غزواته على غنائم تفوق ما حصل عليه أي زعيم
آخر، فإنه فقير نسبياً نتيجة كرمه الزائد. لقد أقتت أرباح مئة غزوة ناجحة الكثير من
المنفعة لأصدقائه. إليكم مثلاً على غناه المؤقت، وهو أنه دعا في يوم من الأيام خمسة

وعشرين رجلاً على قدر نحاسي ضخم تحلقوا حوله كلهم لتناول وجبتهم. يكون كرم ضيافته غير ملائم ما عدا بالنسبة للأشخاص الذين يتصورون جوعاً. ذات يوم، بينما كان يضع في صحن كميّة هائلة من الأرز ولحم انقّان من القدر النحاسي، كنت أحدثه عن الجمال وقلت إننا لا نراها في بلدنا إلا في حديقة الحيوان. لم يستوعب البدوي العجوز الأمر وألح عليّ أن آخذ 20 ذلواً إلى أميركا لأبدأ في تجارة الجمال. ولم يقتنع باستحالة هذا المشروع إلا بعد أن بذل لورنس كل ذكائه وفصاحته في إيهامه صعوبة حمل هذه الهدية والطواف بها حول نصف الكرة الأرضية.

وفي شهر مايو سنة 1918 أرسل الأتراك عنداً كبيراً من الجمال من سوريا. وُضعت الجمال في زريبة مؤقتة في محطة معان. سمع عودة بذلك فامتطى هجينه وانطلق بيسالة إلى معان على رأس فريق مؤلف من اثني عشر رجلاً من قبيلته. كان هناك آلاف الجنود الأتراك، لكن قبل أن يدركوا ما يحدث كان عودة قد جمع خمسة وعشرين رجلاً وسافرها أمامه بسرعة خمسة وعشرين ميلاً في الساعة. كان عنده الكثير من هذه المقالب، وكان يروي مغامراته بعد ذلك بحبوبة بالغة.

هناك قصة مشوّقة عن أعمال النصوصية التي حفلت بها حياة عودة وذلك عندما نهب صديقه المقرب وأمير البلاد. كان فيصل في طريقه عبر الصحراء في إحدى الحملات وكان معه أربعة آلاف جنيه ذهبي. لسوء الحظ كان طريقه يمر بأراضي عودة، وبطريقة ما علم الأخير بأمر الذهب، فصنّم على إبقاء فيصل وجماعته ضيوفاً حتى يقدموا ثلاثة آلاف جنيه من الأربعة آلاف للقرصان العجوز. بالطبع، لم يستعمل عودة القوة مع فيصل لكنه أعلن صراحة أن له حقاً في الذهب.

عودة أبو تابه زعيم من أنيق، طويل القامة، قوي البنية، ومع أنه قد بلغ العقد السادس من العمر فهو لا يزال نشيطاً شديد البأس كالنمر. يدلّ وجهه الشاحب الهزيل على أنه بدوي أصيل. جبينه عريض لكنه ضيق طويلاً وله أنف طويل حاد معقوف وعينان بارزتان بلون بني زيتوني، ولحية مدببة، وشارب مخضّب بالزُمادي. يعني اسم عودة «أبو الطيران»، مما يذكر باليوم الذي قام فيه بأول رحلة جوية له. طار مرة مع

الكاهن فيرنس وليامز، وبدلاً من أن يتسرب الخوف إلى قلبه كان يطلب من القبطان التحليق إلى أعلى ارتفاع ممكن.

إن هذا البطل العجوز صلب حاد الطبع لكنه رطب الصدر بتقبل النصيحة، ويحتمل الانتقاد مع ابتسامة أخاذة؛ ولكن ليس من قوة في العالم نستطيع أن نزرحه عن رأي افتنع به، أو أن يطيع أمراً أو يتبع خطة لا يوافق عليها. وهو متواضع، بسيط كطفل، صادق، رقيق القلب، حنون يحب حتى أولئك الذين يقوم بمضايقتهم، أي أصدقاءه. إنه يهوى تنفيذ القصص الطريفة عن شخصه، ويتفنن في رواية الحكايات الخيالية الطريفة تناول حياة مضيقه أو ضيقه، ويشعر بسعادة بالغة عندما يزعج أصدقاءه.

تسلل ذات يوم إلى خيمة ابن عمه محمّد وتحدث بصوت مرتفع لكي يسمع جميع الحاضرين فصح الفعل الذي قام به قربه في الوجه. روى كيف اشترى محمّد عقداً جميلاً لزوجة من زوجاته، لكنه، للأسف، التقى بامرأة جميلة في ميناء الوجه، وكانت غائبة كضوء النجوم. استسلم لسحرها فقدم إليها العقد. كان عقداً رائعاً بأحجار تلمع كأنجوم من بينها أحجار زرقاء تذكر بالبحر، وأخرى حمراء تذكر بعروب شمس الصحراء. ثم يتحدث بأسهاب عن جمال المرأة. وفي الجانب الآخر من الخيمة سمعت زوجات محمّد قصة خيانة سيدهن. وعلى الرغم من كون القصة مغرقة بشكك واضح، فقد حدث هياج في منزل محمّد وأصبحت حياته جحيماً لا يطاق لعنة أسابيع.

نقع مضارب عودة في بفعة طينية على بعد ثمانين ميلاً شرق الغبّة. وعندما كان يجتمع بلوزنس في الحملات العريّة كان يتقن مواضع مهمة من أسلوب الحياة في أوروبا. كانت عيانه تلمعان عند سماع قصص الفنادق والملاحى والقصور، وقبّاء قرّر ترك خيمته مقابل منزل بروعة المنزل التي يعرفها سيدي لوزنس في لندن.

كانت أول عقبة واجهته هي مسألة العمال، لكنه حلّها بغزو حامية تركية وأسر خمسين رجلاً استخدمهم في حفر الآبار. بعد أن أنجزوا العمل وعدهم بإطلاق سراحهم إذا شئدوا له منزلاً جميلاً. قاموا ببناء منزل من أربعين غرفة وأربعة أبراج،

ولكن، بسبب ندرة الخشب في الصحراء، لم يستطيعوا بناء سقف لهذا البناء الضخم. لكن سرعان ما وجد عودة الفطن حلاً. قام بجمع محاربه وسار بهم وسط اثر مال إلى خط الحج الحديدي، حيث هزم دورية الحراسة التركية وافتلع ثلاثين عموداً من أعمدة التلغراف، وهي تشكل الآن إطار قصره الصحراوي.

وأربعون غرفة ليست بكثيرة على عودة. خصوصاً عندما تعلم أنه مغرم بجمع أكبر عدد من النساء في داره. يُسمح لكل مسلم بالزواج من أربعة نساء في الوقت ذاته، إن كان قادراً على إعالتهم. لكن عودة العجوز تزوج ثمان وعشرين مرة، وهو يطمح إلى رفع العدد إلى الخمسين قبل أن يموت. وبالزعم من زيجاته المتعددة، فلم يبق له سوى ولد واحد بينما قُتل الآخرون في الغزوات والضعف الدمي. كان ابنه محمد في الحادية عشرة من عمره عندما رأته لكن حجمه كان صغيراً جداً بحيث كان أبوه يلتقطه من مؤخرة عنقه ويلقي به فوق سرج جملة بد واحدة. وعندما كانت القافلة تسير ليلاً ويخشى عودة أن ينام ابنه محمد فيسقط من فوق الجميل، كان يلتقطه ويحشره في إحدى حقائب سرجه حيث يقضي الليل. لقد رافق هذا الولد التحيل والده والكلولونيل نورنس في كل الحملات العربية.

كان حماس عودة في جعل الأتراك أعدائه اللدودين، ويصب ذلك في الكره الذي بسبب العداوة الشخصية، فقد قام بجلب العديد من القبائل إلى قاعدة نورنس. علّق نورنس مرة قائلاً إن عودة يشبه الفيصر في قدرته على الاحتفاظ بأصدقائه المخلصين من حوله، تحيط بهم دائرة من الأعداء. حتى توري الشعلان والكثير من أصدقاء عودة من الزعماء يبقون في خوف دائم من إغصابه.

كانت قبيلة الحويطات فيما مضى تحت سيطرة ابن رشيد وقبيلته التي جابت شمال الصحراء العربية. ثم خضعت لقيادة ابن جازي حيث تفككت القبيلة إلى فئات متضادة. إن عشيرة أبو نايه هي من صنع عودة المعارب، ومحمد بن دحيلان Dhuilan المفكر. غامل ابن جازي أحد ضيوف عودة من الشراري معاملة سيئة مما أثار حقن الزعيم الكريم الأبني. وفي السنوات الخمس عشرة من الحقد التي نلت قتل عماد، الابن

الأكبر لعودة والآثير لديه. كانت هذه الكراهية بين فرعين من قبيلة الحويطات سبباً في الصعوبة التي لافاها الأمير فيصل في عملياته في معان والتفقه. أدى ذلك إلى انضمام حامد العرار، زعيم ابن حازي حاليّاً إلى صفوف الأتراك، بينما ذهب سحيمان أبو نايه والبقية إلى الوجه للانضمام إلى لورنس وفيصل. أقام عودة سلاماً مع أعدائه بناءً على طلب فيصل، وكان ذلك من أشقّ الأمور التي اضطّرّ المجوز إلى فعلها، لقد تسبّب مقتل عباد في إطفاء جذوة آماله وطموحاته لقيبلته وملاً حياته بمرارة الفشل. لكن فيصلاً حكم بالأيّام قومه عادة الثأر ثانية، ولم يعد هناك أعداء عرب سوى أشياخ ابن رشيد في شمال الجزيرة الذين ما زالوا مستمرين في خوض حروب مريعة مع كل قبائل الصحراء. إن نجاح فيصل في دفن الضغائن في الحجاز ليس واعد حقاً. وأصبح في أذهان العرب الآن أن الشريف أعلى من القبائل والرجال والشيوخ والأحقاد، وهو يمارس الآن مهمة إرساء قواعد السلام والحكم المستقل.



جنود بدو غير نظاميين جاهازون للإغارة على التُّرك



البدو مغرمون على وجه الخصوص بالمسكات
وساعات اليد ومناظير الميدان

الفصل الرابع عشر

فرسان الخيام السود

بعد عودة يأتي محمّد دحيلان كزعيم لقبيلة أبو تايه. إنه أضول قامة من قريبه وأضخم جثة، عريض الرأس، وقور، بلغ الرابعة والخمسين من العمر، روحه مرحة يخفي وراءها قلباً رقيقاً. يترأس المناسبات في القبيلة، وهو ساعد عودة الأيحي وكثيراً ما يتحدث نيابة عنه. لكنه جشع بالرغم من أنه أكثر ثراء من عودة، وهو أيضاً أشد مكرراً وحرصاً على المال. وهبه الله الفصاحة حتى بات يُعدّ في نظر البدو «ديموسنين العرب»، بل إن قومه يذعونه «أبا البلاغة». يعتمد عليه دائماً في المجلس القبلي ليمنع من سمعيه بقبول وجهات نظره. وهو يملك قدرة وبراعة فائقتين في استخدام السيف، ويلقب بـ «شراب حليب الحرب». كما يعدّ الثاني في الشجاعة والإقدام بعد عودة.

وزعل بن مطلق هو ابن أخي عودة. يبلغ من العمر خمسة وعشرين عاماً، وهو شاب مثاق، ذو أسنان لامعة وشارب مفتون ونحبة مدبّبة ومشذّبة بعناية. هو أيضاً جشع وحاذئ الذكاء، لكنه ليس بمستوى عقل محمّد. أمضى عودة سنوات يدرّبه على أن يكون رئيس فرقة الاستكشاف في القبيلة، لذلك يعدّ من أجراً وأشجع القادة عند الغزو.

نوري الشعلان، أمير الجوف، ليس شخصية رائعة كصديقه وقريبه عودة فحسب، بل هو أيضاً زعيم قبيلة الرّوّلة العنبريّة، المؤلفة من مئتي ألف من الرجال الأشداء، وهي أكبر قبيلة في الصحراء، تقطن تقريباً كل الأقاليم الواقعة بين دمشق وبغداد. والأمير نوري الشعلان من خيرة رجال جزيرة العرب وكانت تربطه بحسين ولورنس صداقة

متينة وقد ساعدهما عند الاستيلاء على درعا ودمشق، ولا بد أنه ذو مكانة عالية عند فيصل الآن، إذ تُصب زعيماً لسلالة الزنّاديين بعد أن رفض بيع نفسه للمفرسيين في سوريا عام 1919 بعد الحرب.

لم يدع لوزنيس الأمير نوري الشعلان يعلن الحرب على الأتراك إلا في التساعة الأخيرة، لأنه كان يعرف أن إعلان الحرب يعني إطعام الكثير من الأفواه الجائعة. وكان نوري الشعلان عدواً لدوداً لابن رشيد الذي كان يساعد الأتراك ويناصرهم ولكنه فقد القسم الذي كان يحكمه من جزيرة العرب وانتقل إلى ابن سعود سلطان نجد.

ذات مرة احتاج نوري الشعلان إلى صانع أسلحة، فما كان منه إلا أن أسر ابن باني¹ Bani من حائل، وهو صانع الأسلحة ندى ابن رشيد وأمه رجل في هذه الصنعة في الجزيرة. قام بوضعه في السجن مع حذّاه الخاص ابن² Zarih، وأعطى كل واحد منهما لوتاً وأدوات وأعلن أنهما سبقيان في السجن حتى يتمكن ابن Zarih من صنع السيوف والخناجر التي لا يمكن تمييزها عن تلك التي يصنعها ابن باني. أخذوا يعملان بجد وبقي الاثنان مستعربين حتى التساعات المتأخرة من الليل، وأخيراً بعد عدة أسابيع، صنع ابن Zarih خنجرًا رائعاً بحافة تستطيع شق التريخ. سرّ نوري وأطلق سراح سجينيه، وأرسل ابن باني إلى بلاده محملاً بالهدايا القبيلة.

وكان نوري الشعلان كهلاً في السبعين عندما اندلعت الثورة العربية. وكان ضموحاً إلى أقصى درجة وعازماً على أن يصبح قائداً. منذ ثلاثين سنة، قُتل شقيقه الاثنان ليكون زعيم القبيلة، وقد حكم أفراد قبيلته بعضاً من حديد وربما كان بندو نوري الشعلان هم وحدهم الذين يعرفون طاعة الأوامر، وإذا لم يفعلوا كان يقطع أعناقهم. لكن بالرغم من قسوته، فإن كل أفراد قبيلته يحترمون به. يتكلم معظم شيوخ العرب كالعربان، أما نوري فيبقى صامناً في المجلس القبلي ويسوي الأمور بكلمات

(1) هو عبد العزيز بن باني، أشهر صانع للخناجر والشبكات في شمالي جزيرة العرب بأوائل القرن العشرين.

(2) لم يتضح لي الاسم كما يمكنه لويل توماس، وأسلفت أنه كان جاهل العربية.

قليلة مقتضبة يفرّرها في النهاية. كان بفضل. حتى بهاية الحرب، حياة البداوة على انقصور بين بغداد والبوسفور، وكان يدبر شؤون قبيلته في أكبر خيمة من شعر الماعز في الصحراء، حيث تذبذب النباه كل بضعة دقائق من أجل سبيله الدائم من الضيف، إنه يملك أفضل أراضي القمح في سوريا، وكذلك أفضل الجمال والخيول. وقد بلغ من الثراء حدّاً لا يستطيع معه إحصاء ما لديه من مال.

أضاف مُطلق بن جميعان⁽¹⁾، شيخ بني عطفة في جنوب معان، أربعة آلاف مقاتل إلى قوات الملك حسين. إنه قوي وشجاع كأسد، ولقد ساعد لورنس في نسف القنارات بالقرب من معان، وكان متواجداً كلما احتدم القتال وحيث كانت هناك محطات للاستيلاء عليها أو أعمال أخرى ذات طبيعة خطيرة. أثناء جولة الاستكشاف حول معان، كان اثنان من ضباط لورنس يحاولان العثور على طريق روماني قديم في الصحراء، وبما أن مُطلق منشوق دائماً للمغامرة، فقد ذهب معهما. كانت السيارة تتقدّم بسرعة وتندفع بعجتون يميناً ويساراً فوق رمل الصحراء الكثيف، وفي مكان ما انحرفت بشدة وألقي مطلق خارجها وارتطم رأسه بالأرض. قفز الضابطان خارج السيارة وأسرعوا إليه للاعتذار منه ظناً منهما بأنه سيكون غاضباً. لكن الشيخ العسن وقف وهو ينفخ الزمل عن ثيابه وقال بحزن: «أرجو ألا تنضابقا مني، فإن لم أعلم ركوب مثل هذه الأشياء بعد». كان يعتقد أن ركوب السيارة يحتاج إلى فنّ وتدريب تماماً مثل ركوب الجمال.

أما قبيلة المحارث التي يشتهر أفرادها بالنصرصية، فلم تكن ذات شأن لدى حسين قبل الحرب، لكن شريفهم، علي بن الحسين، وهو شاب في التاسعة عشرة، جاء بكل قبائل حوران لينضموا إلى الثورة. كان أكثر الرجال نهوياً ووفاقية وتملقاً في الجيش العربي. كان عداء متميزاً، وكان يستطيع اتلحاق بجمل جرياً على الأقدام والتأرجح على الشرج بيد واحدة مع الإمساك ببندقية باليد الأخرى. عندما ذهب عني للقتال خلع ملابسه كلها عدا السروان الداخلي، وقال إنها أفضل طريقة لصاب بجراح

(1) الواقع أنه شيخ النبوت من بني عطفة وليس شيخ لعل العشيرة بأسرها

المعركة. كان محباً للفكاهة ويمزح بشأن الملك في حضوره. كان واحداً من شريفي
في الحجاز لم يكونا يهابان الملك حسين. أما الآخر فهو الشريف شاعر Shaker ابن
عم فيصل وأغنى رجل في الحجاز. كان الشريف الوحيد الذي يجدل شعره بل ويربي
القمط فيه ليظهر احترامه للمثل البدوي الأصيل القائل: إن الرأس المسكونة هي دلالة
عنى العقل الثائرة. كان مكان سكناه في مكة لكنه كان يمضي جل وقته مع أفراد
القبايل البدوية.

هؤلاء هم بعض الزعماء الذين كانت حماسة بعضهم تجاه القومية العربية بحاجة
إلى إذكاء، بينما تملق الآخرون مدافع من الخيلاء، لكنهم كانوا جميعاً مستعدين
بخوض غمار الحرب إلى حد كبير، إذ كانت اللعبة الوحيدة التي لعبوها منذ طفولتهم.
ومنذ أن أنسموا يمين الولاء وهم مخلصون كالفرلاذ، ولولا وفائهم وشجاعتهم
الغائفة وعشقهم للمغامرات الدموية، لكانت الثورة العربية حبراً على ورق ابتدعها
شباب عالم بالآثار

من خلال تعامل لورنس مع عودة والزعماء الآخرين، اكتشف أن روح الدعاية شيء
أساسي عندهم. اجعل العربي بضحك ثم اقمعه بما تريد. اللغة العربية لغة وقورة مليئة
بأنهية والجلال، وكان عالم الآثار البريطاني الشاب، الذي يملك دراية غير اعتيادية
باللهجات المتعددة المحكية في الجزيرة، قد اكتشف أن الترجمة المباشرة من اللغة
الإنكليزية العلمية إلى العربية مع إضافة بعض اللمحات الذكية أمر يهيج مستمعيه إلى
حد كبير. كما أن الكولونيل لورنس كان يملك سلاحاً فعالاً آخر هو قدرته على التغلب
على الأمور غير المتوقعة بارتجال مُلهم. كان بين الفينة والأخرى يقع في موقف باتس
لا سبيل للخروج منه. وفي بعض ثوانٍ كان عقله يلفظ بشتى طريقة رائعة للتعامل مع
الحالات الطارئة.

كمثال على ذلك أذكر بعض معماراته في الصحراء السورية، كان في بلدة الأزرق
Azrak بين الكتيبان الرملية إلى الجنوب الشرقي من دمشق عندما جاءه رسول نبأ
وجود بعض العجواسيس الأتراك في قافلة من التجار السوريين كانت في طريقها إلى

قاعدة الشّوكة العربيّة في العقبة، على بعد ثلاثمئة ميل إلى الجنوب، فرّر فوراً أنه من أجل كشف الجواسيس لابد من الوصول إلى العقبة إمام القافلة أو بعد وصولها مباشرة. تستغرق الرحلة بين الأزرق والعقبة اثني عشر يوماً على الحمل، وكانت القافلة الشّورية قد انطلقت منذ تسعة أيام.

أدرك لورنس أن رفاقه لن يتحملوا السرعة التي كان يسوي السفر بها، فاختار معه رجلاً واحداً هو حوراني هجين مشهور في شمال الصحراء العربيّة بقدرته العالية على التحمل. كان الاثنان يسابقان فوق التلال بين الأزرق Azrak وباير Bair، على بعد ثمانين ميلاً إلى الجنوب من مخيمهم عندما ظهر فجأة اثنا عشر عربياً فوق حافة تلٍ رملي وعذبوا بجملتهم على المنحدر ليقطعوا الطّريق على الغربيين. صاح العرب بأن يترجل لورنس ورفيقه وأعلنوا أنهم أصدقاء وأفراد من قبيلة جازي الحويطات. لقد ترجلوا عن جمالهم قبل أن يصلوا بمسافة ثلاثين باردة ليصبحوا الرّجلين على فعل ذلك. لكن لورنس عرف أنّ هؤلاء العرب من بني صححر، وهم أحلاف الأتراك وأعداء لمعظم القبائل البدوية التي كانت تحارب مع الملك حسين والأمير فيصل كان معروفاً لني صخر أن الذهب يمرّ في طريق القوافل وقد خرجوا طمعاً في نهبه.

كانت هذه الجزء هو الطّريق التجاري الوحيد في زمن الحرب بين سوريا والجزيرة، وكان التجار يسلكونه منذ أشهر من سوريا إلى العقبة لشراء قطن مانشستر. كان لورنس يستعمل القطن لهدفين، الأول هو نشر المعلومات والثاني هو الحصول على أكبر كمية ممكنة من الذهب من سوريا وتركيا⁽¹⁾. كانت الإمبراطوريّة العثمانية بحاجة ماسة للقطن ولهذا السبب سمحت السلطات العسكرية للتجار بالمرور عبر حدودها. عند الوصول إلى العقبة كان لورنس والقادة العرب يعرفون الناس على المبادئ الوطنيّة العربيّة، وفي الوقت نفسه يجمعون أهم المعلومات فيما يتعلق بالحالة في تركيا. كما

(1) أكتب دوماً اسم سوريا بالألف الممدودة على اعتباره صيغة هليّة لاسم آشور (والمقصود هنا الإقليم العربي لأشور) وليس اسماً عربياً أو كنعانياً، بدلالة انقلاب الشين إلى سين، وليس في اليونانية. أما اسم تركيا فأكتبته بناءً على ملاحظة عنى اعتبار أن تلفظ بيا، ممالة هكذا: Türkiye.

كان للتجّار فائدة أخرى هي تهريب المناظر الألعانية إلى العقبة، والتي كان لورنس يحتاجها ضمن تجهيزات الفرق العسكرية في الصحراء.

في تلك الأثناء كان لصوص بني صخر يفقون على الرمال وأيديهم على بنادقهم تحسباً، بينما يتابعون إلقاء نحياتهم الودودة. فجأة ابتسم لورنس ابتسامة واسعة أربكتهم ثم قال لفائدهم: «اقرب مني، أريد أن أسمع كلمات في أذنك»، ثم أضاف وهو ينزل من على سرج جملة «هل تعرف ما هو اسمك؟».

بدأ الشيخ منهشاً وعاجزاً عن الكلام، لكن لورنس تابع قوته: «أعتقد أن اسمك هو ...»⁽¹⁾.

كانت هذه أكبر إهانة يمكن لأحد أن يلحقها بيدوي. دُهل قائد بني صخر واشتعل غضباً، فهو لم يفهم كيف يمكن لمسافر عادي أن يجرؤ بقول ذلك له في الصحراء بينما هناك عدد من الأسلحة مصوب نحوه. وقبل أن يفيق الشيخ من دهشته قال لورنس بجذل: «السلام عليكم»، ثم طلب من الحوراني بهذوء اللّحاق به وانطلق فوق الرمال.

بقي رجال بني صخر مذهولين حتى أصبح الزّحلان على بعد مئة ياردة. وبعد أن استعادوا وعيهم أخذوا بإطلاق الرصاص لكن أمير مكة الأشقر كان قد عدا بجملة فرقى أقرب تلّ وفرّ هارباً. وبالمناسبة فإن الطلقات لا تستطيع الوصول إلى جمل يركض بسرعة عشرين ميلاً في الساعة.

كاد لورنس والحوراني يفضيان على جملتيهما في هذه الرحلة، فقد كانا يركبان بمعدل اثنين وعشرين ساعة في اليوم. كانا يعبران الرمال الحارقة منذ انفجر حتى غروب الشمس، ولا يتوقفان إلا لدقائق معدودة من أجل إراحة الجمال. وعندما وصلا إلى مضارب عودة أبو تايه، شرقي الطرف الجنوبي من البحر الميت، استبدلا جملتيهما بأخرين نشيطين. لقد قطعنا مسافة ثلاثمئة ميل في ثلاثة أيام، وهو رقم قياسي للجمال السريع يمكن أن يبقى لعدة سنوات.

(1) شبيعة فادحة أفضل عدم ذكرها.

لم تكن هذه المغامرة الغريبة سوى واحدة من مئة مغامرة حصلت لنورنس، وقد سمعت واحدة تفسر سبب احتفاظه الدائم بمسدس كولات من الطراز الحديث.

منذ بضع سنين، بينما كان نورنس يتجول في آسيا الصغرى قرب مرعش Marash أصيب بالحصى فتوجه إلى بيره جنت Birgik، وهي أقرب قرية، وفي الطريق قبل رجلاً تركمانيًا. والتركمانيون أنصاف يدو ذوو أصول مغولية لهم عيون مائلة ووجوه تبدو وكأنها قد مزجت بالزبد ثم تركت في الشمس لتجف. لم يكن نورنس مثلكدًا من وجهته فسأل التركماني أن يدلّه على الطريق فأجاب قائلاً: «هناك تعاماً وراء تلك التلال التي بجهة اليسار». وعندما انصرف لنورنس عنه وثب على ظهره وتشب بينهما قتال على الأرض لعدة دقائق. كان نورنس قد مشى مسافة ألف ميل، ناهيك عن الحصى، وكاد يغشى عليه، وسرعان ما وجد نفسه في الأسفل. قال: «لقد جلس فوق بطني وسحب مسدسي ووضعني على صدغي وسحب الزناد عدة مرات. لكن قفل الأمان كان مهيئاً. كان التركماني رجلاً بدائياً لا يعرف سوى القليل عن آلية عمل المسدس، فرماه بعيداً بفرف وعمد إلى ضرب رأسي بصخرة حتى ملّ ذلك، ثم رحل بعد أن سلّبتني كل ما أملك. ذهبت إلى القرية وطلبت من أهلها أن يساعدوني في مطاردة الوغد، فلحقنا به وأرغمناه على إعادة الأشياء التي أخذها مني. ومنذ ذاك الحين أنا أحترم مسدس الكولات بشدة ولم أنخلّ عنه بعد ذلك أبداً.





حصاد عربي أصيل



فأدلتنا نقرب من المدينة المفقودة

الفصل الخامس عشر

سيدي الجمل

حاول لورنس أن يقف على كل ما له علاقة بالصحراء ومن شأنه أن يربد من تأثيره على سكانها. وكان من الطبيعي أن يكون أول شيء يقوم بدراسته هو ذلك الحيوان الغامض، الجمل، مع العلم أن قلة من الناس فقط يعرفون خواصه وصفاته بالزعم من دوره الأساسي في حياتهم. ولورنس هو الأوروبي الوحيد الذي انتقبت به ووجدت أنه يمتلك «غريزة الجمل»؛ أي الصفة التي تتضمن معرفة وثيقة بعادات الجمل وقوته وصماته العديدة. وكان عودة أبو تايه، روبن هود البدو، يمتلك هذه الغريزة بشكل غير عادي.

هناك ستة أنواع من الجمال في جزيرة العرب الوسطى، ومنها تأتي أفضل المتللات. يدعو البدو بلادهم بأسماء الجمال، ومعظم الجمال العربية ليس لها سوى سنام واحد، بل إن العرب لم يسمعوأ بالجمل ذي السنامين من قبل، وهو الموجود في آسيا الوسطى فقط، إلى الشمال الغربي من فارس، وبالذات في صحراء غوبي Gobi. إن الجمل ذا السنامين بطيء الحركة ولا يحسن الاستفادة منه سوى للتحميل. أما الجمل ذو السنام الواحد فهو المهيمن، وهي كلمة يونانية تعني الجمل الذي يركض.

والجمل في جزيرة العرب هو الثروة الرئيسية، ولا يوصف الإنسان بأنه يملك شفقاً أو مطاعم، بل بعدد ما يملك من الجمال. ومنذ أيام الثروة إلى اليوم نجد أن النسيب الرئيسي في الحروب إنما كان لا متلاك الجمال. فترى القبيلة تنقض على الأخرى وتستولي على كل جمالها، ثم ينهض رجال القبيلة المنهوبة ويمتطون خيولهم

ويتجولون في الصحراء فلا يعودون إلا وهم يسوقون أمامهم كل جمال قبيلة أخرى. وهكذا تجد الجمال الواحد قد تنقل بين ست قبائل مختلفة في مدى سنة واحدة. إن استمرار الحياة في الصحراء يعتمد على الجمال. فالعرب لا يستخدمونها لتحميل فقط بل يشربون حليبها ويصنعون من وبرها ثياباً ويذبحونها ويأكلون لحومها عندما تهرم. يعد لحم الجمال في جزيرة العرب كدهن الحوت عند الإسكيمو، لكن معظمنا يفضل أكل وجبات الدجاج.

الجمال هو الحيوان الوحيد الذي يستطيع العيش على الغذاء الشحيح في الصحراء، وإن أسنانه طويلة جداً بحيث تستطيع مضغ القصب دون أن تجرح الأسواط شفاهه أو قبة حنكته. وعلى الرغم من أن الجمال يستطيع البقاء فترة طويلة دون ماء، فإنها عندما تشرب تعوض كل الوقت الذي أمضته دون ماء. يستغرق الجمال نصف ساعة من أجل شربه، وبإمكانه أن يشرب عشرين غالوناً في المرة الواحدة. عند معالجة العطش في الصحراء من المزعج جداً أن تستمع إلى صوت اجترار الجمال لاحتياطي الماء داخل جسمه. ويلجأ العرب أحياناً في المواقف الصعبة إلى ذبح جمل وشرب محتويات معدته من الماء. يكون الماء عندها أخضر اللون وذو طعم رديء، لكن لا يمكن للإنسان أن يكون شديد الحساسية وهو يكاد يموت عطشاً.

عند تفحص الجمال، هناك أمور كثيرة ينبغي الانتباه إليها، منها طول معدة الجمال، وطريقته في رفع قوائمه، وحمل رأسه، وطول رقبته وقوائمه الأمامية وأكتافه، وحجم سنامه وشكله. ويطلب البدوي في الجمال أن يكون طويل القوائم، محيط خصره صغير، غير بدين ولا نحيل، وأن يكون سنامه قوياً خالياً من الشحم. يبدو أن الجمال يعيش على سنامه عادة، وإذا أُرهِق في العمل يختفي السنام تدريجياً. والجمال الذي لا سنام له، أو سنامه واطئ أو نحيل أو بدين، يكون أقل قيمة من غيره وستندهر حاله في فترة قصيرة. يحكم البدوي على عمر الجمال من أسنانه كما هو الأمر بالنسبة للخيل. تعيش الجمال عادة حوالي خمس وعشرين سنة، وتكون في تمام صحتها بين الرابعة والرابعة عشرة. فوق الأرض المستوية يستطيع الجمال العربي الجيد أن

بهرول بسرعة واحد وعشرين ميلاً في الساعة، ويحط بسرعة ثمانية وعشرين ميلاً في الساعة، ويعدو بسرعة تصل إلى اثنتين وثلاثين ميلاً في الساعة بحيث تصبح قوائمه كالمكابس المضخمة.

مع ذلك فإن أفضل سرعة لسفريوم كامل هي سبعة أميال في الساعة هرولة. وأما السرعة العادية في الرحلات الطويلة التي تستغرق أياماً عبر الصحراء فهي أربعة أميال ونصف في الساعة، وإذا كانت الرحلة تمتد إلى أكثر من مئة ميل، فيفضل أن يترك الجمال يسير سيراً طبيعياً. ولقد ذكرنا أن لورنس قام بعمل بطولي إذ قطع ثلاثمئة ميل في ثلاثة أيام، مما جعل البدو يعدّون هذا الأمر معجزة من المعجزات. والجمال الأصيل لا يحدث أثناء سيره صوتاً على الإطلاق، وهي ميزة تساعد البدوي كثيراً في غزواته الليلية كما أنها تساعد التجار الذين يخشون الاعتداء عليهم. يدرّب العربي دابته على عدم إصدار صوت أثناء وبإمكان قافلة كاملة أن تمرّ على بعد عشرين ياردة من خيمة ما دون أن يسمع شاغلوها شيئاً. كان شتاء عامي 1917 و 1918 قاسياً على الجمال. كان جيش لورنس في الطفيلة في شهر يناير، على ارتفاع خمسة آلاف قدم، وكان الثلج متركماً بارتفاع أربعة أقدام، مما لا يسمح للجمال بالعبور إلا إذا ترجل راکبوها عنها وحفروا لها مسراً بأيديهم. والنواقع أنّ العديد من الرجال والجمال قضوا نحبهم بسبب شدة البرد.

أرسل لورنس للمركز الرئيسي في القاهرة يطلب ثياباً ثقيلة وأحذية عالية لرجاله، وبدلاً من تسلّم ذلك وصلته برفقة يقولون فيها إن جزيرة العرب واقعة في المنطقة المدارية.

ذات صباح، استيقظت فرقة عربية على سفع النمل لتجد أن الثلوج قد غطت جمالهم الجائمة على الأرض، فقاموا بإخراجها بالمحاريص الحديدية التي يستعملونها لتحصيل حبات البين، لكنها كانت قد فارقت الحياة كلها. اضطر لورنس ورجاله إلى السير حفاة فوق الثلج لعدة أميال قبل أن يصلوا إلى معسكر حربي. وفي مرة أخرى غادر أربعة وثلاثون بدوياً القفّة على جمالهم قاصدين الطفيلة فلم يصل منهم غير بدوي واحد، ولكن كان لدى الجيش العربي الكثير من الجمال في ذلك الوقت، ويرجع الفضل بشكل جزئي للأمير زيد. كان الأتراك قد أرسلوا قبل شهر

قافلة ضخمة مروّدة بالمؤن من حائل إلى المدينة، وحائل هي عاصمة ابن رشيد في جزيرة العرب الوسطى. باغت زيد ورجاله القافلة في الحناكية Hanakich، وقتلوا ثلاثين تركيا وأسروا مئتين وخمسين آخرين، واستولوا على ثلاثة آلاف جمل، وألفي خروف، وأربعة مدافع ثقيلة وبضعة آلاف من البنادق.

يقول الكولونيل لودنس: «إن الحمل حيوان صعب المراس ويحتاج إلى مهارة خاصة في التعامل معه، لكنه يعود على الإنسان بفوائد جمّة. إننا لا نملك وسيلة للتزوّد بالطعام، وكل رجل يحمل معه مؤنه الخاصة فيضع في سرج دابته ما يكفي لسته أسابيع منذ انطلاقه من القاعدة البحرية التي يبدأ الغزو منها. وهذه المؤن التي تكفي صاحبها ستة أسابيع مكونة من نصف كيس من الطّحين بزنّ خمساً وأربعين ليبرة، أما المرقّهون فيحملون معهم بعض الأرز. وكل رجل يقوم بعجن العجين وخبزه بنفسه وتدفنته على رمال القار. كما يحمل كل شخص حوالي نصف لتر من ماء الشرب بما أن الجمال تحتاج إلى الشرب مرة كل ثلاثة أيام، ولا داعي لأن نحمل معنا أكثر مما تحمله جملنا. لم يشرب البعض مائتين البئر والآخر، لكن أولئك هم الأقوياء، أما الآخرون فكانوا يشربون الكثير عند كل بئر ثم يشربون عند منتصف اليوم الجاف. في انقضي شديد الحرارة يمكن للجمال أن تقطع مسافة مئتين وخمسين ميلاً بين الشربة والأخرى، بما يعادل ثلاثة أيام بلياليها من السير المتعب.

«لست الأرض بالجفاف الذي توصف به، بل كان هناك دائماً ماءً أكثر ممّا نحتاج. لم تكن الآبار تبعد عن بعضها أكثر من مئة ميل. وإن معدل المسير اليومي يبلغ خمسين ميلاً وفي حالات الطوارئ يصل إلى مئة وعشرة أميال في اليوم.

«كان طعام الستمّة أسابيع يكفينا لقطع أكثر من ألف ميل بعيداً عن المضارب، وكان أيضاً أكثر ممّا نحتاج حتى في بلد واسع مثل جزيرة العرب. بالنسبة لي، وقد كان ركوب الجمال مؤلماً في البداية، أستطيع أن أركب لمسافة ألف وخمسمئة ميل في الشهر دون أن أتزوّد بالطعام ثانية، ولم تكن نواجه الخوف من المجاعة أبداً إذ كان كل منا يركب مئتي ليبرة من اللحم الذي يمكن الحصول عليه، وبالمثل كنا عندما نجوع نتوقف

لأنكل أضعف جمالتنا. إن الجمال المتهك لا يقدم طعاماً وافياً لكن ذبحه أهون من ذبح الجمال البدن، وعلينا أن نتذكر أن قوتنا المستقبلية تعتمد على عدد الحصال القوية التي استهتكناها. تعيش الجمال على الرعي أثناء المسير (ولم تقدم لها الحبوب أو العلف أبداً). وبعد ستة أسابيع تكون قد نحلت ويتوجب عندها إرسالها إلى المرعى لتتراخ بضعة أشهر بينما تستجد بقبيلة أخرى لاستبدالها، أو نجد دواب ركوب جديدة.

نقول الروايات إن منشأ الخيل هو جزيرة العرب، إذ توجد هناك أجمل الخيول وأكثرها تناسقاً. مع ذلك فهي لا تعد شديدة التحمل، وليست الأسرع على الإطلاق.

يفتخر العرب بخيولهم ويقدرنها كثيراً، إنها حيوانات اليفة حقاً ومن الشائع أن تراها تشغل الخيمة نفسها التي يسكنها سيدها. يعود أجداد بعض السلالات إلى القرن الخامس، وبأدراك ما تباع الأفراس ذات الأصوار الرفيعة مع أن خيول الاستيلاء تهدي أحياناً للغرباء المتسببين. يقال إن الأثني، سواء أكانت فرساً أم ناقة، لها قدرة على التحمل تفوق الذكر. يقوم العرب بوضع الثريد على حوافر خيولهم حتى لا تنزلق على أرض الصحراء الحارقة، ويضعونها لحم الداعر المسنوق لتقوى أجسامها. نادراً ما يقدم لها الماء حسب رغبتها، حتى المهور، يقدم لها الماء بمقادير قليلة حتى تصبح قادرة على تحمل العطش فلا تعاني كثيراً عند السير في الأجزاء القاحلة من الصحراء العربية. يبعد الكثير من حفر الماء عن بعضها البعض بمسافة خمسة أيام من السير. لا يستطيع الحصان بالطبع قضاء هذه المدة دون ماء بينما يستطيع الجمال ذلك، تحرى الحصان العربي يسير إلى جانب الناقة ويشرب الحليب الخاص بها، وهكذا يتمكن من الصمود حتى الوصول من حفرة ماء إلى الأخرى.

لم يكن ما ذكرته سوى معلومات بسيطة عن الحصان والجمال مما يبدو بديهياً للبدو والخبير بهما. أمّا تورنس، وبعد سنوات من خبرته في الصحراء العربية، فقد اعترف لي بأنه في كثير من الأحيان لا يستطيع التعامل مع جملة بشكل صحيح تماماً.





تجولنا أياها، لكننا لم نبلغ نهاية الهياكل والأبنية المنحوتة في الصخر الضئيل



«خرابة فرعون»

الفصل السادس عشر

عبد الله المجذور وقصة فراج وداود

عبد الله المجذور رجل أحمر قصير القامة يحتل منصب قائد الحراس الخاصين بلورنس، وباترغم من مظهره النحيل الهادئ، فهو من أشجع الخيالة العرب وأفضل من ركب جملاً. يسره كثيراً أن يواجه عشرة رجال بمفرده. علاوة على شجاعته الفائقة، فهو جندي ممتاز يعرف كيف يتعامل مع لأفراد الحرس الخاص صعبى المراس. وبينما كان لورنس يحث حرسه على الاستبسال ويغريهم بالذهب والمجوهرات والثياب الجميلة إن نجحوا في مهمتهم، كان عبد الله يهددهم بالضرب ويثو عددهم إن فشلوا في عملهم، ولا شك أن طريقة البدوي عبد الله الترهيبية تفوق بتأثيرها طريقة لورنس الترفيحية. أما عبد الله نفسه فكان أهم ما يفخر به هو أنه قد عمل في خدمة أمراء الأبادية جميعهم، وقام كل واحد منهم بسجنه.

كان حرس الكولونيل لورنس يتألف من ثمانين بدوياً انتقاهم بعناية من بين الذين اشتهروا بانسجاعة، وعرفوا بقوة الجند والضرب مما يمكنهم من التركوب ليل نهار إذا دعت الضرورة. كان يطلب منهم التهيؤ لغزو الأتراك في أية لحظة، والبقاء إلى جانب قائدهم في كل رحلة يقوم بها. لم يكن لورنس يقبل أيأ منهم حتى يختبره بأن يركب الجمل، وهو يهرول، بيد واحدة ممسكاً ببندقيته باليد الأخرى. خلاصة القول كان هذا الحرس الخاص مجموعة استثنائية من الرجال الشجعان المرحين ذوي الشخصيات المتميزة.

كان أفراد هذه المجموعة محلصين لقائدهم الإنكليزي البدوي، ولكن حتى يتأكد

لوزنسي من عدم تفكيرهم في التآمر عليه لم يتق من كل قبيلة سوى رجل واحد أو رجلين على الأكثر. وكان كل بدوي يتمنى أن يرضى عنه لوزنسي ويضقه إلى حرسه الخاص لأنه كان يصطحبهم في كل الغزوات وحملات نسف الجسور وتدمير القطارات، ولأن الرحلات التي تحوي الكثير من الأسلاب والإثارة هي المحببة إلى قلوب البدو. بالإضافة إلى أن روايتهم أعلى من تلك التي تعطى للمتطوعين الآخرين في الجيش العربي، ناهيك عن الثياب الغالية التي يحصلون عليها إذ يتفوق كل روايتهم على الثياب التي تحتشد على أجسامهم فتحيلها إلى ما يشبه زهرة الحدائق الشرقية.

هناك قوت شائع بينهم أن يحسن للبدوي أن ينفق ذمه كله على الثياب والاستمتاع بالحياة قبل أن يفارق هذه الدنيا. والواقع أن حياتهم كانت معرصة للأخطار أكثر من غيرهم ضمن جيوش فيصل النظامية واللانظامية، إذ كان لوزنسي كثير ما يرسلهم عبر الصحراء في مهام خطيرة. كان كثير ما يرسلهم إلى خطوط الأثر الكلبومو بالنجس، وهي مهمة كانوا أصلح الناس لها ما دام لوزنسي قد اختارهم من كل إقليم من الأقاليم الواقعة بين مكة وحلب. وكان لوزنسي يقوم بنفسه، بما يزيد عن حصته، بهذه المهمات فائقة الخطورة.

إن مرافقة لوزنسي وحراسه في إحدى الحملات لهي تجربة رائعة بحق. اعتاد الشريف الشاب أن يركب في المقدمة بوجهه الأتكلو سكسوني، مغطياً رأسه بغطاء أخاذ ومرندياً الثياب الجميلة. وإذا تم يكن المسير سريعاً، كان يقرأ كتاباً ويتسم بين الحين والآخر لسخرية أريستوفانس Aristophanes الأصبلة. ثم يلحق به بقية الحرس وأنباعه من البدو في صف طويل غير منتظم، بشبابهم العزركشة يتعابنون مع منية النجمال. وسواء كانوا يسرون وسط الزمان شرقي العقبة أو المناظر الجبلية لمؤاب وأدوم Edom، فقد كانوا لا ينقطعون لحظة عن الغناء وألوان المزاج المتعددة.

كان هناك مقاتل - ضاعر يسير في طليعة الموكب وآخر في المؤخرة. يبدأ أحدهما بنشأ مقطع فيرده كل رجل في الصف الطويل بدوره، حتى يصل إلى آخر الصف. هناك أعان حربية، وأغان نجعل الجمال تخفض من رؤوسها وتسرع في سيرها. تكون

المقاطع في الأغلب تعنيقات على شؤون الحب لدى بعض الرجال أو في مدح الأمير
فبصل أو سبيدي لورنس.

في ذات يوم غنى رجال الحرس أغنية يطلبون فيها أن يزداد الراتب جنبها في
النشهر. وفي مرة أخرى أنشدوا قائلين إن غطاء رأس لورنس لا يليق بسقامه والأفضل
أن يشتري آخر ويقدم لنا العتيق. هي الحقيقة يكون غطاء رأس لورنس من أجمل ما
رأت أعينهم لكنهم يريدون عليه إياه.

يختلف اللحن في الموسيقى العربية عن الحاننا، لذلك تبدو الأغاني العربية
للغربي غير المعتاد على سماعها نوعاً من المزيج المتنافر. مع ذلك كان العرب
يطربون للألحان الغربية وفروا جداً بالفنوغراف الذي جلبه لورنس من القاهرة.
شجع ذلك الأمر رقيباً اسكتلندياً في العقبة على إحضار بعض الأدوات وتأليف فرقة
موسيقية، وقام بمساعدة العرب على تأليف نشيد وطني خاص بهم وعلمهم عرف
Annie Laurie و Auld Land Syne. كان اللحن الاسكتلندي مقبولاً نوعاً ما بالرغم
من أن كل آلة موسيقية كانت مختلفة في أدائها وقد اختار كل رجل المقام الخاص به؛
وهكذا كلما كان العرب يتدربون على نشيدهم الوطني كنا نفضل السباحة والابتعاد
إلى جزيرة نائية في الخليج حيث نخوض تحت أنقاض قلعة صليبية، وحيث استحم
غودفروا دي بوتيون وفرسانه قبل ألف عام.

كانت روح الدعابة عند أفراد الحرس الخاص البدوين تتجلى في نكات عملية.
إذا حدث ونام أحدهم على سرجه، كان زميله يركض بجملته ليصدمه ويوقعه أرضاً.
وكلما سمح لهم سيدهم بزيارة القاهرة أو مركز أكتبي، كان معظمهم يقعون في أسر
الأمير فبصل بسبب ما يقومون به من مزاح وحشي وفوضى عامة. في الحقيقة لا يوجد
من يستطيع التعامل مع هؤلاء «الشياطين»، كما يسمونهم، سوى لورنس.

عاد لورنس مرة من مصر إلى العقبة وأراد الانطلاق في مهمة سرية دون إبطاء.
وكالعادة وجد معظم رجاله الخاصين في النشع، من بين السجباء كان هناك رجالان
تجاعان متميزان اسمهما فزاج وداود. أرسل لورنس على الفور إلى الشيخ يوسف،

وهو الحاكم المدني للعقبة، يسأله عما حدث، صحك يوسف وأطلق شتية ثم ضحك مرة ثانية.

قال: «كان لدي ناقة بيضاء جميلة، وفي إحدى الليالي سردت بعيداً في الصباح التالي سمعت جلبة كبيرة في الطريق، ولما خرجت وجدت الجميع في المتوق يضحكون بشدة على منظر حيوان ذي قوائم زرقاء ورأس أحمر. عرفت في الحال أنها ناقتي، وعثر على فراج وداود بغسلان عن ذراعيهما الحنة الحمراء والنبلة الزرقاء، مع ذلك أنكرا معرفتهما بناقتي البيضاء الجميلة ونضربا إلى الله ليسامحنني على شكّي بهما».

كان فراج وداود معروفين في ابادية بملازمتيهما لبعضهما في أراضي يحتاج المرم بها إلى صديق حميم يحمله لم يكن دافيد وجوناثان (داود ويهوئان) بأكثر قرباً من بعضهما من فراج وداود، إلى أن جاء ذات يوم هاذم اللذات، ومات داود بسبب الحنّ في العقبة وأصبح فراج بائساً جداً إلى أن انتحر في يوم من الأيام بالتهجوم ببيعه بين صفوف الأتراك.

كان بعض رجال لورنس يرافقونه أحياناً إلى القاهرة. وكان الذين يقع عليهم الاختيار يلبسون الثياب الزاهية وبصبغون شعابهم بالأحمر ويكتملون بالكحل الأسود ويشبعون أجسامهم برائحة العطور، ثم يحملون أسلحة متنوعة الأشكال ويتركون لورنس متى وصل إلى القاهرة ليطوفوا في شوارع القاهرة متباهين بطبلون النظر إلى المصريات المنقبات ويترددون على المخازن الخاصة ببيع الثياب، فلا يبقون قرشاً في جيوبهم إلا وينفقوه مستمتعين بذلك أيما استمتاع.

وفي ذات يوم أخذ لورنس معه عبد الله، كبير حراسه، لزيارة الجنرال ألبي في الرملة. وبينما لورنس منشغل بالحديث مع القائد العام، أخذ الحارس العربي يتجول وحده. وبعد ست ساعات بلغ لورنس تلفونياً أن عبد الله مقبوض عليه لأن رئيس الشرطة شك بأن يكون قاتلاً مأجوراً في نيته قتل الجنرال ألبي. أفا عبد الله فتحدث مع المترجم قائلاً: إنه أحد «أبناء» سيدي لورنس وطلب اعتذاراً رسمياً لأنه أهين بالقبض عليه. وفي تلك الأثناء اتهم كل البرتقال في مقر الشرطة الرئيسي.

كان عقاب أفراد الحرس الخاص على أفعالهم أمراً صعباً، لأنه من النادر أن يتمكن من أسر البدوي وهو على جسده، وهو لا يبالي أيداً بعبارات التعتيف. لكن يبدو أن الصرب المشرح من قبل عبد الله هو الحل الفعّال. أمّا العقاب الشائع بين البدو فهو أن يرمى على رأس البدوي خنجر قصير بحيث يخترق الشعر ويحدث جرحاً سطحيّاً تكفيه مؤثماً جداً في جلدة الرأس. وإن البدوي الندي يعرف خطأً يجرح رأسه بهذه الطريقة ثم يأتي، والدّم يسيل على وجهه، إلى الشخص الذي أخطأ بحقه ويطلب منه العفران.



مركبة أباعرنا صوب المشرح الواسع *



الهيكل ذو الطوائف الثلاثة

الفصل السابع عشر العين بالعين والسن بالسن

لا يزال قانون العين بالعين والسن بالسن والحياة بالحياة سائداً في جزيرة العرب، ولا تزال الضغائن مستمرة منذ قرون عديدة. نادراً ما ينجو القتال من عقوبة القتل ولا بد لأقارب القتيل من العثور على القتيل في مكان ما من الصحراء والاقنصاص منه عاجلاً أو آجلاً. والتسبيل الوحيد للنجاة هو أن يترك سكنى الخيام ويقيم في المدن، ولما كان البدوي يعتقد أن الرجل الذي يقيم في القرى أو المدن أقل منه شأنًا فمن الشار أن تراه يعمد إلى الثأر من خصمه إذا قرَّ إلى المدن.

جرت عادة أن يعاقب البدوي إذا قتل بدويًا آخر سواء صدقة أو عمداً، وإذا حدث ذلك يهرب القتيل ويرسل الاعتذارات والإيضاحات اللازمة مع المرسل. لقد تورط أحد حراس لورنس الخاصين بقضية من هذا النوع. ففي إحدى الغزوات دخل بدوي إلى محطة الفطار عبر النافذة وحاول فتح الباب من الداخل. في تلك الأثناء كان بعض من رفاقه يحاولون نسف الباب ليفتحوه، فقام أحدهم بإطلاق رصاص يندقته من خلال أحد الألواح، وعندما فتح الباب أخيراً كان الرجل الذي دخل من النافذة مستجى قتيلاً. ما كان من البدوي الذي أطلق الرصاص إلا أن أسرع بين الحشود وركب حصانه ثم انطلق يعدو مبتعداً.

لكن يمكن الآن للقتال أن يتجنب عقوبة الموت بدفع الأضرار إذا قبل أقارب القتيل بأخذ المال عوضاً عن الحياة، في هذه الحالة قام الحراس بجمع مبلغ من المال قدره مئة جنيه أو سلوه إلى الأقارب وتمت تسوية الأمور. يتروح معدل الغلبة للقتيل

العادي بين مئة إلى خمسمئة جنيه. كان هذا الرجل سيئاً، لذلك عذّر رفاقه مبلغ المئة جنيه أكثر من المقبول. أما انصرفاء (ممن ينتسبون إلى النبي محمّد) فتكون قيمة دمهم أعلى من غيرهم من العرب. إذا حدث وأن قتل رجل واحد منهم فلا بدّ له من أن يدفع ما لا يقل عن ألف جنيه، إلا إذا كان قد عقد صفقة مع عائلة الضحية قبل تنفيذ العملية.

لم يصادف لورنس أية خيانة ضده في القبائل التي أقام معها صلات وودّ صداقة، وحتى مع القبائل المعادية لم تحدث سوى حادثة واحدة فيها خرق خطير لتقاليد حسن الضيافة. حدث أن عبر لورنس وحده خطوط الأثر الذي يُستفقد الأحوال في مخيم العدو، ويزن ضيماً على شيخ قبيلة بني صخر التي كانت موالية للأتراك والألمان. سوّلت للشيخ نفسه الخروج على تقاليد بدو الصحراء وفوائدهم غير المكتوبة وحاول خيانة ضيفه. أرسل رسولاً إلى القوات التركية، التي كانت على بعد عشرة أميال، وفي الوقت نفسه حاول إقناع لورنس بالبقاء في خيمته. كان في نيته خيانة الضيف طمعاً في مكافأة الخمسين ألف جنيه. لكن لورنس شعر فوراً أنّ هناك مؤامرة تدبر له في الخفاء فترك مضارب بني صخر في الحال. أما شيخ القبيلة، فعلى الرغم من كونه رئيساً لقبيلة معادية للعرب المتعاونين مع لورنس، فقد عاقبه قومه على خيانتة لضيفه بدمس الشتم له في القهوة. لقد أحسوا بالخزي والعار بسبب فعنة شيخهم.

إن قوانين الصحراء - غير المكتوبة - لها نفوذ القوانين المكتوبة في العالم كله، بل هي بمثابة الأمور الدينية العظمى. إذا كان الرجل قد أمسك برجل آخر في مقاطعته وكاد أن يقتله، يمكن للضيعة أن ينقذ نفسه بقول «دخيلك»، وهي كلمة عربية تعني «لقد طلبت منك الأمان»، أو «أنا في خيمتك» وعند موقد قهوتك كضيف». تُعدّ الحماية بين البدو واجباً مقدساً، وإنّ معنى هذه الكلمة الصحريّة «دخيلك» هي إحدى نقاط الاختلاف بين البدو وسكان المدن العرب في سوريا، يستعملها السوريون بدلاً من كلمة «من فضلك» التي بعدها البدو تقيصة في أسلوب الضيافة.

من ضمن المهام النضبة التي تحمّلها لورنس، أنّه لم يكن مضطراً إلى كسب تأييد القبائل البدوية وحسب، بل العرب الذين يقطنون المدن والقرى أيضاً. لقد تمكن من

تحقيق ذلك يأخذ الاختلافات بين الضيفين بعين الاعتبار، وبالتالي باستخدام طرق مختلفة. البدوي شخص صافي الضلالة ويعيش اليوم بنفس الطريقة التي كان يعيش بها قبل ألف سنة، عندما كان النبي إبراهيم والنبي لوط يتجولان في المنطقة بعضا الناس. أما ساكن المدينة فهو مزيج من كل الأجناس في الشرق ولديه نوع من التعبد في سلأته. والبدوي رجل رياضي يحب الاستمتاع بالحياة الشخصية، وهو شاعر بالفطرة. أما الفروي فتغلب عليه البلادة والقذارة، قلما تستطيع الوثوق به، وهو مادي جداً يسعى دائماً وراء المال. هناك اختلافات حتى في الحياة اليومية، في شكل التحيات على سبيل المثال. يظهر أهل المدن احترامهم للتشريف وذوي المكانة العالية بثقل أيديهم، أما البدو فيعدون هذا الأمر انتقاصاً لكرامة ولا يفعلونه إلا عندما يرغبون في التعبير عن عميق احترامهم للشخص.

على الرغم من حصول لورنس على دعم العرب من أهل المدن، فإن البدو هم الذين أشعلوا نيران الثورة العربية، وهم الذين كانوا السبب في نجاحها بمساعدة فيصل ولورنس. وقد عرف لورنس كيف يستغل غريزة الغزو والسلب المتأصلة في نفوسهم في حملاته ضد الأتراك. والبدوي الضميم يكتفي بالنهب ويكره القتل ويشمئز من رؤية الدماء وهو لهذا يسلب الغريب ولكن لا يفكر بقتله. وبينما كان العرب الأصليون يتمتعون بحضارة من أرقى الحضارات في البداية مع ما فيها من الفلسفة والأدب، كان سكان الجزر البريطانية يعيشون عبثة الهمج غير المتحضرين. والعرب من بين الشعوب القليلة التي عجز الرومان عن فهمها. أما حياتهم البسيطة فتعزى إلى ميلهم للتنقل من مكان إلى مكان سعياً وراء العشب والماء. هم يتجولون على ظهر الأرض ويرتحلون مع جمالهم عبر التلال الرملية وينامون تحت قبة اتسماء ويعيشون الحياة التي عاشها أجدادهم في بداية الخليفة.

كان لورنس يدفع للجنود النظاميين وغير النظاميين الزواجب العالية بالنظام كما يدفع للعرق المحلية في أي مكان من العالم. وكانت الزواجب تصنف من الحكومة البريطانية بشكل قطع ذهبية. وكان لورنس يحتفظ بكيس أو كيسين من الذهب في خيمته، وكلما

جاءه شيخ يطلب مالاً، يده لوزنس على الكيس فيقبض الشيخ حفنة من المال شريطة أن يكتفي بقضة واحدة. وحدث مرة أن جاءه ذات صباح «مارد» من قبيلة الحويطات يزيد طونه على ستة أقدام وكان لورنس يظن أنه سيكتفي بفنجان من القهوة وسجادة، لكن هذا الزعيم استعان بالبلاغة فأخذ يفيض في شرح الخدمات التي قدمها للملك حسين. فهم لوزنس ما كان يعني من وراء هذا الحديث ودلّه على مكان الكيس في إحدى زوايا الخيمة وطلب منه أن يأخذ حاجته منه. فام الشيخ وعاد يحمل في يده أكبر مبلغ ممكن أن تحمله يد بشرية من الليرات الذهبية، نعم عاد يحمل مئة وثلاثة وأربعين جنبها في قبضة واحدة.

يُدّش أفراد القبائل البدوية كثيراً لسوء الضيافة الذي يشهدونه عند سكان المدن، ويحتقرونهم لأنّهم. فيما مضى، كما هو الحال اليوم أيضاً، كان البدو يفخرون بأربعة أمور: بشعرهم وفصاحتهم وفروسيتهم وكرمهم، وهناك قصص عربية كثيرة تمجد ونحبي فضيلة الكرم. تتحدث إحداها عن ثلاثة رجال كانوا يتجادلون في المسجد الحرام عند الكعبة حول أكرم رجل في مكة.

أخذ أحدهم يمدح فضائل عبد الله ابن أخي جعفر عم النبي محمد. وامتدح الثاني كرم قيس بن سعيد. وأعلن الثالث اسم عربية الشيخ المسمّى كأكثر الرجال كرمًا في مكة. معاً للتزاع وسفك الدماء، اقترح أحد الموجودين في المكان أن يذهب كل واحد منهم إلى الرجل الذي زكاه ويطلب منه مساعدة ما ثم يعود إلى المسجد حيث تقيم الأمور ويفصل بها. وافق الثلاثة ومضوا إلى حيث اتفقوا. ذهب صديق عبد الله إليه فوجده يركب هجينة ليذهب في رحلة بعيدة، فاستوقفه قائلاً: «يا ابن أخي عم رسول الله وأبا الكرم، إنني مسافر وقد أصابني فاقة شديدة». فما كان من عبد الله إلا أن رجاه بأن يأخذ جملة بكل ما على ظهره. أخذ الرجل الجميل ووجده محملاً بعباءات حريرية وخمسة آلاف قطعة ذهبية.

ذهب الثاني إلى قيس بن سعيد فأخبره الخادم بأن سيده نائم وطلب إليه أن يخبره بما يريد. قال الصديق إنه محتاج وجاء إلى قيس يطلب مساعدته. أجاب الخادم بأنه

يفضل أن يلبي حاجة الرجل بنفسه على أن يوظف سيده، ثم أعطاه كيساً فيه عشرة آلاف قطعة ذهبية، وهو كل المال الذي في الثَّار، وطلب منه أن يذهب إلى الخان من أجل أن يأخذ جملاً وعبداً. عندما استيقظ قيس أخبره خادمه بما حدث فسُرَّ قيس كثيراً ومنع الخادم حريته، مع ذلك وبَّخه لأنه لم يوظفه وقال: «والله، لو أنك ناديتي لأعطينه أكثر من ذلك».

أما الرجل الثالث فقد ذهب إلى عربة والتقى بالشيخ العسّر خارجاً من منزله في طريقه إلى الكعبة لأداء صلاة الظهر. كان له عبدان يمسكان به ويساعدانه على السير، ولما علم بغصة صديقه أفلت العبدان وصقَّ يديه شاباً حظه السيئ إذ لم يكن يملك أي مال، لكنه عرض على الرجل أن يعطيه العبدان. رفض الرجل العرض، لكن عربة أصرَّ قائلاً إنه إذا لم يأخذهما سيضطر إلى منحهما حريتهما، ثم تركهما ومضى يستند إلى الحائط. بعد عودة الرجال من معامرتهم اتفق الجميع على أن عربة هو أكرم الثلاثة، وقالوا بحرارة: «جزاه الله خيراً».

من المحتمل أن تكون هذه anecdote مستندة إلى الواقع، إذ يرى الإنسان أمثلة عدة لروح الكرم، هذا الكرم الذي يزيد من مقدار الإعجاب بهؤلاء الناس. كان لورنس يعلم تماماً مكانة هذه anecdote بين العرب، لذلك جعل نفسه يتفوق فيها بالإضافة ضِعْفاً إلى الشجاعة وقوة التحمل والبطولة، وكل ذلك جعل البدو يقدرونه أيما تقدير. بعد النجاح الأول، الذي أقله لأن يكسب ثقة حكومته، جلب قافلة محملة بالهدايا النفيسة النادرة، وأدهلهم بكرم يفوق الأساطير الشعرية التي كانت تُنشد في أرجاء المحجيم ممتدحة كرم الخلفاء الأوائل.

إن البدو مولعون بشكل خاص بساعات اليد والسدسات والمناظير، لذلك كان لورنس يجلب جملتين أو ثلاثة محمَّنة بهذا النوع من الهدايا ليوزعها عليهم. وكان يعطي رجاله من خمسين إلى مئة رصاصة في اليوم، وكانوا يطلقونها في الهواء بغضِّ النظر عن كونهم يقاتلون أم لا. مع أنه من المعروف في أي جيش أنه إذا أطلق جندي رصاصة واحدة دون إذن القائد يعرض نفسه للمحاكمة العسكرية. أما العرب فكانوا يطلقون الرصاص

على كل طائر يرونه، وفي أحد الأيام، عندما وصلت إنباعة في القبة أن معان قد سقطت في يد الجنرال تورى بك قائد الأمير فيصل، كادت تُصمّ أذاننا من آلاف الصلوات التي أطلقها البدو في الهواء تعبيراً عن الفرح. وإذا صادف أن مرّ البدو القادمين إلى القاعدة الرئيسية عند ساحل البحر الأحمر بأحد القباط البريطانيين يتمشى ويده سوط أو عصا، يهزّون رؤوسهم ويربتون على لحاهم قائلين: «ملائكة مجانيين! ملائكة مجانيين!» أما إذا كان الضابط يتجول بينديته مطلقاً الرصاص على كل صخرة أو طائر يراه، فيعلقون بقولهم: «هؤلاء الحمقى ليسوا بحمير إذن. بل يبدو أنهم عقلاء».

كان البدو يرفضون تنظيف بنادقهم بشحم الحزير لأن الحزير حيوان نجس. فكان على لورنس إما أن ينظف كل بندق الجيش العربي بنفسه أو أن يجلب للبدو بنادق لا تحتاج إلى تنظيف. ولقد حلّ المشكلة بأن أحضر لهم بنادق ألمانية من التيكال كان آتشي قد سلبها في أثناء هجومه على فلسطين، كان من الممكن أن تبقى هذه البنادق سنة كاملة دون الحاجة إلى تنظيف.

البدو مستقل بطبيعته لأنه تمتّع بحرية الصحراء آلاف السنين. أما النظام، والطاعة فكلّمتان غير موجودتين في قاموسه. لم يخضع أشاع لورنس بالطّبع لاختبارات في ساندهرست Sandhurst أو وست بوينت West Point نكثهم كانوا يعرفون كيف يقاقلون الأتراك ويصدّونهم عن بلادهم، وكانوا يعدّون أنفسهم مساوين في الرتبة لآتشي جنرال.

هؤلاء إذن هم رجال لورنس الذين اضطروا إلى تحويلهم من تجمعات قبلية بدائية إلى جيش ضخم قادر على هزيمة القوات عالية التدريب الحديثة بالضباط الأفاضل. كان لابد من تنظيم كل شيء منذ البداية، فلم يكن هناك مركز للتزويد. وعندما كانت الفرق غير النظامية تخرج في حملة ما، كان كل رجل يحمل معه كيساً صغيراً مليئاً بالطحين وبعض البرّ، كانت كل الوحدات متعائلة، وعاش الجيش وغافل على الخبز المخبوز على الرماد. ثم يكن العرب يأكلون كثيراً في الوجبة الواحدة، لكن لورنس كان يحمل في عباءته قطعة خبز يقضمها وهو يسير في مقدمة الصف.

كان البدو ينظرون إلى الطعام المعلب كمادة مريبة، وفي أحد الأيام، عندما كان الميجور مينارد Maynard يرافهم في رحلة عبر الصحراء إلى الشمال الشرقي من العقبة، أعطى علبة من لحم البقر المحفوظ لكل رجل منا. تناول البدو اللحم برؤء وبدا أنهم يشكون في أمره. اكتشفنا بعد ذلك أن العرب كانوا يرتابون بعلب اللحم لأسباب دينية وليست صحية. كان من عادة العرب عندما يذبحون شاة أو أي حيوان آخر أن يقولوا وهم يدخلون السكن «بسم الله الرحمن الرحيم» وعندما كانوا يفتحون العلبة كانوا يرددون الكلمات ذاتها خشية ألا يكون عدال شيكاغو قد أذوا الطفوس وفق الشريعة الإسلامية.

باستثناء هذه الحوادث القليلة، لا يعد البدوي العادي منعصباً دينياً. وهو لا يطبق الأركان الأساسية للإسلام. فهو لا يصوم ويقول «إننا دائماً لا نجد ما نأكله». وهو لا يستحم ويحتج بقوله «لا يوجد لدينا الماء الكافي للشرب». وهو نادراً ما يصلي ويقول «إن صلواتنا لا تستجاب، فلم نصلي؟»

لكن على الرغم من هذا كله، فالبدوي رجل شريف ذو طبيعة مرحة.



«مدينة صحرية تخبي في جزيرة العرب»



«أهلي في البيت»

الفصل الثامن عشر

مدينة وردية عمرها من عمر الزمان

من بين فصول الحرب الرومانية التي حدثت في أرض ألف ليلة، كان هناك معركة جرت في مدينة مهجورة، عريقة في القدم. ظلت نائمة زهاء ألف سنة ثم استفاقت. ولعمرة على ذوي المدافع والاشبكات بين الأتراك والعرب. وظهر على المسرح من وراء الأطلال، النبي ترجع إلى عصور قديمة، لوزنس عالم الآثار والعبري الحربي. بخلق الزحالون الضلال، الذين غامروا بالوصول إلى هذه البقعة من الصحراء العربية، اسم المدينة الوردية التي عمرها بعمر الزمان، وهي منحوتة في جبال أدوم الجميلة، وترقد في أحضان البراري بالترب من جبل هور Hor، حيث يعتقد أن بني إسرائيل قد دفنوا قائلهم العظيم هارون.

حدثت المعركة في الواحد والحشرين من شهر أكتوبر سنة 1917 بعد سقوط الخربة بقليل. وقد كان لهذه الموقعة أهمية حربية، لأنها قررت أن قيام بلاد العرب المقدسة تتسورة على الأتراك لا بد أن تكون نتيجة المحنة اجتياح سوريا، وهو حدث مهم عالمياً قد يغير تاريخ الشرق الأدنى كله. في هذه المعركة اشتبك لوزنس وأصحابه البدو مع الأتراك فوق النقص الجبلية ذاتها التي قام أمصياه Amaziya، ملك بني إسرائيل، بإنشاء عشرة آلاف نسمة من فوقها إلى الوادي في الأسفل. نجح لوزنس في حماية المدينة وحصد الأتراك بنفس الطريقة التي حماها بها الأنباط ضد جيوش الإسكندر الأكبر قبل المسيح بلائمة عام. ولقد أوقع لوزنس الأتراك في ذات المضيق الذي دوت فيه أقدام تراجانوس Trajan التي هاجمت المدينة قبل ألفي عام.

وإني بعد أن أصغيت مشدوهاً إلى وصف لورنس الممنوع للفصوص المنحوتة في الضخور الحية حيث خيم هو وأصحابه، لم يسعني إلا أن أستاذن سمو الأمير فيصل لسمع لي باستكشاف جبال أدوم. لم ينلطف سمو الأمير بالشماع فحسب بل ذهب في كرمه ونبله إلى أبعد من هذا، إذ زودني بفريق من أقدر رجاله عهد إليهم بحراسني من شرّ اللصوص ودوريات العدو. غادرنا النغفة وسرنا مسافة تقرب من ثمانية وثلاثين ميلاً في وادي إضم حتى وصلنا القوية، إحدى مراكز فيصل الحربية. أمّا وادي إضم فهو معبر ضيق نكتنفه الجبال الضوائية المسننة ذات التجاويف السوداء التي يراوح اتساعها بين عشرين إلى مئتي قدم، نشأت عن ثوران البراكين منذ زمان سحيق. ينتهي هذا الوادي إلى سهل موحل يذكرنا بأراضي داكوتا وهضاب بلوشستان الوسطى. هناك نزلنا في خيمة مخروطية لعدة أيام قبل أن ننابع مسيرنا عبر سلاسل الجبال المجدبة والمناطق الواسعة الصحراوية الرملية. صعدنا بعد ذلك في طريق متعرج شديد الميلان حيث تعثرت جمالنا على ركبها أكثر من مرة. بعد أن وصلنا إلى قمة «نجب»، غادرا الطريق عبر هضبة عشبية إلى موقع المعركة حول آبار «أبو النسن».

وجاء الجنرال نوري باشا، أحد قواد جيش فيصل، لمقابلتنا والترحب بمقدمنا. توقفنا بضع دقائق لشرب وإياه القهوة العربية، وعندما غادرنا خيمة الجنرال رأيته يسرع وينزع المشجادة العجمية الفاخرة التي كان جالساً عليها ويلقي بها على ظهر جملي بالرغم من اعتراض الشديد، لكنه ألخ بأن آخذها وأستخدمها كوسادة. ثم قدم عصاء وهي مصنوعة من جلد فرس النهر، وكان قد أهدها إليه ملك الحبشة وطلب مني أن أستخدمها في قيادة هجيني. وبعد بضعة أميال من آبار أبو النسن، فُعث إلينا الأمير فيصل رسولاً برسالة توصية إلى قائده في بسطة Busta. كان هذا الرسول دأكن اللون يشبه الكايش كيد، يعينه السوداوين اللامعتين وشازبيه المفتولين المتوحشين. كان غطاء رأسه أحمر اللون مطرزاً بزهور صفراء كبيرة، أما ثوبه فكان صنارخ الألوان كقميص يوسف، كما علق في حزامه مسدساً داقبضة لؤلؤية وخنجرين يبدوان شريري

المظهر . ونشدة ما كانت دهشني إذ خاطبني بلهجة نيويوركية وأخبرني أنه قضى أربعة عشر عاماً في أميركا يشتغل في معمل للشعائر .

أما الزجل فقد ولد في قرية من قرى جبال لبنان واسمه الحقيقي حسن خليل، وفي نيويورك استبدله باسم تشارلي كيلي . في أثناء الحرب العالمية كان يعمل في شركة توماس كوك وأولاده في إسطنبول ونجند فوراً في الجيش التركي . لكنه في موقعة عزة هجر الجيش التركي وانضم إلى القوات الأسرالية واشتغل كمترجم ، ثم خدم في الجيش البريطاني في مصر ، وانتقل أخيراً إلى الجيش الحجازي لما توطدت صلتنا معاً أخبرني تشارلي بأنه ليس مسلماً بل من طائفة الروم الكاثوليك، ثم رجاني بالألا أكشف سره لأي شخص من أفراد القافلة، إذ يخشى أن يقتل من فوره على يد أحد رفاقه المتعصبين .

أثناء جلوسنا حول نار المعخيم، أمتعت تشارلي برواية القصص البوليسية . كان لديه عدة نسخ مترجمة إلى العربية عن قصة لايتك كارتير وقال إن المصريين يعتقدون بأن لايتك كارتير هو مدير مكتب التحقيقات الفدرالية الأمريكية ، وقصصه هي الأكثر مبيعاً في مصر حيث يعجبون بأعماله البطولية ويعتدونها تاريخاً مؤثقاً . إذا كان المصري غير قادر على القراءة، يقوم باستئجار من يقرأ له هذه القصص البوليسية . كان بين أفراد القافلة الآخرين رجل مصري كثير النضمت وكان وجهه قد قُذ من الضحرة ، ولهذا لقبناه برمسيس لأنه كان أشبه بتماثيل الملوك الفخمة التي تراها على ضفاف النيل . أما بقية الحرس الخاص فكانوا من بدو لوزنس الذين يكخلون عيونهم ويصبغون شفاههم وخدودهم بالأحمر . والبدوي في الواقع يحرص أشد الحرص على الاكتحال . ويقول إن هناك شينين لا يجوز للبدوي أن يعبرهما حتى لشقيقه : زوجته ، ومكحله .

كل صباح كان على تشارلي أن يساعد تشايس ، الرجل القصير ، على ركوب جملة . في الواقع كان كل جمل يركبه تشايس يموت على الطريق قبل نهاية الرحلة . كان بشكل خاص يجتذب كل أنواع الحشرات الموجودة في الصحراء ، وكنا في كثير من الأحيان نستيقظ صباحاً لنجد العقارب وأنواعاً من الحريش العاص في أغصان تشايس . في إحدى المرات أعطى تشايس لأحد أفراد الحرس علبه من لحم الخنزير ووجهه

بني طريقة طهيها كما كان يظفوها في بئره، لكن انتهى به المطاف بأن يعدّ وجبهه
نفسه. حالما فتحت العتبة رماها الطّماخ البدوي بهنق ورجع إلى النوراء إذ كانت أنوف
المسلمين حساسة للنّحم النّجس. والبدو، ككل المسلمين، لا يستعملون مشتقات
الخنزير أبداً، بل يطهون طعامهم بالنّسمن المصنوع من حليب المعازر.

مررنا في ذلك اليوم بقطيع من الخراف البيضاء التسمية كالزبداء، وكانت ذات
أصواف مجعّدة كثيفة وقرون صغيرة معقوفة جميلة. كان الراعي البدوي جالساً على
كومة من حجارة البازلت، يعزف على ربابته لحن أغنية حبّ عربية قديمة. كانت بعض
مرتفعات الحجاز مكسوة بالشّعير مشكلة مراعي جيدة للأغنام، ونستقرّ في بعضها
الآخر القبائل البدوية حيث ترعى أعنامها وجمالها وخبولها القليلة.

كان هناك رجل داهية من بغداد، علم بأمر الثورة في الحجاز وأدرك أن الحلفاء
سيسلمون الأمور إن أحلّ أم عاجلاً وأن القطع النّقديّة الذهبية البريطانيّة ستحلّ محلّ
النّقود التّركيّة التي بقيت لفترة طويلة وسيلة التّعامل في أطراف البادية. لذلك قام بطلي
قطع رصاصيّة بالذهب وصع آلاف القطع البريطانيّة المزيفة، وحالما بدأ الذهب
يتوافد من مصر إلى الحجاز، وقبل أن يبدأ البدو بالتعرّف عليه ليكتشفوا الحقيقي من
المزيف، تجول في أنحاء البلاد واشترى كل الأعنام التي استطاع العثور عليها. وبدلاً
من السعر المتعاد وهو جنه واحد للخروف، أخذ يعرض جنهين من قطعه المزيفة.
وقبل أن يتسع الوقت لذهاب البدو إلى جدّة وبشع والوجه لإنفاق دهمهم في الأسواق،
كان البغدادي قد ساق أعنامه شمالاً إلى فلسطين وبيع الراحدة منها بجنهين للجيش
البريطاني. وعندما اكتشفت الخدعة كان قد احتفى عن الأنظار تماماً.

لا تقاس المسافات في جزيرة العرب بالأميال، ولكن بآبار المياه. بعد ليلة واحدة
من حادثة لحم الخنزير البائسة، وبعد أن أنهينا نصب خيامنا عند «حفرة المياه الثالثة»،
المعروفة ببسطة Birsta، جاءنا عشرون من الجيش النظامي العربي بمنظون بغلاً
من البيرو. كانت البغال تخاف من الجمال، وحالما رأت فافلتنا أخذت تنفر في كل
الاتجاهات، وقد ألقى بعضها براكيها واختفت في جبال أدوم. جلس هؤلاء الجنود

القادمين من مكة اللبل بطوله حول نار المخيم يصبحون ويغنون ويطلقون رصاصات منادقهم في الظلام. كانت القوات التركية على بعد أميال عدة، وكان لدي شعور داخلي بأن دورية تركية ستظهر فجأة وتضع حدا لهذا الضخب بالقضاء على الكثير منا. لحسن الحظ لم يحدث شيء من هذا، وبعد أن سرنا مسافة ثمانين ميلاً في البلاد دون أي اشتباك مع الأتراك، وصلنا إلى قمة هضبة عالية.

إلى الشمال الغربي أمامنا كانت هناك تلال رائعة من الحجارة الرمزية البيضاء والحمراء. وعلى مسافة عشرين ميلاً إلى الشمال كان وادي البحر الميت ووراءه تمتد الصحراء العربية الوسطى بألوان ضبابية من الأرجواني والرمادي. بينما امتدت أمامنا قمم جبال أدوم المقدسة. كانت المشكلة هنا هي عبور تلك الكتلة الضخمة من الصخور الرمزية. نزلنا من الهضبة المرتفعة إلى الوادي الذي يبلغ اتساعه اثني عشر ميلاً ويضيئ إلى اثني عشر قدماً ليصبح مجرد ممر ضيق بين الكتل الجبلية. خلال هذا الممر، أو السيق *sik* كما يدعو العرب، أخذت جمالنا وحيواننا نتعثر فوق الجلاميد ونشئ طريقها عبر آلاف شجيرات الدفلة، بينما كان البدو يعدون بحسد ماتهم التحالي التي كانت ترحف بين الصخور. أثناء مرورنا في الممر الصخري ذهبنا لنمظر الحدران الرائعة المرفوعة مئات الأقدام من فوقنا، وتكاد تبلغ عنان السماء.

تكومت على الجانبين، بشكل عالٍ وضارٍ

جروف ضخمة ذات أحجار هائلة.

أخبرنا حسن مرجاني Hassan Morgani، وهو أحد مراقبي الدويش الذي كان يرئس سيرة أرجوانية مزركشة بالنشون الأخضر، وحذاء عسكرياً كان قد أخذه من صابط تركي قتل، أخبرنا بأن الممر يدعى وادي موسى. أكد لنا أنه في ذلك قاتلاً أنه في هذا المكان ضرب النبي موسى الصخر فتعجرت منه المياه الغزيرة. ومن الأندر أن نجد عائلة عربية في هذه المنطقة لا تسمي أحد أولادها موسى. خلال الممر ظهر جدول صغير يتعرج بين الجلاميد ونباتات الدفلى وأشجار التين. وفي الأعلى كانت الشمس المذابة تصبغ الصخور الضخمة بلون أحمر وردي.

بعد التبريد داخل أنجمز لأكثر من ساعة، درنا حول المنعطف الأخير وأذهلك المظفر الذي بدا أمامنا. هناك، على بعد أميال من أي المناطق المأهولة وفي قلب الصحراء العربية، بدا لك أغرب منظر يمكن أن نشاهده؛ كان هناك معبدٌ كأنه ورده رقيقة منحوت كالعجر الكريم داخل الجدران انجبية. كان أجمل من معبد ثيسوس Theseus في أثينا أو الفوروم Forum في روما. قطعنا مسافة مئة ميل داخل الصحراء نُقف وجهاً لوجه أمام المصريح الذي أخذ بلبثنا. كان أول إشارة تدل على أننا وصلنا إلى مدينة البتراء الغامضة، وهي مدينة مهجورة نسيها التاريخ لمدة ألف وأربعمئة عام، ولم تكتشف إلا في القرن الأخير على يد المستكشف السويسري الشهير بوركهارت.

يكمن جاذب من سرّ جاذبية هذا المعبد إلى موقعه على أحد أكثر السعابر غرابية في العالم. كانت الأعمدة والواجهات والأفاريز منحوتة بشكل وافر، لكن كان من الصعب تمييز التصميمات عن بعضها، وذلك بسبب نشووها بفعل الزمن وتحطيم المسلمين لتمثيلها. في أحد الجوانب هناك صفتان من الفوهات وهي على ما يبدو آثار سلاليم النحاتين وهم يشقون طريقهم إلى الأسفل. كان هؤلاء الفاتحين يستخدمون أداة مديّة من شأنها أن تصغي أكثر تأثير على الطبقات المنونة التي تشكل شرائط جميلة تلف كأنها حرير متموج يلمع تحت أشعة شمس الصباح. ومع أن المعبد محفوظ بحالة جيدة، فإن تأثير الرياح الرملية عبر القرون واضح فيه. وللمعذرة شكل مكعب صلعه أربعون قدماً في كل اتجاه. وتعدّ هندسة المعبد خليطاً من الفن الروماني والإغريقي.

نُحت المعبد داخل الصخور منذ حوالي ألفي سنة في أيام حكم الإمبراطور الروماني أدريان الذي زار البتراء عام 131 للميلاد. أمّا العرب الذين كانوا معي فقالوا إنه يدعى الحزنة لوجود جزء كبيرة في أعلى المعبد، ويعتقد البدو أنها معلومة من ذهب الفراعنة وحبهم القمينة. جرت محاولات عدة لتحطيم الحجرة وقد تمثت منها قطع صغيرة بعمل آلاف الرصاصات التي أطلقوها عليها. حاول حارسي الخصاص إطلاق الرصاص عليها أيضاً لكن كانت لحسن الحظ أعلى من رؤوسهم بمئة قدم. يرى الكولونيل نورنس أن المعبد قد شُيّد إكراماً للإلهة إيزيس، وهي من آلهة قدماء المصريين كانت محبوبة كثيراً

في أيام حكم الإمبراطور أدريان. كان أحد الرّجالين قد حفر حروف اسمه بعنو قدم
على إحدى دعائم المعبد، لكن لوزنس أمر رجاله بمحوها.

تقع المدينة على السهل في بطن وادي ضوي الشّكل. طوله ميل ونصف وعرضه
نصف ميل. لا يستطيع أحد التّكهن بعدد السّكان الذين كانوا يقيمون فيها، ولكن
يرجح أن يكون مئة ألف شخص قد عاشوا هناك. لم تتداخ سوى الأجزاء البسيطة من
البناء، ومع ذلك فقد بقيت منها آثار جميلة. أمّا في الجزء العلوي من الوادي فتجد
الحصون والقلاع والقصور والقبور والأماكن التي كانوا يترددون عليها قديماً لتسبّية
وكنها منحوتة في الصّخر الضّلب. كان الجزء السفلي على ما يبدو مدرّجاً مائلاً كان
النّاس يمارسون فيه الرياضات المائيّة والمباريات المخلّعة. ويمكننا أن نشبه هنا هذه
بقطعة منحوتة مائلة الحجم صنعتها قوات الطّبيعة العجيبة، من فوق الهضبة ذات
المنحاة آلاف قدم، التي شاهدنا منها جبال أدوم لأول مرّة. نزلنا إلى الأسفل مسافة
ألف قدم لتدخل المدينة الأثريّة.

لقد ذهبت كل الرّجالين الذين داروا بترام من غرابة ألوان الأحجار الزّلمية التي تملأ
تلك الأماكن الصّخرية. لقد نحتت في صخور ملوّنة يختلف وصفها في السّاعات
المختلفة من النّهار، فهي تبدو في ضوء شمس الصّباح أشبه بأقواس قزح عظيمة
تسّع بالألوان البيضاء والقرمزية والصفراء الزّعفرانيّة والبرتقائيّة والوردية والقرنفليّة
التي تضافر الزّمان مع قوى الطّبيعة لتتّوّن الطبقات الحجرية المختلفة بها. في بعض
الأمكنة ترى طبقات الصّخر المنعرجة كالأمواج، وعند الغروب تلمع بإشعاع غريب
قبل أن تغرق في عتمة الليل. كنا نساءل أحياناً فيما لو كنا صاحبين أم هي أحلام نُقلنا
فيها إلى أرض العجائب فوق بساط سحري مزركش.

نحتت الأدراج داخل الصّخر، ويبلغ طول بعضها أكثر من ميل، وهي ترتفع إلى
الأعلى لتصل إلى قمم كلّ الجبال المحيطة بالبراء. صعدنا أدراجاً ضخمة إلى ارتفاع
ألف قدم فوق مدينة المعبد، الذي يدعو العرب بالذّير، وشاهدنا واجهته المهيبة التي
يبلغ ارتفاعها مئة وخمسين قدماً، تعلوها النّجّرة الضّخمة وتزينها رؤوس مبدوسا.

كانت معظم الدراجات المنحوتة في الصخر تؤدي إلى هياكل لتقديم القرابين حيث كان الناس يتعبدون في هذه الأماكن المرتفعة منذ آلاف السنين.

هناك درجات ضخمة جداً تتعرج صاعدة في جبل القربان، وهي قمة منفردة تشرف على الوادي بأكمله، ويوجد في أعلاها مسننان وهيكلاز. كان أحد الهيكليين مجوفاً لإشعال النار داخله، بينما كان الآخر دائرياً فيه بركة معدة لذبيح الضحية المهداة إلى «دو شري» Dhu-Shara و«اللات» Allat، إله وألهة بنو القديمة. أصدر أحد مرافقينا البدو على خلع عباءته والاستحمام بمياه الأمطار المتجمعة داخل البركة. أخبرني لورنس أن هذه المدينة هي أفضل مثال على وجود مكان للحصارة السامية القديمة. وبالقرب من الهيكليين كان هناك نصبان ضخمان ارتفاع كل واحد منهما أربعة وعشرون قدماً. كان سكان بنو القديمة من الصخر القاسي ليؤدوا إحدى أقدم أشكال العبادة للذكر. كانت قمة الجبل تسمى بركة كل الوديان والجبال المحيطة بالإضافة إلى معظم تار المدينة. وكان المنظر مهيباً بحق.

كان المنظر يهيج في القلب كل المشاعر التي قادت الإنسان منذ الأزل إلى عبادة خالقه. وعلى قمة قرية شأهدنا البقايا المتهدمة لقلمة صليبية. أبعد قليلاً إلى جهة اليسار كان هناك جبل بركاني أسود، رأياً على قمته، المتوهجة تحت أشعة الشمس، قمة صغيرة بيضاء يشبه لونها يياضي الهياكل العظمية التي مررت بها أثناء عبورنا الصحراء بين الغفبة وجبال أدوم. كانت قمة جبل هور Hor، والغبة هي جزء من المسجد الذي بناه البدو على النمط التقليدي لمعيد هارون أخي النبي موسى وقاهن بني إسرائيل. أمضينا يوماً ونحن نصعد إلى القمة، وعند وصولنا وجدنا علماً تركياً يرفرف فوق قبر هارون. ككفارة لذلك تسلق عرب الصحراء جبل هور Hor وبحوزتهم شاة قاموا بذبحها فوق الضريح. بالترحم من عدم وصول أخبارها إلى العالم الخارجي في ذلك الوقت، فإن خطوط الحرب العالمية قد بلغت متحدرات جبل هور Hor.

تملك كل أبنية مدينة الأشباح هذه واجهات واسعة، لكنها في الداخل بسيطة وخالية من أية زخارف. مع ذلك فإن ضخامتها وجمالها تبهران الأنظار، وكم كانت تعني لمحيي

الحمال عندما كنت تهبض بالحياة تنعكس أشعة الشمس عل معظم الأحجار بلون وردي جميل، مع تدوجات من اللونين الأزرق و السماوي. تكثر في الشوارع المهجورة نباتات نعار والذفلة التي تبدو ثرائها وكثافتها مستقاة من انضجور ذاتها. هي الحقيقة، إن السكان نو حيديين لمات السنين في هذه المدينة الوردية هم ملايين لا نحصى من الزهور الزرية الحميلة التي كانت تنمو في شقوق القصور والمعابد المندثرة وتلتف حول الأعمدة شبه استهدمة. لقد مضى رجال يترأ الأشداء وناوذا الحميلات إلى المكان الذي لا يعود مه أحد. وهذا مشهد يمثل للمرء معنى الحياة الفانية.

إن الآمال الذنوبية التي ملأ الناس قلوبهم بها

قد استحالت رماداً، أم أنها ازدهرت

وكانت كالثلج فوق أرض الصحراء المغيرة،

أضاءت قليلاً ثم اختفت إلى الأبد.

كان هناك في مركز المدينة مدرج كبير محاط من جميع جوانب بالمعابد والقصور ، القبور، وقد نحت داخل الجبل نفسه الذي ينضي إلى المكان المعد للأصاحي. كانت هناك صفوف و صفوف من المقاعد مقابل الشوارع الجبلية الممتلئة بالقصور. أما قصر منظمة فيبلغ مة وعشرين قدماً، والمسرح هو الترمز الوحيد للحياة والمرح في تلك لمدينة الغامضة المهجورة. في يوم من الأيام كانت ضحككات وهتافات الآلاف ترون من عبر مقبرة الآمال والقصو حزن. منذ آلاف السنين كان المستلون يؤدون أدوارهم هنا وينالون نصفيق الآف المعجبيين. أين ذهبت تلك الجمدهير المرححة التي كنت تحتل هذه الصفوف في الأعياد وتشاهد الألعاب المختلفة؟ أما اليوم فلا ترى سوى السحالي : عبي ترحف فوق المقاعد الملونة، وبدلاً من الأصوات التي كانت تعلا المسرح لفرود عديدة تسمع الآن أصوات عواء نبات أوى. ثم يكن الأدوميتون Edomites أو الأنباط Nabatseans ينخلون أنه يوماً ما سيأتي أناس يدعون بالأمير كيين من أرض معجولة ويتجولون بين أنقاض مدينتهم المزهرة.

احتل الأنباط أدوم، وهم قبيلة عربية قديمة، ويحتلون عام مئة قبل الميلاد كانوا قد أسسوا مملكة قوية تمتد شمالاً إلى دمشق وغرباً إلى غزة في فلسطين، وإلى داخل جزيرة العرب الوسطى. أحبرني لورنس أن الأنباط كانوا قراصنة مشهورين جابوا الساحل الأفريقي وشتوا غزوات مدمرة على أرض السودان. وصلوا إلى مراحل متقدمة من التحضر وكانت لديهم صناعة الزجاج الرائعة ونسج الأقمشة وتشكيل الأواني الفخارية. كما قاموا بزيارة روما والقسطنطينية مرّات عديدة. استخدم الملك سليمان ومملكة سبأ الأنباط، الذين نافسوا أهل تدّمُر في تنظيم قوافل تجارية عظيمة واتخذوا من بئرا مركزاً أساسياً لتجارتهم في جزيرة العرب. زار أنيبونوس بئرا في عام 301 قبل الميلاد ووجد فيها كميات هائلة من البخور والجزّ والفضة.

كان الإغريق، الذين أدركوا منعة هذه المدينة المحصنة بالجمال، هم أول من أسموها بئرا، وتعني الصخرة. ونقول الروايات إن الإسكندر الأكبر قد احتل كل الأراضي المعروفة آنذاك وأخذ يتحجب لعدم بقاء أراضي أخرى يحتلها. لكن الروايات خاطئة، فيها هي ذي مدينة فُتِل الإسكندر الأكبر في احتلالها، وبخبرنا ديودوروس سيكولوس أن الإسكندر كان يعلم أهمية بئرا بحيث أرسل ديمتريوس عني رأس جيش للاستيلاء عليها. حاول ديمتريوس شق طريقه داخلها عبر الممر الضيق نفسه الذي دُخِنَ منه، لكن السكان اعتصموا في جبالهم المنيعَة ونمكّنوا من صدّ الحصار والهجوم. وعلى الرُغم من أن المدينة وقفت في وجه من جاءها بقوة السيف، فقد فتحت أبوابها مرحة بمن جاءها يحمل غصن زيتون.

لما كانت بئرا عاصمة للأنباط زمت إلى القمة في القرن الثاني قبل الميلاد. وكان الجغرافيون الإغريق يطلقون على أرض أدوم اسم: العربية الصخرية Arabia Petraea. واثّبات أن وجود الأبنية المبنية على أنظرار المصري الفرعوني، القديم والرموز التي تراها على هذه الأبنية تجعلنا نعتقد أن بئرا قد قام على تعميرها شعب كان عني اتصال بمن بنوا أبا الهول والأهرامات، وإنك لتسمع الروايات الكثيرة التي تؤيد أن بئرا كانت في يوم من الأيام مرتبطة بمصر. ويعتقد البدو أن هذه الصخور

المنحوتة هي من صنع الجبان الذين يعملون بأمر من أحد القراعنة، كما ويؤكدون أن الجسرة العظيمة على الخزانة تحوي ثروة القراعنة المصريين العتاة، بل ويعتقدون أن هؤلاء القراعنة قد أقاموا في پترا، ويطلقون على المعبد المتهذم في الوادي اسم قصر فرعون. ولكنك لا تجد أحداً يعرف متى شُيّدت پترا أو من شيّدها. وثقة رأي بقول إنها بنيت قبل أيام إبراهيم، وإنها كانت مدينة عريقة في القدم عندما هرب بنو إسرائيل من أسر المصريين.

بينما نقف بين آثار هذه المدينة المنسية نذكر أن المنطقة المحيطة بپترا كانت معروفة باسم جبل سعبير Seir في أيام النبي إبراهيم، ويقال بأن عيسو وأبناءه جاءوا إلى هذه البلاد بعد أن فقد عيسو حق بكريته. والواقع إنك تجد شيئاً عن پترا في أسفار العهد القديم ولكنها كانت تُعرف باسم «سلع»، وهي كلمة عبرانية معناها «الصخر». ويرجح أن بني إسرائيل عندما كانوا يتجولون في التبرية قد جاءوا پترا وطلبوا الإذن بالبقاء فيها زمناً قصيراً للمراحلة، لكن سكان پترا رفضوا، فتنبأ أنبياء بني إسرائيل بخرابها. اتهمها النبي عوبديا Obadiah بالكبرياء وانصulf قائلاً: «على الرغم من أنك ترتقب غالباً كالتسور، وبالرغم من كون عشتك بين التجوم، يقول الإله إنه سينزلك من فوق عرشك». وكانت في عهد إشعيا Isayah مدينة مزهوة مبهجة ثم نبأ اليهود بدمارها.

في عهد أرباس (الحارث) الثالث الملقب بفيلين، أو صديق الإغريق، ضربت أول عملة ملكية واتخذت پترا الكثير من مظاهر الحضارة الإغريقية. وحتى في العهد الذهبي لروما، عندما تربع أوغسطس على عرش القيصر، وصلت شهرة هذه المدينة القصية إلى أوروبا. كان الشياح يؤمنونها من كل بقاع الأرض، ولا بد أن عدد ساكنيها كان نحواً من عدة مئات من الآلاف. كانت مركزاً للفن والعلوم ومن أجلها جلبت أعمال براكسيتيلير ومايكل أنجيلو ونيوناردو دافنشي. كان ثمرها مثلاً يحتذى لدى الفداء، وكانت تفتح أبوابها للمسيحيين الأوائل حيث سُمع لهم ببناء دور العبادة الخاصة بهم حتى إلى جنب مع معابد بعل وأبولو وأفروديت. كانت پترا تمثل في هذا الجزء من آسيا ما تمثله روما للرومان وأثينا للإغريق، وفي سنة 105 تلميذ أسولي

أحد فؤاد ثراجان على بنرا وصيغها بالصيغة الرومانية، وظلت المدينة تزداد ازدهاراً وتمتع تجارها وتنمو تحت رعاية روما. وغدت بترافي تلك الأيام ملتقى خطوط قوافل عديدة ومركزاً لتجارة جزيرة العرب وبلاد انعمج والهند المذهب إلى مصر وفلسطين وسوريا. كما كانت بترامخزناً للثروات الضخمة تحميها الضخور الغاضية التي تكسّر في وجه كل من تمسّك له نفسه بعد يده إليها. وصفها سترابو وبليني بأنها مدينة عظيمة، ولكن لما وهنت قوة الرومان لم يستطع الأنباط الزومانيون الوقوف في وجه القباطل التي تقيم في الصحراء، واتخذت تجارة القوافل مسارات أخرى ولم تعد بترادات أهمية كبرى فقل شأنها وهجرت. وفي القرن الثاني عشر، أرسل الصليبيون بقيادة بولدوين الأول، حملة إلى المكاء وبنوا العديد من القلاع، لكن صلاح الدين قام بطردهم واجلاهم عن المنطقة.

لا شك أن كثيراً من الآثار يدل على أن بتراف كانت إحدى المدن المهمة الناضية بالنباهة. ولا بد أن أثارها قد عاشوا في رفاهية لم يعرفها الشرق بقرون عدة. وإن بتراف لا تها الموسيقية الواسعة، ومدججاتها، وبساتينها الغامضة، وكهنتها وكاهنتها وعقائدها الدينية، وثرورها من الزهور، وشمسها المشرقة، ومناخها الصحي الذي ينحش انصر، كل ذلك كان قد جعل منها باريس وريفيرو آسيا الصغرى آنذاك.

منذ أكثر من قرن من الزمان سمع الرحالة السويصري جون لويس بوركهارت روايات عن مدينة الضخور العتريعة على طرف الصحراء العربية، فقام بعبور الفج الصخري ووجد المدينة القديمة الرائعة التي لم تكن قد ذكرت في أي تاريخ أدبي منذ عام 536 للميلاد. ومن ذلك الوقت، الذي كتب فيه بوركهارت عن اكتشافه لمدينة الضخور في رسالة أرسلها من القاهرة، لم يبق زبارة بتراف سوى قليل من الرحائس وعلماء الآثار الغربيين. كان خطر القباطل البدوية كبيراً بحيث لم تدفع الحراسة كثير من الناس لسجادة زيارتها. لقد هجرت المصانع والسحالي المصاحبة التي كان جمشيد يتهدج فيها ويفرط في الشراب، إلى أن أحضر نورنس مفتاح البدوين إلى المدينة التي لم يعد فيها سوى القصور والقصور الخاوية.





كان لورنس بين الفترة والأخرى يزور مناطق العدو
متخفياً بزي امرأة عجيبة من سوريا



نساء القرى في سوريا لهنّ مواهب بهلوانية بالقطرة

الفصل التاسع عشر

معركة بدوية في مدينة الأشباح

إن احتلال البتراء أمرٌ ضروري قبل الاستيلاء على العقبة، التي تعدّ بحق أهم مركز حربي في الساحل الغربي من جزيرة العرب، وحيث رَسَتْ أساطيل الملك سليمان قبل ثلاثة آلاف سنة. ولكن موقعة لورنس كانت هي الأولى التي حدثت في البتراء خلال السبعين سنة الأخيرة، فلقد كان الصليبيون آخر من عبروا المضيق برماحهم اللامعة وراياتهم الخفاقة وملابس نبلائهم وفرسانهم الأوروبيين. ثم ظهر لورنس قبيل المحارب الكبير في زية العربي وأخذ يطوف تلك الأنحاء دارساً متقباً فلم يترك شيئاً من الأرض إلا ودرسه دراسة كافية. وبعد أن نجح في إجلاء الأتراك عن العقبة صمم على أن يستولي على كل الشهور المرتفعة الممتدة على بعد خمسين ميلاً من رأس خليج العقبة ونمرّ بأراضي الجزيرة إلى أن تصل إلى الخليج العربي. وأيضاً الأتراك يومئذٍ أنهم بين أمرين لا ثالث لهما: إما أن يحاولوا استعادة العقبة، وإما أن يعمدوا إلى تعزية أنفسهم بضياح جزيرة العرب المقدّسة من أيديهم. لذلك جاءوا من سوريا بعشرة آلاف جندي مفعمين بالنشاط ووضعوه في المواقع الاستراتيجية العديدة على المرتفعات.

لكن لورنس كان على يقين بأن الأتراك لن يتمكنوا من استعادة العقبة، إذ هناك ممراً وحيداً يمكن أن يسلكه الجيش للوصول إلى هذا الميناء القديم الهام، ألا وهو وادي إضم. ولكي يتأكد لورنس من الأمر سار بجيشه غير النظامي عبر انمضيق نفسه قبل المعركة بأسابيع، فوجد الأتراك في حالة قيلولة وتسلل إلى العقبة قبل أن يدركوا الخطر

التمحيض بهم، لم يكن في نيته إعطاء الأتراك فرصة كهذه. كان وادي إضم من أصعب التمرزات، حيازاهي العائم وهو ليس بالأمر الهين على جيش مسلح، وربما لا يضاهيه صعوبة سوى ممر جبر Khyhu الواقع بين الهند وأفغانستان. يخترق المضيق سلسلة جبال تركانية قاحلة تدعى جبال انطك سليمان، تمتد على الشاطئ الشرقي لخليج الغنبة، وترفع فجأة إلى علو خمسة آلاف قدم على جانبي الممر الضيق. والواقع أن الجيش العظم إذا هو حرم من قمع هذه الجبال الشامخة لن يجد مكاناً يحتمي فيه. لا بد أن لورنس كان سيحقق نجاحاً لو حاولت القوات التركية التقدم إلى الغنبة أثناء عبوره لمضيق وادي إضم.

وبقي الأتراك بلزموه أنهدم: منذ يوليو حتى منتصف سبتمبر من عام 1917، ثم قاموا باستطلاع الأماكن المجاورة للبصرة يريدون من ذلك إيهام لورنس والعرب ليحملوهم على الاعتقاد بأن القصد من وراء هذه الاستطلاعات هو الهجوم على البصرة، مع أن قصدهم الحقيقي كان الهجوم على الغنبة مباشرة. كانت آخر حملة استطلاعية للأتراك تعيسة، إذ قطع لورنس ورجاله عليهم الطريق وأزهقوا أرواح مئة منهم.

وهناك على بعد خمسة عشر ميلاً من شمال شرقي البصرة ترى قلعة صلبية أثرية، تطل على التضاريس بوجهها العابس من أعلى تل منحدر من الحجر الكلسي الأبيض، وتسمى قلعة «الشوبك». وكان بالدوين الأول، ملك القدس، قد بنى سوراً حول قمة هذا الحب في أيام الصليبيين. أما القلعة والقرية العربية الحديثة فهما داخل الأسوار. ولا يمكن الوصول إلى القمة إلا عن طريق ممرٍ منحدر متعرج. كانت «الشوبك» لا تزال في أيدي الأتراك ولكن جواسيس لورنس جاءوا يؤكدون له أن التحامية الموجودة هناك كلها من السُوم الذين يجري الدم العربي في عروقهم، وأن عواطفهم وأهواءهم مع الحركة الوطنية الجديدة. لذلك أرسل لورنس مولوداً Mulud وعشرة من خيرة ضباطه إلى الشوبك ليلاً، وأتبعهم بمشي بدوي بقيادة الشريف عبد المعين.

ما إن وصل السوم يف عبد المعين حتى احتشد السُوم حوله. وفي صباح اليوم

الثاني نزلت القوات السورية والبيدوية من الجبل الكلسي ودمروا ثلاثمائة سكة حديدية عند خط دمشق - المدينة بالقرب من غبزة Aneiza، ثم حاولوا الوصول إلى الأماكن المحصنة في نهاية الخط الحديدي، حيث كان هناك سبع مئة عامل أرمني أرادوا إنقاذهم، لكن الاستحكامات التركية كانت قوية في المنطقة ولم يستطع العرب الاستيلاء على المراكز الأساسية. خاف الأتراك كثيراً وأرسلوا يطلبون التعزيزات من معان وأبو النسن وكان إضعاف الأتراك لحاميتهم في أبو النسن هو ما يريد لورنس تماماً، وما كادت الإمدادات التركية تصل حتى أمر رجاله بالانسحاب من السكة الحديدية إلى البتراء.

بعد إخلاء حامية الشونك وخروج لورنس الجريء من المحطة الأخيرة للشكة الحديدية، قرر جمال باشا القائد العام للجيش التركي في سوريا وفلسطين وجزيرة العرب، وخلفاً لتوصية المبلد مارشال فون فالكنهاين von Falkenhayn، الذي كان قائداً للجيش الألمانية في الشرق الأدنى، قرر استرداد البتراء قبل استرجاع القوية والعقبة. ولهذا سير جمال باشا فرقة كبيرة من الفرسان وفرقة من المشاة وعدداً من المدفعية الخفيفة من فلسطين عبر الخط الحجازي إلى معان.

كانت تلك ضربة موفقة للورنس. فأولاً، اضطر الألمان والأتراك للتقليل من قوائهم المعارضة لألبي في الأرض المقدسة. ثانياً، كانوا يتقدمون نحو الفتح الذي نصب لهم إذ كان لورنس يؤمن بأنه إن كان لا بد من خوض قوائه البيدوية غير النظامية للمعركة في انجبال التاتية لأدوم القديمة، فسوف تمكنه قابلية حركة جيشه الفاتحة في النهاية من هزيمة أية جيوش نظامية عالية الكفاءة والتدريب.

أما مولود بك، فقد كان ساعد لورنس الأيمن في معركة البتراء ومن أعجب الشخصيات التي ظهرت في الثورة العربية، بالإضافة إلى مظهره الخارجي الزانع، كان يلبس حذاءً عاليًا أرجوانياً ذا مهماز تُسمع له خشخشة موسيقية كلما حرك قدميه، كما كان يحمل سيفاً طويلاً من سيوف القرون الوسطى، وكان له شاربان يتدلبان على وجهه كأحد أشرار الأفلام المثيرة، ولكن لم يكن هناك في الجيش العربي كذ من

يمثله شجاعة وسحرأ. إنه ابن شيخ بدوي وأم تركية، وقد أظهر منذ طفولته حماساً ووطنية عريضة. درس العلوم الحربية الحديثة دراسة واسعة واسعة على أمل أن يستخدم هذه العلوم ذات يوم في إسقاط الحكم التركي ومساعدة بلاده على الاستقلال. وكان قد أمضى أيضاً ثلاث سنوات يدرس العلوم العصرية الحربية في جامعة تركيا وقد استطاع خلال هذه المدة الطويلة أن يخفي نزعه الوطنية إلا أن أمره انفضح أخيراً فكان نصيبه الطرد من الجامعة والتقي من تركيا.

عاد عندها إلى البادية حيث عُيِّن سكرتيراً خاصاً لابن رشيد، أحد أمراء وسط جزيرة العرب. وجد مولود بك فرصاً سانحة كثيرة للاشتراك في حوادث النهب والسلب التي كانت تتكرر يومياً، واستطاع أن يخلق لنفسه شهرة عظيمة في القتال حتى إن الأتراك رأوا من الحكمة أن يصفحوا عن ماضيه وأن يدعوهم للرجوع إلى تركيا والانضمام إلى أنفرك الخيالة التركية. وعندما اندلعت نيران الحرب العالمية رُقي مولود بك إلى درجة ضابط لكنه قُدم لمحاكمة عسكرية وشُجن بنهضة التآمر على السلطان العثماني. وبعد أن أُطلق سراحه اشترك في محاربة الإنكليز في بلاد الزاغبين وقُبض عليه قرب البصرة. وأخيراً انضم إلى جيش قبصل، وبلغ من جرأته وإقدامه أنه لم يخرج مرة من معركة إلا جريحاً وبلغ من تهوُّره أنه كان لا يتردد في الهجوم على الجيش التركي بمفرده.

اختار جمال باشا معان، أهم محطة على الخط الحجازي بين البحر الميت والدمشق، لتكون مركزاً لثلاث فرق تتألف من سبعة آلاف جندي وعدد من المدفعية الخفيفة وأسطول من الطائرات الألمانية. قصدت إحدى هذه الفرق قلعة الشوبك وعسكرت فيها واتخذتها قاعدة لها، أما الفرقة الثانية فجاءت من الجنوب عن طريق «أبو النمس» والبصرة، والثالثة تحركت مباشرة من معان متجهة شرقاً. وبجهد الأتراك تحرَّكاتهم بحيث يتجمعون كلهم في البتراء في الحادي والعشرين من شهر أكتوبر.

وفي الوقت ذاته كان لورنس وجماعته في معقل حصين في عاصمة الأنباط القديمة، وراء تلك الصخور الضخمة، هذه الاستحكامات الطبيعية القوية التي استطاعت يوماً

ما أن تقف في وجه جيوش الإسكندر الأكبر، ولأول مرة بعد مرور قرون ضويلة تعود الحياة إلى هذه الممرات الضائعة الضيقة، أشعل البدو النيران في مذابح الآلهة القديمة، ووقف الحراس نبل نهار فوق الأماكن الأثرية المرتفعة يراقبون مجيء الأتراك، وكنت ترى البدو في غرف القبور الواسعة يجلسون جماعات جماعات إلى ساعة متأخرة من الليل، ويقصّون قصصاً لا نهاية لها ويترنمون بالأهازيج والأغاني الحربية الحماسية. أقام لورنس في معبد إيزيس (أي الخزنة)، وهو القصر الوردي الواقع في مدخل الفجّ الصخري، ولو شاء لأخذ يتخيل وصفات إيزيس وهن يرقصن أمام آلهتهن.

لكنه بدلاً من ذلك، أرسل إلى الشيخ خليل إيجي Elgi في القرية المجاورة وطلب منه أن يجمع كل النساء القادرات على الخروج لأميال حول المكان حتى يساندن فرقته الحربية. لم تنسب النساء الغريبات إلى فرق التضليب الأحمر أو القبائل المتحركة أو خدمات المقاصف كما فعلت أخواتهن الغريبات أثناء الحرب، لكنهن طالما شجعن رجائهن على القتال. كن يقفن في المؤخرة خلال الحروب القبلية الدائمة يمتدحن رجائهن وينشدن أناشيد الأبطال البدويين، ويطلقن صيحات اللوم إن لم يندفع رجائهن يسالة إلى خضم المعركة. قبل عدة قرون كانت الفرق المتقاتلة في الصحراء تضع بضع ساء في المقدمة بلباسهم الزاهي وهن يحملن رايات القتال. لكن هذه هي المرة الأولى في تاريخ العرب التي تخرج فيها النساء في كتائب مسلحة للاشتراك في المعركة.

هبت النساء البدويات الثوراتي يقطن بجوار البتراء لتتجده بشكل رائع. لقد تخنن عن صنع التسمن والغزل واحتشدن عند مسكن لورنس بقيادة زوجة الشيخ خليل. لم يكن هناك لباس رسمي يقدم لتلك البدويات المقدمات، بل جئن حافيات بأثوابهن الفظنية الطويلة الزرقاء وقد وضعن الأساور الذهبية في أيديهن والحق في آذانهن وأنوفهن، ثم تجتمعن من كل الجهات ليشكلن فرقة الموت. لقد استجبن لنداء لورنس، الذي كان يعوزه بعض الرجال، وحاربن يسالة عظيمة كأزواجهن وإخوانتهن، ولعبن دوراً مهماً في دحر الأتراك.

تذكر لورنس الدفاع المنيع الذي وضعه الملوك الأنباط القدماء وفشل على إثره جيش الإسكندر في الاستيلاء على البتراء، فقام بوضع النساء البدويات عند الممر الضيق مقابل معبد إيزيس للدفاع عن المدينة. كان حماسهن شديداً ولم يكن بحاجة إلى أي تدريب ليصبحن فارسات قذيرات. لقد اختبأن خلف أعمدة المعبد، وكان مع بعضهن أولادهن غير الناضجين بعد، وفمن يحمل بيندقياتهن لحماية الممر الذي لم يكن يتسع سوى لبعض من الأتراك والألمان يمشون جنباً إلى جنب. التزم الرجال بموافعهم ونم يصيهم الهلع حتى عندما انقضت الطائرات الألمانية على المعبد الحجري وألفت بقنابلها على الشوارع والمسرح والمدرج المائي. لكنهم نشبتوا بيندقياتهم بقوة لتما سقطت قبلة ألمانية فوق أحد مدافعهم مباشرة فمحت وطاقمه من على وجه الأرض.

أما لورنس فكانت مهمته في ذلك الحين إصدار الأوامر من على المرتفع الشمائي. كان معه خمسون شاباً بدوياً انتفاهم بنفسه من الذين يمتازون بالركض والجري، وقد برهنوا في تلك الموقعة على مقدرة عجيبة في الإسراع بتقل الجرحى، وكانوا ينطلقون بسرعة كالآرانب البرية ويشلقون الصخور بخفة الظباء ورشاقها. ولو شاهد أحد الموقعة من الأماكن التي كان يحسب فيها العرب ورأى البدو رجالاً ونساءً في ثياب الصحراء يمشون الحيول والجمال عارية من التبرج و يستعملون كل سلاح ابتكره العقل الإنساني منذ فجر التاريخ، ولو غص المرأة الطرف عن الاستحكامات الحديثة التركيب والنياب الرصاصية التي كان الأتراك يرتدونها وعن سرب الطيارات، لخيّل إليه أنه يرى موقعة ابتراء ليس بين العرب والترك بل بين سكان أدوم القدماء وملوك بني إسرائيل.

لم يكن مع لورنس غير أربعة مدافع، ولكنه استطاع أن يحمي مسافة تقرب من خمسة أميال جنوبي البتراء مدة ست ساعات، قتل في أثناءها ستين تركياً دون حسائر تذكر من طرفه. ولكن تطوّرت الحالة بعد ذلك وأظهر العدو نشاطاً وتقدّم الأتراك والألمان يحاولون الوصول إلى العرب على الرغم من الرصاص الذي كان يشره

هؤلاء عليهم كالزئال، فرأى لورنس أن لا مئاص من إخلاء المكان وأرسل نصف
رجائه ليجنلوا نلاً آخر جنوب البراء، والنصف الآخر إلى الثل في الجهة الشمالية
المقابلة. وكان بين القريقتين وادي موسى الذي يعد ميلاً واحداً عن المنطقة التي
يضيق فيها ليصبح مجزء شق يخترق الجبال جنوبي المدينة.

ابتهج الأتراك بالاستيلاء على خندق الثل الأول وكانوا متأكدين بأنهم قد هزموا
قوات لورنس، فما كان منهم إلا أن اندفعوا من فقة الجبل بحماسة وهبطوا إلى الوادي
ظناً منهم أن العرب قد انسحبوا إلى البراء. في تلك الأثناء كان لورنس ورجاله مخبئين
فوق تلال البراء. أقبل الأتراك وانتظر لورنس حتى دخل منهم حوالي ألف جندي في
المضييق وعندئذ أمر جنوده بإطلاق النار. وعندما انحسر الأتراك داخل أضيق جزء
من الممر بانقرب من مدخل المدينة، أطلق أحد معاونيه صاروخاً في الهواء كإشارة
لبء الهجوم. بعد ذلك بدقيقة واحدة عم الصخب جبال أدوم وصب العرب شلالات
من النار من كل حذب وصوب، وبدأ صوت البنادق وكأنه آت من الصخور. قامت
البدويات والأطفال بدحرجة الأحجار النضضة من فوق الحافة على رؤوس الأتراك
والأنسان الذين كانوا وقتها في بطن الوادي على بعد مئات من الأقدام، بينما أطلقت
النساء اللاتي كن خلف أعمدة معبد إيزيس النار بشكل مستمر. ارتبك الجنود الغزاة
ودعروا وتفرقوا في كل الاتجاهات، واستمر العرب على التلال يدقرون ما تبقى منهم.
قبل أن تميل الشمس للغروب وراء الجبال الوردية، أرسل لورنس ومولود بك
إشارة ثانية لرفاقهم وصاح مولود: "انهضوا يا أبناء الصحراء". وظهر الرجال من وراء
الضخ من كل الجهات وعلا هتاف "الله! الله!" من حناجر المناء من اليدو وهم
ينزلون من التلال إلى الوادي.

استولى العرب على وسائل انتقل التركية والمشعى المتنقل، وأسروا مئات الجنود.
تراجعت القوات التركية المؤلفة من ألف جندي تراجعاً منتظماً إلى البسطة Busta
وشقوا طريقهم بعد بضعة أيام إلى معان، وأبو النسن. تسلى لورنس بعد المعركة إلى
صغوف الأتراك متخفياً وعاد يحمل نسخة من التقرير الذي يصف فيه الأتراك المعركة.

مما جعل العرب المنتصرين يقيفهمون عالياً لدى سماعه. جاء في التقرير: ولقد قمنا باقتحام تحصينات البتراء وكانت إصابائنا اثني عشر جريحاً وأربعة ونسحين جريحاً، أما خسائره فكانت ألفاً من القتلى والجرحى، وكان هناك بين القتلى جثث مبعة عشر ضابطاً بريطانياً.

كان الضباط البريطانيون المتواجدون في ذلك الجزء من جزيرة العرب، باستثناء لورنس، في الغفلة على بعد مئات الأميال، وكان لورنس نفسه يرتدي الثياب البدوية. أما خسائره فكانت اثنين وعشرين قتيلاً وجريحاً. يبدو أن الأتراك قد أخطأوا في تقدير انهم بشحنة واثنين وسبعين شخصاً فقط!



البشيق الحديث الذي ترتديه سيدات القاهرة
يمثل نسخة شغافة عن النقاب الذي ترتديه نساء جزيرة العرب



الأمير فيصل والقرىف لوزنر
ينباحثان مع بعض شيوخ البلد

الفصل العشرون

«أهلي في البيت»

قال لورنس: «إذا كانت النساء لم يلعن دوراً مهنياً في الحرب التي اندلعت نيرانها في أرض «ألف ليلة وليلة» فسب ذلك أن رجالهن يلبسون الثناوير ويرفضون لبس الثياب الداخلية» ثم استطرده قائلاً: «وربما كان هذا أحد الأسباب التي حثت إلى جزيرة العرب، فإني لا أعرف سِلاًداً مثلها الحكيم الشائد فيها هو للزجل فقط».

مع ذلك كان الكولونيل لورنس يعارض بشدة من يقول إن الزجل في جزيرة العرب هو السيد المطلق وما المرأة سوى عبيد له. على الرغم من أنه يقول: «إن المرأة هي الشيء الذي يستمتع به الزجل، بل يعدُّه لعبة ينلجها بها متى وكيف شاء». وبالرغم من أن «المعرفة من حقه، ولها الجهل»، وأن «المجد والعلى له، ولها الظلام والأسر»، وأنه «هو الأمر النهائي، وهي المطيعة طاعة عمياء»، فلا تزال تمتلك تأثيراً كبيراً غير مباشر، لكننا لم نسمع أو نر منها سوى القليل. لم يسمع سكان جزيرة العرب بآراء مسز كات أو مسز بانكهurst، وبالرغم من أن ملك الحجاز يظهر في برامج الأخبار، فإن جلالة الملكة لا تُذكر أبداً. لقد حضر الأمير فيصل مؤتمر الصلح في ترساي كرئيس المفاوضين العرب، لكن زوجته، التي أصبحت فيما بعد أول ملكة في بغداد، لم تصحبه في رحلته. وإن عاصمة حسين بن علي هي مدينة لا يُستقبل فيها الدبلوماسيون الأميركان وزوجاتهم. ولينصوّر القارئ كم ستكون الحياة ممثلة في لندن أو نيويورك لو حاول أهلها تقليد سكان مكة في عاداتهم، سُبْحَرْمُون ولاشك من

رؤية الموظفات الساحرات اللواتي يملأن الحكائب، كما أنه لن يكون هناك رفص في الفنادق والمطاعم أو أسواق حيوية أو حركة سياسية نسائية.

لا يقف الرجل العربي عندما تدخل المرأة كما نفعل نحن في الغرب. وهو لا يأكل مع امرأته بل ينتظر منها أن تقوم على خدمته، وعندما يخرج بنزهة على جملة يتركها وحيدة في الدار. وفي أكثر الأحيان تمكث نساء المدن في ديارهن أسبوعاً أو أكثر دون الخروج منها. في جدة، على سبيل المثال، تنزه النساء عصر يوم الخميس خارج المدينة حتى يجتمعن حول قبر أمنا حواء. ولكن على الرغم من حيانهن المتعزلة هذه فقد نبغ منهن في السياسة عدد غير قليل. والواقع أنك تجد في بلاد العرب كثيرات ممن تتبعن خطا ملكة سبأ في حكمتهن وقتتهن، واستطعن جعل «أسيادهن» يقبلون التراب الذي تدوسه أرجلهن.

ومع أنه يجوز للرجل المسلم أن يتزوج من أربع نساء في وقت واحد، فإن هذه العادة ليست متفشية إلا بين الأغنياء عندما يكون في وسع أحدهم أن يستأجر لكل زوجة من زوجاته داراً خاصة. هذا في المدن فقط، وفي الحقيقة من الصعب جداً أن يجمع الرجل زوجاته الأربع تحت سقف واحد ويعيش معهن بسلام. إن الملك حسين والملك فيصل والأمير علي والسفطان عبد الله ملك الأردن وغيرهم من القادة البارزين، كلهم لم يتزوجوا سوى مرة واحدة.

والمرأة العربية العفيم يكون مصيرها الصّلاق في أغلب الأحيان، ولا يتحدث العربي عن امرأته إلا في ما ندر، وإذا تحدث عنها يقول: «أهلي في البيت» أو «أم ابني علي». والعرب لا يستقبلون المولود الأنثى بالرضا، ولكن عندما يولد الطفل، ذكراً كان أم أنثى، تبدأ الأم في اتخاذ التدابير اللازمة لنداء العين الشريرة عنه، وكثيراً ما تلجأ إلى تعليق تيممة حول عنقه. وتمضل البدويات الشعور المسترسلة على المجعدة ولهذا يبذلن ما بوسعهن لفلك أبة عقدة في خصلات شعور أطفالهن.

في بعض أجزاء الصحراء هناك قانون غير مدون يقول: إذا هاجم بدوي فتاة بين شروق الشمس والظهر يُجند بمسرة، أما إذا اعتدى الرجل على الفتاة بين الظهر

وغروب الشمس يكتفون بالغرامة وحدها، وإذا اعتدى عليها ليلاً في الوقت المفروض أن تكون فيه تحت حماية أهلها فلا يلقى أية عقوبة.

والبدو يقدّم على الزواج عادة عندما يبلغ العشرين أو الرابعة والعشرين من عمره. أما الفتاة فتتزوج في أي وقت بعد بلوغها الثانية عشرة. وسماصة الزواج الفنيون والمخاطبات المحترفات لا يزالون في بلاد العرب هذه المهمة اللطيفة مجاناً، بل يستجدون العطايا من العريس. يقدّم العريس مآلاً لعروسه حسب التمتفق عليه، لكنه لا يرى خطيبته إلا بعد وقوع الفأس في الرأس. لا تقوم أم العروس باستدعاء الجارات والمخاطبات المحترفات لتفصيل جهاز العروس وفق مجلات الموضة الحديثة، بل تكتفي باستعارة شال من الكشمير تصفه على كتفي ابنتها.

ومن أوسع الأعمال التي تزاولها المرأة في الشرق الأدنى هي «الندب»، فالتدابات يُسنّاجرن فيمكن الميت ثم يُحتم العويل بصراخ يقطع نياط القلب.

وإنّ عادة الإسراع في دفن الموتى تزداد أحياناً إلى مشاكل مؤلمة. هناك رواية تروى في حدة عن أحد الاسكتلنديين المعيّنين هناك في بداية الحرب، يروى أن الرّجل مات نتيجة مرض غامض فُحْمِل خارج المدينة ليُدْفَن في رمال الشاطئ بعد لقائه بالعلم البريطاني، وكانوا قد أرسلوا غارياً من جدة يحمل مذكرة إلى الحكومة في لندن نبأ وفاة الضابط. لم تكد مراسيم الدفن تنتهي، وبينما كان الرّجال في طريق عودتهم إلى المدينة، حتى سمعوا وراءهم صياحاً فاستداروا ورأوا الجثة تركض نحوهم ملقعة بالعلم البريطاني. يبدو أن الضابط الاسكتلندي كان في حالة غيبوبة فقط، وبعد دقائق من دفنه في الرمال الرخوة هاجمته انسردانات وأعادته إلى الحياة. لم تنته القصة بذلك فحسب، ولكن أنقضي القبض على هذا الضابط في لندن عندما أبرز هويته في البنك لأصرف أحد الشيكات.

ربما كانت الفروق بين المرأة البدوية والحضرية أعظم من الفروق بين البدوي التحيل وقريبه الحضري البدين. فالمرأة الحضرية تكون على الغالب بدنة بيضاء، بينما ترى البدوية تحيلة سمراء. ولدى العديد من زعماء البدو أربع زوجات معاً.

وبعض الأغنياء منهم يتزوجون خمسين امرأة لكن بجمع أربع فقط في الوقت نفسه. أحد أسباب زواج البدوي بثلاث أو أربع هو تسهيل العمل المنزلي. أما النزوجات الأربع فيعيشن في خيمة واحدة في سلام نسبي عجيب، ولا تنظر البدوية إلى الرجل بأنه ملكية خاصة بها كما تفعل في الغرب.

والبدويات أكثر جهلاً من رجالهن، ويصرفن قدر كبيراً من أوقاتهن في حصصهن على القتال، ويعزى لهن إبقاء الضعاف ونهب الأحقاد الذئبية.

ليس لبدو الصحراء وسيلة لتحديد الوقت، فلا توجد لديهم أيام أحد أو اثنين، ولا عام 1925 أو 1926، وعندما يولدون فهي «مشينة الله»، ثم يكبرون ويموتون «بعشينة الله»، لذلك لا تجد إخراجاً عند سؤال المرأة البدوية عن عمرها إذ لا تدري شيئاً عن عدد سني حياتها.

والبدويات ثرائيات بشكل مخيف، وكلما جلسنا نتحدث عن العادات الغربية في خيمة شيخ بدوي، وبفصلنا عن الحريم المحاجر الرفيق الذي يقسم الخيمة إلى قسمين، حتى تظل نساء الشيخ برؤوسهن من فوق الحاجز لدى سماع الحديث عن سفارات المدن الملوثة يرتدن دور السينما وقاعات الرقص ومبادين لعب الغولف، ويصرخن بانفعال: يا للغرف! يا للامتنال! يا لقلعة الأدب والأخلاق!

بامتناء الأمثلة التي كان العرب أنفسهم يذكرونها، كان نورنس يتحاشى الحديث عن النساء، فهو موضوع شائك كالحديث عن الدين.

وفي ذات يوم كان نورنس جالساً في خيمة الشيخ عودة أبو تايه يتحدث عن النساء، فأخذ يروي له ما رآه من الننديات وكان نورنس يكاد لا ينتهي من الجملة حتى يري الشيخ يضرب على ركبته بشدة ويصرخ كالأسد قائلاً: آه، لو كنت أمتنع يوماً واحداً بالحياة في لندن، ثم ترى نساءه يقتحمن المكان ويوتخنه بشدة.

نحتفظ البدويات بجمالهن عادة حتى سن الثلاثين، وبعد ذلك...! كلهن قصيرات نحيلات، ولا يجدن المتعة إلا في عيامهن. والبدويات سافرات لا يعرفن انبراق

ولكنهن يعمدن إلى وشم وجوههن وصبغ شفاههن باللون الأزرق، ويلبسن في كل المناسبات أثواباً قطنية زرقاء غامقة لكنهن لا يكشفن شعورهن أمام الملا.

يتتبع البدوي لامرأته حلياً من الذهب المطروفي، وقد تجد عند بعض الحريم حلياً ذهبية تقدر بألف جنيه إنكليزي أو أكثر، ومن قوائم الصحراء أن كل الحلي تعد ملكاً شخصياً للمرأة، فإذا حلقها زوجها فإنها تحمل هذه الحلي معها. وإذا أراد البدوي تطليق زوجته يكفي أن يقول لها أمام الشهود: «أنت طالق، أنت طالق، أنت طالق». وهذا ما يدفع البدويات لاتخاذ الاحتياطات اللازمة وجعل كل ثروتهن في صورة حلي خفيفة الوزن.

يبدأ تعليم النساء في الخيام، وتمضي البدوية معظم وقتها في حلب الجمال والماعز وفي صناعة الزبدة، فتجعل الحليب كالخثارة وتعصرها بيديها ثم تضعها على سطح الخيمة حتى تجف تماماً، وعندما تجف تصبح قاسية كقطعة من الصخر لا تقطع إلا بسكين، وقد تعجز السكين أحياناً عن قطعها. وكان لوزنس يحتال على الزبدة يسحقها بين حجرين ثم مزجها بالماء لتصبح كالخليب الرائب.

يعتقد كثير من البدو أن المرأة مصدر كل شر، ويقولون إن جهنم مليئة بهن. والفصائل البدوية التي يتغنى بها شعراء البدو نشفت عن بغض للنساء أكثر مما تعبر عن حب خالص لهن. إليكم بعض الأبيات من ترجمة للمشير رينشارد برونون:

قالوا تزوج،

قلت أما حر،

لَمْ أحمل على كاهلي

كياً ملبئاً بالأفاعي؟

لا بارك الله بالنساء.

من الهتين جداً على البدوية أن تنظف الخيمة أو تقوضها، والقبائل تغادر مكاناً من الصحراء حالما تنضب المراعي المجاورة. والطبقات الأرستقراطية من البدو لا تقتني الخراف والماعز، بل تكتفي بالجمال والخيول. لا يقتني البدو ممتلكات كثيرة ولا يتقيدون ببقعة واحدة من الأرض، بل يملكون قدر حاجتهم وهم من أكثر الشعوب تمتعاً بالحرية.

سأل مرة الشيخ نوري الشعلان لورنس أن يحدثه عن بعض العادات الأوروبية فقال: «لوزنتي يا شيخ نوري في داري في إنكلترا الأحضرت لك امرأتي الشاي بنفسها. لم يكده الشيخ نوري بسمع هذا الحديث حتى صقق بيده وأمر زوجته من زوجاته بتحضير الشاي، وأبى إلا أن يتناول لورنس الشاي في شقة الزوجة، وهو فعل يتنافى تماماً مع قوانين البيادية.

البدو قوم لبقرون، ومهما كان الغريب يرطن بالفغة العربية فإنهم يقبلونها منه ولا يحاولون تصحيح أخطائه. ولكن عندما تدخل خيمة البدو يجب أن تلقي فوراً كل ما تحفظه من عبارات مهذبة، وعندما تريد مغادرة الخيمة تستطيع الانسحاب دون إلقاء حتى كلمة وداع. وكثيراً ما كنت أرى أحد البدو يدخلون خيمة لورنس وهو يقرأ فيحيتهم ويجلسون على أعقابهم بينما يستمر لورنس في القراءة. وبعد برهة يفقون ويغادرون الخيمة بهدوء. لكن لم يكن لورنس يغادر الخيمة طالما هناك ضيف عنده.

يقول الغراني، وهو عالم إسلامي كبير في القرن الحادي عشر: «الزواج نوع من العبودية، إذ تصبح الزوجة ملكاً للزوج، ومن واجبها بالطبع أن تطيعه في كل الأمور التي يطلبها منها سوى ما يخالف شريعة الإسلام». يباح ضرب المرأة في الإسلام، كما يباح جعل سبايا الحرب ملكاً للرجل الذي يفوز بهن. ويعتقد المسلمون أن الكذب محلل في حالات ثلاث: في الحرب، وعند الإصلاح بين الأصدقاء، وفي الحديث مع النساء.

بالنسبة للمسلم، تعد الجنة واحدة فيها شجر نخيل ونباتات متلألئة وجمال سابق، وفيها يستطيع الرجل أن يتخذ ما شاء من النساء. وهذا ما يفسر شجاعة العرب

والأثرالك، إذ يؤمنون بأنهم إن ماتوا في معركة ضد الكفار فسيذهبون مباشرة إلى الجنة.
مع ذلك تجد العرب يحجون النساء، وتعير قصائد هم الشعرية عن افتتانهم بجمال
المرأة:

إن قلبي لأشدّ من جدور الجبال،
وسمعتني طيبة كرائحة المسك.
وأجد متعتي في صيد السباع البرية،
والوحوش القابضة في أوكارها.
ثم تأتي طيبة لطيفة لتوقعني في حباتها،
وهي تنهادي برقة بين نبات الخزامى.



الأمير فيصل مع قطباً جواده العربي المفضل



الكولونيل جويس - قائد القوات العربية النظامية

الفصل الحادي والعشرون

متخفياً بين صفوف الأتراك

يحمل العرب كلهم تقريباً نوعاً من التعائم التي تجلب انحط، ولا يزال الإيمان بالجنان شائعاً بينهم. رأيت ذات يوم شيئاً معقفاً في رقة عودة أبو نايه، الزعيم البدوي، وكانت نسخة مصغرة من القرآن الكريم لا يزيد قياسها عن بوصة مربعة واحدة كان قد اشترها بأكثر من مئتي جنيه إنكليزي. أراني تلك النسخة مشاهياً بها أعظم مباهاة. ولاحظ لورنس فوراً عندما وقع نظره عليها أنها قد طبعت في غلاسغو وأن الثمن المكتوب على علافها الناذخلي هو ثمانية عشر بنساً فقط. علمنا أن الشيء الوحيد الذي كان العرب يخشونه هو الأفاعي، ويعتقدون أن طريقة الحماية الوحيدة منها هي التعائم التي تعلق حول الرقبة.

هناك آلاف من الزواحف في أجزاء معينة من انصحراء، وتمتد أخطر متطفة للأفاعي في الشرق الأدنى من الجوف إلى الأزرق قرب الآبار الضحلة قليلة الغور الواقعة في شمالي الصحراء العريضة، وهناك تجد، بالقرب من أماكن تواجد المياه عادة، الكوبرا الهندية، والأصليات المتطفة، والحيات السوداء التي تشبه الشياطين، وغيرها من الأنواع التي تعد في أغلبها خطيرة ومميتة. ذات يوم قام لورنس برحلة مع ثمانية عشرة من رجاله فتوفي منهم خمسة في الطريق بسبب نهش الأفاعي. وبدلاً من استعمال الشرباق الكحولي المعتاد، توكل لورنس، كرفاهة البدو، على الله. وفي جريرة العرب كثيراً ما تنسل الأفاعي ليلاً إلى خيام الثائمين طلباً للدفء، لكنها لا تندغ إلا إذا خان الثائم الحظ وأراد أن يتقلب مما ينسب في إخافتها. ومع أن ضماثرهم غير مرتاحة بشكل عام، فإنهم ينامون بعمق!

عندما كان لورنس ورجاله يخرجون نبالاً في حملات استطلاعية في منطقة الأفاعي، كانوا يلبسون الأحذية ويحرقون على ضرب كل بقعة من الأرض قبل أن يطوروها وكذلك كل شجيرة تعترض طريقهم. عندما كان العربي يُبشش كان رفاقه يقرؤون له بعض آيات من القرآن، فإما أن يعبش وإما أن يموت، وكله بمشيئة الله.

بالرغم من أن العرب كانوا يعلمون بأن لورنس مسيحي، فقد كسب ثقتهم للدرجة أن كانوا يدعونه أحياناً للصلاة معهم. كان يفعل ذلك لإرضائهم فقط، لكنه كان يحفظ كل الصلوات المهمة لكي يكون جاهزاً في حالات الطوارئ التي قد يكون عدم اشتراكه في الصلاة فيها سبباً في إحراج الأمير فيصل والملك حسين في حضور أفراد من القبائل القريبة. ولحسن الحظ لم تحدث حالة الطوارئ تلك أبداً.

عندما كان لورنس يصلي مع البدو في بعض المناسبات، فقط ليرضيهم، كانوا يسجدون على سجاجيد الصلاة مضمين وجوههم شطر مكة. كان أحد الشيوخ يقوم بدور الإمام فيقومون بالاقتراء به في حركات منتظمة ويرددون مقاطع من القرآن. هناك صلوات في الصباح وأخرى في الظهر ثم ثالثة عند مغيب الشمس، لكن الكلمات المرددة تبقى نفسها تقريباً. ولاحظت أن لورنس ورجاله يلتفتون في نهاية الصلاة تارة إلى اليمين، ثم إلى اليسار قبل التهوؤ، ولما سأله عن السر في هذه الحركة قال لي إن هناك منكن يقفان إلى جانبي كل شخص يصلي. يسجل الملك الأول الأعمال الطيبة والملك الثاني يسجل الأعمال السيئة، وإن من العادة أن يسلم المصلي على كل منهما بعد أن يفرغ من صلاته. ومع أنه يُطلب من المسلم الحقيقي الصلاة خمس مرات، فإن لورنس وجماعته كانوا يكتفون بالصلاة ثلاث مرات فقط في اليوم، وإلا لأمضى الجيش العربي في صلاتهم وقتاً أطول من الذي يمضونه في القتال.

لقد تمكن لورنس من التغلب على العقبتين الرئيسيتين اللتين واجهناه بين البدو بشكل خاص، ألا وهما كونه أجنبياً ومسيحياً. لم يقابل البدو من الأجانب إلا الأتراك، وكانوا يحتقرونهم ويعتدونهم قوماً بدائيين بينما يعدّون أنفسهم من العقلاء المتفهمين. أمّا المسيحيون الوحيدون الذين يعرفونهم فهم مسيحيو الساحل السوري الأصليون

والأرمن الذين اعتادوا على الخضوع والاستسلام بدلاً من إظهار الشجاعة، وهؤلاء أيضاً يبغضهم العرب. كانوا يتجاهلون كون لورنس مسيحياً لأنهم يرون أنه من العيب أن يتفوق مسيحي عليهم في الأمور التي يتميزون بها عادةً. مع ذلك كانوا في بعض الأحيان يطلبون منه تلاوة صلواته بصوت عالٍ، وكان يتلوها بطلاقة.

كان تشارلز م. داوتي Charles M. Doughty، الرحالة والشاعر، هو الرجل الوحيد كما أعلم، باستثناء لورنس، الذي تجول في أنحاء جزيرة العرب بحرية كرجل مسيحي. أمّا المستكشفون الآخرون في الأرض المقدسة فقد تخفوا بهيئة أشخاص مسلمين. ضرب داوتي رقماً قياسيًّا في انقراض من الموت، وربما يرجع الفضل في نجاحه إلى أنه كان يتقلّ دائماً دون سلاح، ولم يفعل شيئاً خفياً قط. لم يكن يحمل معه مالاً، وكان يقوم على مداواة المرضى بالأدوية البسيطة التي كانت معه، وإعطاء اللقاحات للعرب. كان رجلاً مسناً مثقفاً ويعيش الآن في منطقة تقع على الساحل الجنوبي من إنكلترا. تربطه بلورنس أواصر الصداقة، ويعزو الشاب الفضل الأكبر إلى صديقه بكر الجليل وإسحاق المجال له ولرفاقه بالعمل مع البدو أثناء فترة الحرب. وفي الحقيقة فإن كتاب داوتي *Arabia Deserta* كان المعين الأكبر للورنس في حملاته العسكرية.

لم تكن الثياب الزائفة التي كان لورنس يرتديها ثياباً مسرحية، بل كانت قطعة منه وجزءاً من خطته التي أحكم وضعها. أجل، كان يريد لورنس أن يتخذها وسيلة للسيطرة على العرب. بالرغم من أنه لم يلجأ إلى إخفاء دينه أو جنسيته، فقد كان عربياً من حيث المظهر الخارجي. وإذا استثنينا أماكن معينة قليلة، كان لورنس يرى أن التنكر بفيده أكثر من الظهور بصفته الضابط البريطاني المسيحي. لو كان لورنس يريد أن يظهر كبندوي صميم، لكان من المحتم عليه أن يطيل لحيته، وهو أمر لم يكن ليفعله حتى لو توقف مصير الإمبراطورية البريطانية عليه. لجأ لورنس أكثر من مرة إلى التخفي في زي امرأة بدوية واخترق صفوف الأتراك. لكنه كان ينصح الضباط البريطانيين الذين يودون زيارة المناطق العربية والاختلاط بالبدو أن يلبسوا الكوفيات العربية لا بهدف التنكر

بل من قبل المجاملة. يتحامن البدو على لسان القبيلة ويعتقدون بأن إصرارنا على لبسها يستند إلى مبادئ لا دينية، إذا لبست القبيلة الأنيفة الحديثة أو القبيلة التماشوية المخملية، فإن أصدقائك وأقربائك سيبتبرؤون منك.

كان لورنس يقول: «البس الكوفية والعقال والعباءة تكسب ثقة العرب وصادقتهم، مما بعد أمرًا مستحيلًا لو أنك بقيت بملابسك الأوروبية. لكن التمريل بالثياب البدوية له مخاطره كما أن له حسناته وميزاته. فالبدو يذهب في تسامحه مع الأجنبي إلى أبعد مدى ويفتخر له خطيئاته وزلاته مادام في ثيابه الأوروبية، ولا يفعل ذلك إن كنت مرتدياً الملابس العربية. وهو ينظر إليك نظرة الألمان إلى الممثل الإنكليزي الذي يظهر لأول مرة على المسرح الألماني. ولكن حتى هذا التمثيل لا ينطبق تماماً، فالأجنبي الذي يزور بلاد العرب لا يمكث ساعات أو أياماً بل يتعرض للخطر ليل نهار. ويأتي النجاح الناجم عندما ينسى العرب جنسيتك ويتحدث معك بشكل طبيعي. وعلى قدر علمي، فإن الكولونيل لورنس هو الشخص الأوروبي الوحيد الذي تقبل العرب وجوده بينهم كفرد منهم.

ينصح لورنس الأجنبي بارتداء الثياب العربية ويقول إنه في مقدوره أن يجد أوفر الثياب التي تكسبه أجمل وأروع مظهر، وكان يقوله: «قلد الأشراف والبس كما يلبسون إذا كانوا يسمحون لك بذلك. وإذا صممت على اختيار الثياب البدوية فمن الضروري أن تستمر في ذلك إلى النهاية. امرتك أصدقائك الإنكليز وعاداتك الإنكليزية على الشاطئ واقتبس العادات العربية كاملاً. إذا استطعت التفوق على العرب فقد تمكنت من بلوغ النجاح الباهر، لكن انجهد الذي سنبذله في العيش والتفكير بلغة أجنبية، والطعام الشهي، والملابس والطرق الغربية، مع الفقدان الكامل للخصوصية والهدوء، واستحالة إهمالك لتقليد الآخرين لأشهر عديدة، كل ذلك بضيف عبثاً جديداً يجعل من الأمر الذي أنت مقدم عليه بحاجة إلى تفكير عميق».

عندما لا يكون لورنس مشغولاً بقيادة حملة عسكرية أو زرع الأبقار على سكة الحجاز الحديدية، كان يتكبر في ثوب امرأة بدوية، ويتسلل إلى صفوف الأعداء. كان

ذلك هو أفضل أنواع التذكر بهدف التجسس، لأن الحراس الأتراك كانوا يرون أنه من العار عليهم أن يتعرضوا للسرقة بالجمنة المألوفة: «قف، من هناك؟». كان بين الحين والآخر يخترق مئات الأميال داخل أراضي العدو، حيث جمع الكثير من المعلومات التي ساعدت جيوش القبلد مارشان ألنبي وقوات الأمير فيصل العربية على القضاء على الأتراك بطريقة لم ير التاريخ لها مثيلاً إلى يومنا هذا.

وجد لورنس في إحدى الحزات وقت فراغ لديه مدته أسبوعان ينتظر فيهما أن يجمع «عودة أوتايه» أفراد قبيلة «الحويطات»، فرأى أن يصرف هذه الأيام في مداعبة الأتراك. اصطحب بدوياً واحداً من قبيلة عنزة يسمى دغمي Dahmi وعبراً ساعداً لخطوط الأتراك متخفيين بشباب النساء المعتادة، وتابعاً طريقهما إلى تدمر حيث كان لورنس يأمل بالاجتماع بشيخ بدوي كان له أكبر النفوذ على البدو، وكان علي يقين من أن هذا الشيخ يتعاطف مع الثورة العربية. كان عليه أن يقطع ألف ميل للوصول إلى هذا الشيخ على الأفرات، لذلك ركب لورنس ودغمي ناقتيهما وسارا قاصدين بعليك، هذه المدينة الأثرية السورية المشهورة بمعابدها وأثارها الفخمة التي تافس بجمالها معابد تيسا وأثارها. كان تعيش هناك قبيلة نصف بدوية من المتاولنة، وكانت على صلات طيبة مع الملك حسين والأمير فيصل، مع أنهم قد أجبروا على التعاون مع الأتراك. أراد لورنس زيارة هؤلاء القوم ليؤكد من مساعدتهم للثورة العربية بعد عدة أشهر، أي عندما تنقذ قوات الحجاز وجيوش ألنبي لتبعد الأتراك شمالاً عبر الأراضي السورية. كانت خطته تقضي بأن يثير حماس كل القبائل السورية حتى يقضوا مضاجع الأتراك ويصدوهم عن أراضيهم.

قبل وصول لورنس إلى بعليك بميلين، انزلق بخفة عن ناقته وخلع ثيابه العربية وارتدى بشجاعة ثياب ضابط إنكليزي دون أن يضع الرموز والشعار. كانت بعليك لا تزال على بعد مئات الأميال على الشمال من المخطط الذي يفصل قوات ألنبي عن الجيوش التركية، وكان الإنكليز على بعد بضعة أميال شمالي القدس. أما الفرق التركية التي كانت تطوف شوارع بعليك فكانت تحي لورنس وكأنه أحد انضباط الألمان. لم يكن

هذا أمر غير عادي، إذ لو مر ضابط يروسي من الهوصار بشارع وايت هول Whitehall في لندن أثناء الحرب، لحيته دون شك الحراس المختارون. كانت نظرية لورنس هي أنه أهون للمرء أن يسير بشجاعة وحرية في نيا ب رسمية إنكليزية في الأرياف التركية، من أن يراوغ بطرق مثيرة للريبة. وبعد أن ألقى نظرة سريعة على التحصينات حول بعلبك، حاول زيارة المدرسة الحربية التركية حيث يتم تدريب الآلاف من الضباط الشباب. لكنه ما كاد يصل إلى أبواب المدرسة حتى سارع الحرس إلى سد الطريق أمامه فرأى أنه من الأسلم له أن يرجع دون طلب الترخية.

عاد لورنس إلى تنكره وذهب إلى خيام المناولة حيث خلع الثياب وكشف عن هويته. تجتمع المشيوخ حول أمير مكة الجديد وعلت أصواتهم مطالبين المقيم بالثورة العربية في الحال، لكن لورنس شرح لهم أن الوقت لم يحن بعد، وحاول حثهم على العمل المستقبلي وروى لهم أنباء الانتصارات جنوباً في الحجاز، لقد جدهم مشوقين للقيام بغزوة من أي نوع، فقبل بمرافقتهم إلى ما كان يدعو به العرض التينمائي. من خلال احتكاكه بالمبائيل البدوية اكتشف أن الضخ هو من أفضل أشكال الدعاية. لذلك اصطحب ليلاً كل رجال القبيلة ونسائها وأطفالها إلى الخط الرئيسي لشبكة الحديدية التركية التي تمر بالمسطنطينية وحنب عبر بعلبك إلى بيروت. اختار أحد أقوى وأكبر الجسور في الشرق الأدنى كهدف للهجوم الليلي. وبعد زرع الغامه تحت نهايتي الجسر وكل المناطق المحصنة، حمل السفك الكهربائي والتوصيلات إلى قمة تل قريب كان المتاول يتخذون منه مكاناً للفرجة. وفي اللحظة الحاسمة ضغط على زر التوصيل ونسف الجسر في الهواء ليصبح كتلة من النهب والدخان. اقتنع المتاول جميعهم بقوة الحلفاء وعاهدوا لورنس بأن يكونوا الجند المخلصين للملك حسين.

من هنا انطلق لورنس ورفيقه البدوي الوحيد عبر الأراضي السورية متجهين إلى دمشق. اجتازوا الأسواق ليلاً حتى وصلوا إلى قصر علي رضا باشا، وكان الحاكم العسكري للأثر الك. بالرغم من كون علي رضا ضابطاً رفيع المكانة للجيش العثمانية في سوريا. فقد كان يتعاطف سراً مع الحركة القومية العربية. بعد عشاء تلك الليلة،

وبعد شرب أكواب لا تُحصى من القهوة المحلاة، أخبر علي رضا لورنس أن اتساع الخلاف بين الأتراك والألمان سيهم في نجاح الحلفاء نجاحاً باهراً في فلسطين وجزيرة العرب. فقد أصبح الألمان متعجبين في تصرفاتهم للدرجة أنهم كانوا يعاملون الأتراك كالكلاب. وبالتالي أصبح شعور الأتراك تجاه الألمان مريئاً، وكلما أصدرت الإدارة العامة الألمانية أمراً كان الأتراك يبذلون أكبر الجهد حتى يعرفوا تنفيذه.

وحدث أن فالكنهاين الفائز الألماني العظيم قد نصح الأتراك قبل أسابيع نصيحة قيمة، نكسهم لم يقبلوها فضلاً عن عدم تقبلهم لقولكنهاين نفسه كفائد أعلى لهم. ونتيجة لرفض مشورته فوجشوا بعد ذلك بالقوات المتحدة البريطانية والعربية، فلم يفقدوا المناطق التي نصحهم فتكنهاين بمقاومتها فحسب، بل خسروا دمشق وسوريا بأكملها التي كان بإمكانهم المحافظة عليها.

بعد تناول لورنس للعشاء اللذيذ، والتزود بالمعلومات التي يريد أن يوفر عليها من قائد العثمانيين في دمشق، انسلّ مع البدوي دغمي إلى الصحراء متجهين جنوباً إلى حوران، بلدة الدروز، وهم قوم يقيمون في خيامهم حول جبل عال اسمه جبل الدروز. يعود انزال قبيلة الدروز إلى ديانتهم الغريبة، وهي عقيدة سرية تقوم على عبادة الحكيم، وهو خليفة مصري مخبر في العصور الوسطى. ولطالما عانى الأتراك من هذه القبيلة المستقلة المشاكسة عند محاولة إخضاعها للسلطة العثمانية أو إرغامها على دفع الضرائب للسلطان. وبين هذه القبيلة والقبائل العربية الأخرى أحقاد دموية قديمة، لكن لورنس قام بزيارة شيوخها وأحضر لهم الهدايا الفريدة، فتمكن من كسب صداقتهم وإقناعهم بالتحالف مع فيصل والاستعداد لمساعدة جيشه عندما يقترب من دمشق. ولو أن لورنس ارتكب خطأ واحداً، لما كان نه وجود في هذا المكان. لذلك ركب مع مرافقه دغمي وطلال، وهو شيخ بدوي مشهور في كل أنحاء جزيرة العرب، وتجاوز الثلاثة حول دمشق ودرعا وحوران يستطلعون أماكن الدفاع التركية. ثم قام لورنس باستكشاف الشبكة الحديدية التركية من جهاتها الثلاث عند التقائها في درعا، ووضع في ذهنه ملاحظات مهمة للخطوط الشمالية والجنوبية والغربية، سيكون من

الضرورة لمكان قطعها عند قيامه بالهجوم الكبير على دمشق. بقله هذا، كان معروفاً
لأخطار جسيمة، لكن إيقانه للتكرار والمماثلة بلهجات المنطقة قد أنقذاه من شكوك
الأتراك، وإلا لأردوه قتيلاً كأبي جاسوس من الجواسيس.

حدث وأن نجا من خطر محقق، فبينما كان يطوف في أزقة درعا غير مكتثرت بالأخطار
الجسيمة التي يتعرض لها من وراء إقدامه على هذه المجازفة، وقد تنكر بحيث يخيل
لناظر أنه ابن الشيخ طلال، قبض عليه جنديان تركيان في الشوق على أنه هارب من
الجيش التركي، إذ كان يتوجب على كل رجل عربي قادر على القتال أن ينضم إلى جيوش
الإمبراطورية العثمانية. أخذوه إلى مقر القيادة وضربوه حتى أعغمي عليه، ثم رموه خارجاً
بعد أشرف على المهلاك. وبعد أن استعاد وعيه زحف بعشقة وفرّ تحت جنح الظلام.

حتى تجواله في ثوب امرأة كان يحلب عنه مصاعب كثيرة. ففي عمان، في تلال
مزاب شرقي الأردن، كان لورنس قد اجتاز الحدود التركية متخفياً في ثوب غجرية
من البدو. أمضى فترة ما بعد الظهر بجوس خلال الأماكن الدفاعية المحيطة بمحطة
الشبكة الحديدية، وبعد أن قرر أنه سيكون من غير الممكن تلعب الاستبلاء عليها
بسبب الحماية العسكرية الكبيرة وقوة المدفعية هناك، توجه عائداً نحو الصحراء. لكن
بعض الأتراك رافقهم جمال هذه «المرأة» البدوية فراقبوها ثم ساروا وراءها أكثر من
ميل يحاولون استدالتها والتخريب منها، لكن لورنس عرف كيف يصدّهم عنه.

كانت بلدة الكرك، الواقعة على الطرف الجنوبي من البحر الميت، من أهم المواقع
التركية الدفاعية على حدود الصحراء العربية. وفي إحدى الليالي تنكر لورنس بزي
بدوية وتجوّل داخل خطوط العدو مع الشيخ طراد بن تويرس من قبيلة بني صخر،
ووجد أن هناك ما لا يزيد عن ثلاثمائة تركي فقط. أقيمت وليمة عشاء في تلك الليلة
وجلس لورنس مع الشيخ طراد وأحد أصدقائه من الكرك. واحتفالاً بالزوار ذبح رجال
القبيلة الخراف والماعز وأوقدوا ناراً عظيمة في الشوارع ثم طفقوا يرقصون ويهزجون
حول التيران ويغنون أغانيهم الحربية حتى ساعة متأخرة من الليل. استولى الهلع على
أفراد الحماية التركية فنزحوا حصنهم ثم يبرحوه.

بعد انتهاء الاحتفال غادر لوزنس ومرافقه الكوك عائدين إلى العقبة، وجاءت النتيجة كما أمناها لوزنس؛ لقد طلب الجنود الأتراك المتحدة من عسطين فأرسل ألفا جندي من القوات المضادة لاثنين إلى الكوك. وبهذا حقق لوزنس الهدفين اللذين كانا في ذهنه، فقد تحول في منطقة العدو بشكل واسع ونشر دعاية كبيرة للحركة الوطنية العربية بين القبائل التي كانت لا تزال ترواح تحت الحكم التركي المستبد، كما أنه حصل على معلومات كافية ليملاؤها مجلداً عن خطط القائد الأعلى للجيش الأتmani. لقد قام باستكشاف ما وراء الحدود التركية بشكل شامل ودقيق تدرجاً أنه أثناء حملته الأخيرة، كان يعرف المنطقة بنفس الدقة التي كان عنها الأتراك أنفسهم.



سيارات مصفحة في جزيرة العرب المقدسة



مدافع لورنس الجبلية خلال العمليات

* * *

الفصل الثاني والعشرون

أكبر خدعة بعد حصان طروادة

بعد احتلال ميناء العقبة القديم، اجتاحت ثورة الأشراف كل أنحاء سوريا، وبعد الاعتراف نهائياً بأن الجيش الحجازي هو المساعد الأيمن لجيش آلنبي، أصبح من المحتم أن تكون حركات لورنس ملائمة ومطابقة لخطط آلنبي الحربية.

وكان الجنرال الإنكليزي يومئذ الحاكم المطلق في جنوبي فلسطين، من وادي الأردن إلى شواطئ البحر الأبيض المتوسط حتى جنوب جبل الكرمل، المعروف منذ أقدم العصور باسم جبل الله. لقد أسهمت حملته الأولى في خريف عام 1917 في تحرير بشر السبع، الموطن الأول للثبنيين إبراهيم ولوط، وغزة، عاصمة فلسطين حيث خانت ذيلة شمشون، وحبرون (الخليل) Hebron، حيث دفن إبراهيم وإسحاق وسارة وريقة Rebecca في كهف مكفلاً Machpelah. كما أسفرت أيضاً عن تحرير باقيا، الميناء الرئيسي لفلسطين منذ أيام النبيين داود وسليمان قبل ثلاثة آلاف عام، وكذلك سهول فلسطينيا Philistia وسهول شارون Sharon، وأهم من ذلك كله تحرير المدينتين المقدستين بيت لحم والقدس من الاستبداد العثماني.

أما أرض السامرة Samaria القديمة ومدينة الناصرة Nazareth وكل الجليل Galilee والسهول الساحلية في شمال فلسطين وكل الأراضي السورية، فلا تزال ترواح تحت وطأة الأثر الك. لذلك لم تكتمل نتائج الحملة تماماً. كان هناك خياران أمام آلنبي: فيما أن يدفع الأثر الك شمالاً بشكل تدريجي، وما أن يسحق القوات التركية في الشرق بضرية قاصمة. اختار القائد العام الخيار الثاني الذي يحمل في طياته مخاطرة كبيرة.

لقد قرّر أن يبدأ هجومه شمالي يافا والقدس في شهر يوليو من عام 1918، لكن في شهر يونيو، عندما كان لوندورف يقوم بشن الهجوم الأخير على باريس وموانئ القناة، كان الحلفاء يعانون من الضغوطات الشديدة في أوروبا الغربية بحيث أرسلوا إلى ألبي يطلبون منه إرسال تعزيزات إلى فرنسا.

تعارض ذلك الأمر كلياً مع خطط ألبي، وأصبح من المنحتم عليه الآن خلق جيش جديد. كان هذا الخبر مفاجئاً لكن إنكلترا والحديثة عمدت فوراً إلى تشكيل جيش جديد معظمه من الفرق الهندية في بلاد الزافدين ومن فرسان القوي الأسترالية والنيوزلندية ANZAC بقيادة الجنرال الأسترالي هاري شوفيل Harry Chauvel الذي كان قائداً لأضخم فرق خيالة شاركت في الحروب على الإطلاق. وبدلاً من مهاجمة الأتراك في شمال فلسطين في يونيو أو يوليو، أصبح من العسير الآن القيام بذلك قبل شهر أكتوبر أو نوفمبر. كان تورنس مقتنعاً بأن مثل هذا التأخير من شأنه أن يصعب عليه إمداد مبعثة الجيش بالمساعدة المرجوة. عندها سيكون البدو راغبين في الانحلال بقطعانهم إلى مراعيهم الشنوبية على هضاب وسط جزيرة العرب، بالإضافة إلى خبرته بأن أقطار الخريف سوف تعيق أية عملية عسكرية يرجى القيام بها.

شرح كل ذلك للقائد العام الذي تفهم الوضع فقام بتشكيل جيشه الجديد بسرعة خيالية بحيث تصبح قواته قادرة على التحرك خلال ثمانية أسابيع من تاريخ وصولها من بلاد الزافدين. وفي نهاية شهر أغسطس أرسل طائرة إلى جزيرة العرب تحمل رسالة إلى تورنس يعلن أنه فيها عن استعداداته للانضمام إلى الهجوم في سبتمبر بدلاً من أكتوبر أو نوفمبر.

ولما كان ألبي يدرك افتقار جنوده للتجربة والمراس، رأى أن السبيل الوحيد للقضاء على الأتراك هو ألا يأخذهم بالقوة في القتال وجهاً لوجه، بل أن يعتمد على المكائد والحيل. وصمم على إيهام الأتراك بأن جيشاً بريطانياً يتحرك على طول نهر الأردن من البحر الميت إلى الحليل، لكن توجب أن يكون هذا الجيش زائفاً. أثناء الإعداد لهذه الخدعة كانت خطة ألبي الأولى تقضي بنقل كل المستشفيات التي تحمل على

الجمال من جنوب فلسطين إلى وادي الأردن على بعد خمسة عشر ميلاً من خطوط النار التركية. ثم جاء بمئات من الخيام الممزقة المشحونة من مصر، ونصبها على ضفاف نهر الأردن، ثم سحب كل المدافع التي كان قد غنمها من الأتراك فأوصلها إلى وادي الأردن ووجهها نحو الأتراك المتعسكرين في نلال مؤاب. أتى بعد ذلك بعشرة آلاف بطلانية ونشرها على أغصان الأشجار في الوادي وربطها بطريقة يخيل لمن يراها أنها خيول مصقوفة بنظام. كما أنشأ خمسة جسور معلقة جديدة فوق النهر.

امتلا وادي الأردن بكل التجهيزات التي توهم بوقوع معركة كاذبة. والواقع أنه لم يقدم أحد قبله، منذ أن احتل اليونان طروادة بواسطة حصانهم الشهير، على مغامرة كهذه، في مقاومة الجيوش النظامية عن طريق التفرير والإيهام.

وعندما حلفت طائرات الاستكشاف الألمانية فوق الأردن، عادت فوراً إلى مركز القيادة التركية العليا بنياً تهية ألنبي نفرفشين جديدين في المنطقة. لقد كان الجيش الرومي الذي أعده الجنرال بارثولوميو، وهو من ضباط ألنبي، مُحكماً بحيث لم يخطر في بال الألمان والأتراك أن يكون زائفاً. ولحسن الحظ كانت الرقابة دقيقة وشديدة فلم يستطع معها جاسوس ألماني أو تركي الوصول إلى اكتشاف هذه المؤامرة الكبرى المذهشة. أسهم لوزنس أيضاً في خداع الأتراك، فقبل الموعد المحدد للهجوم بقليل جاء ثلاثمائة فرد من فرق الهجانة في فلسطين لعساندته، وكانوا بقيادة الكولونيل روبن بكستون، وهو جندي موهوب كان يعمل قبل الحرب كموظف بارز في مصرف لومبارد ستريت Lombard Street. وبنوحيه من الميجور مارشال W. E. Marshall قامت الفرقة بمهاجمة حامية تركية مهعة في المدورة حيث حدث اشتباك رائع لمدة عشرين دقيقة، وذلك في الثامن من شهر أغسطس.

بعد معركة المدورة، ضم لوزنس فرقة الهجانة إلى البدو وقادهم بالاتجاه المعاكس لعثمان، إلى شرق الأردن. كانت تلك مجرد خدعة لكنها أثبتت للأتراك أن وادي نهر الأردن كان محتشداً بقوات ألنبي. أرسل لوزنس أحد أبرز شبوخ بني صخر إلى دمشق بعد أن أعطاه سبعة آلاف جنيه ذهبي وطلب منه شراء الشعير. نجون هذا الشبح في

المدن والغرى على الحدود الشرقية لسوريا يشتري الشعير بكميات كبيرة. كان الأتراك يعلمون أن خيانة الأمير فيصل لن تستهلك هذه الكميات الكبيرة من الحبوب، فأيقنوا أن الشعير ذاهب إلى قوات آلنبي في وادي الأردن. كما أشاع لورنس بين صفوف الجيش العربي أن الفرقة الرئيسية للأمير فيصل تعتزم الهجوم على الخط الحديدي في درعا بين عمان ودمشق.

علق لورنس قائلاً: «في الحقيقة كنا ننوي مهاجمة درعا، لكن الإشاعة سررت في كل مكان بحيث رفض الأتراك تصديقها. ثم أسررنا إلى بعض الأشخاص أننا كنا نركز قواتنا فعلاً نحو عمان. لكن ذلك لم يكن صحيحاً». تسرب هذا الخبر بالطبع إلى الأتراك الذين قاموا على الفور بنقل القسم الأكبر من قواتهم إلى ضواحي عمان، تماماً كما خطط آلنبي ولورنس.

عندما بدأ تقدم الجيش العربي، لم يكن الأمير فيصل والكونولونيل جويس والكونولونيل لورنس يعلمون أن الهجوم سيتركز في درعا. وفي أوائل شهر سبتمبر بدأ لورنس انتحريك شمالاً من رأس خليج العقبة لمساندة آلنبي في هجومه النهائي. ولكن بدلاً من اصطحاب أتباعه البدو من الحجاز، باستثناء حراسه الخاصين، شكل لورنس جيشاً جديداً من قبائل شمال الصحراء العربية، واستمر جويس بدعمه بأعداد متزايدة من الفارين من الجيش التركي.

عندما انطلقت فافلة لورنس في وادي عربة من رأس خليج العقبة، كانت مؤلفة من ألفي جمل تحميل، وأربعمئة وخمسين جندي نظامي عربي يركبون الجمال السريعة، وأربعة مدافع رشاشة عربية، وطائرتين، وثلاث سيارات داولر روبس مصفحة، وفرقة من خيرة الرجال المصريين الهجائن، وكتيبة من هندو الغورخا Gurkhas يركبون جمالاً عالية من صحراء السند، وأربعة مدافع ثقيلة يقوم على تشغيلها فرنسيون من أصل جزائري. علاوة على كل ذلك، كان لديه مئة بدوي من حراسه الخاصين المتميزين. وكانت قواته بذلك تحتوي على ألف رجل يركبون الجمال.

كان شعار لورنس في هذه الحملة، كما في غيرها من الحملات، «لا تنفروا!».

كان عليه أن يقطع خمسمائة ميل عبر صحراء مجهولة وبصعوبات تنقل كبيرة. لقد ساروا في إحدى المراحل لمدة أربعة ساعات بين حفرة ماء وأخرى وهم يحملون قرايب انماء معهم ويعانون من العطش. وعندما وصلوا إلى حفرة انماء الجديدة شربوا حتى ارتنوا ثم اكتشفوا أن انماء مليء بالمغذيات، التي التصقت بالأغشية المخاطية لأنوفهم ونسيت بالأم شديدة. تمكن الفريق من إنهاء الرحلة في أربعة عشر يوماً، وكانوا يسرعون بجهة الشمال حتى يقطعوا طريق التكة الحديدية التركية وكل خطوط التلغراف حول درعا. كان الهدف الرئيسي للورنس هو منع الأتراك من الاتصال بدمشق وحلب والقسطنطينية عندما يبدأ آلبي تحرّكه.

نجحت خدعة الجيش الوهمي في الأردن نجاحاً باهراً. وفي الحقيقة كان هناك، في ذلك الجزء من الأرض المقدسة، ثلاث فرق تتألف اثنان منها من اليهود القادمين حديثاً من الجزر البريطانية والولايات المتحدة.

لو كان الأتراك يعلمون ذلك لأرسلوا كتيبة واحدة تأتي من وراء تشكيلات آلبي لتقوم باسترجاع القدس! كان آلبي يخامر مغامرة كبرى، وهكذا يفعل الرجال العظام.

لقد زوّد القائد العام فرقه في وادي الأردن بمؤن تكفيهم ثلاثة أسابيع فقط، لكي يتمكن من استخدام كل وسائل النقل لنجيش الأساسي. احتاج فريق التزويد وقالوا إنه يجب إعطاء الفرق التي في الأردن مؤناً تكفي ثمانية أسابيع، لكن آلبي كان يعلم أنه آمن تماماً طالما أن خطته بالضربة القاضية كانت تسير على خير ما يرام.

لقد أحس آلبي أنه لن يكون من الأمان الاشتباك في معركة مع الأتراك بهذا الجيش الصغير غير المدرب، ولهذا كان هدفه الوحيد هو أن يغري كل التعزيزات التركية بالاتجاه إلى المكان الخاطيء، أي إلى وادي الأردن.

تم تحديد الهجوم الزائف لآلبي قرب أريحا في الثامن عشر من سبتمبر. حرصت الاستخبارات البريطانية على تسرب هذا السّر، وبالتالي كان الأتراك جاهزين لتلقفه. أمّا الهجوم الحقيقي فقد تم في التاسع عشر، وعندما استغافوا واكتشفوا الخدعة كانت

الحرب في الشرق الأدنى قد انتهت، ووقع معظمهم أسرى لنعرب أو للبريطانيين. لم يحدث الهجوم بالطبع في وادي الأردن بل بعيداً على الجانب الآخر من فلسطين إلى الشمال من يافا على ساحل البحر الأبيض المتوسط. كانت معظم فرق المشاة والخيالة قد نقلت إلى هناك ليلاً، ويقوا مختفياً داخل بساتين البرتقال حتى صباح المعركة الحقيقية التي قصت ظهر الإمبراطورية العثمانية.



الجنرال جيمس ديل من بغداد



«فصل الأول، ملك بغداد»

الفصل الثالث والعشرون

معركة الخيالة والبحرية وآخر حملة للورنس

كان الطريق الوحيد لجلب كل الذخائر والمؤن التركية من شمال سوريا هو الشبكة الحديدية الواصلة بين دمشق وفلسطين وعُمان والمدينة. وكانت خطة لورنس هي التسلل عبر بحر الزمال والالتفاف حول النهاية الشرقية للمخطوط التركية والمظهر فجأة في الصحراء وراء الأنراك لقطع كل اتصالهم في المنطقة المحيطة بديرعا. لكن إحدى المصاعب الكبرى التي واجهته في إنجاز هذه المهمة كانت تزويد فرقته بالمؤن الكافية. حتى سياراته المصفحة وقائراته لم تكن تستطيع حمل ما يكفي من الوقود لتسييرها. تبلغ المسافة من العقبة إلى واحات الأزرق Azarak مئتين وتسعين ميلاً داخل الصحراء المنتهبة. لم تكن هناك آبار سوى في أمكة ثلاثة يمكن للمجمال الارتواء عندها، وكان على العرقة الضخيرة العيش على كميات قليلة جداً من الماء.

استراحت الفرقة في منطقة الطَّفيلة، وهي قرية ذات ستة آلاف نسمة، حدثت بالقرب منها أغرب مرحلة في الحملة كلها. سارت فرقة من الخائين البدو ليلاً بقيادة أبو ارقيق Irgeig من بئر السبع إلى قاعدة بحرية لعدو قرب الطرف الجنوبي للبحر الميت، غير بعيد عن مدينتي سدوم وعمورة القديمة. كان الأسطول التركي في البحر الميت مؤلفاً من بضع سفن عتيقة، وكانت هناك مراكب آلية مسلحة بمدافع خفيفة تتجول على طول الشاطئ. كان الضباط يشاولون طعام الفطور في مقصف قريب دون أن يهتموا باقتراب القوات المعادية. رأى أبو ارقيق Irgeig أن السفن خالية سوى من بعض الحراس، فأمر رجائه بالترجل. وبسرعة فائقة صعدوا على متن المراكب

كالفراصرة المتوحشين وهاجموا الضاقم وأغرقوا القوارب، ثم ركبوا خيولهم الأصيلة واختفوا داخل الصحراء قبل أن يسمع الوقت للأتراك المذهولين لإدراك ما حدث. قد تكون هذه هي المرة الأولى في التاريخ التي ينتصر فيها الخيولون في اشتباك بحري.

كانت خطة لورنس الأساسية أن يضم قبيلة الرزّة تحت لوائه، وهي قبيلة تمتد إلى مساحة واسعة من الصحراء العربية الشمالية، ومن ثم النزول من هضبة حوران للقيام بالهجوم على درعا. لم يتحقق أي من ذلك بسبب الخلاف البسيط غير المتوقع الذي نشأ بين الملك حسين والجنرال جعفر باشا وكبار ضباط الجيش العثماني، مما عكّر مزاج قسم كبير من قوات لورنس. وفي الوقت الذي استتبّ فيه النظام من جديد كان الأوان قد فات، ونتيجة لذلك لم تتجمع قبائل الرزّة مما اضطر لورنس إلى تغيير خطته.

قرّر في النهاية أن ينفذ هجوماً جويّاً على الشبكة الحديدية في شمال وغرب وجنوب درعا بقواته النظامية، وأيضاً بمساعدة دروز حوران وبعض من خيالة الرزّة بقيادة الشيخين خالد وطراد الشعلان. قبل البدء بالهجوم رتب لورنس خدعة أخرى تتم في الثامن عشر من الشهر ضد عمان والسلط، لذلك أرسل رسالة إلى أفراد قبيلة بني صخر كي يتجمعوا في الصحراء قرب عمان. أدى تسرب هذه الشائعة، بالإضافة إلى وجود جيش آلبي الوهمي العظيم في وادي الأردن، أدى ذلك إلى تركيز انتباه الأتراك على الأردن بدلاً من المنطقة الساحلية على البحر المتوسط شمالي مدينة يافا.

اتخذ لورنس من واحة الأزرق Azarak مقراً له لبضعة أيام، وكان فيها قلعة قديمة رائعة تعود إلى فترة ما بين القرنين الرابع عشر والسادس عشر، ولها أبراج وفتحات للرمي على نمط قلاع البارونات الاسكتلنديين. لا بدّ أنها كانت مركزاً للإمبراطورية الرومانية، إذ وجد الكولونيل بكستون ضمن الآثار حجراً منحوتاً عليه نقوش تدلّ على أن فرقتين من فرق أنطونيوس بيوس قد أقامتاً فيها، وعلى الأغلب لم تزرها فرق أخرى حتى جاءها لورنس ورجاله. يرفض العرب الاقتراب منها لأنهم يقولون إنها مسكونة من قبل كلاب صيد مسعورة تجوس حولها ليلاً. أمّا لورنس فكان يحلم بأن يجعل من قلعة الأزرق Azarak بيتاً له بعد انتهاء الحرب.

في الثالث عشر من هذا الشهر غادر لوزنس واحات الأزرق Azarak وسار باتجاه سفوح مضاب السلط، ترافقه القوة الصغيرة التي نظمها بهدف الهجوم على درعا. وصلوا بعد يومين إلى القابية Umtaiye التي تبعد ثلاثة عشر ميلاً إلى جنوب شرقي درعا، وحيث انضم رجال فرى حوران كلهم تقريباً إلى الجيش العربي. كان من بينهم الشيخ طلال الحريدين من طَفَس el Hareidhin of Tafas، وهو أفضل مقاتل في حوران، وكان قد صاحب لوزنس في بعض حملاته المتجسّبة وراء الحدود التركية. ولقد عمل كدليل للحملة وساعد لوزنس في مهمته في كل القرى. يقول لوزنس إنه نولا شجاعة هذا الرجال ونشاطه وصدق، لفشلت كل خططه على يد أفراد القبائل التي مزوا بها والتي كانت معادية للملك حسين والأمير فيصل. يقدر عدد الرجال من القرويين والبدو، الذين انضموا إلى لوزنس في حملته الأخيرة والحاسمة في الشرق الأدنى، بثلاثين ألفاً.

بالإضافة إلى قطع خطوط الاتصال، كان في نية لوزنس أن يضع نفسه وفرقه بين نقطة اتصال الشبكة الحديدية في درعا والجيش التركي في فلسطين ليغري العدو بدعم الحامية المنعزلة في درعا بفوق عسكرية من الجبهة الفلسطينية، انتي من شأنها أن تعيق تقدم النبي. في اللحظة ذاتها، كان من الضروري أيضاً بالنسبة للوزنس أن يقطع طريق الشبكة الحديدية في جنوب وغرب درعا، حتى يرهق العدو بأن الحلفاء كلهم قادمون لمواجهة الجيش التركي في وادي الأردن.

كانت الوسيلة الوحيدة المساعدة في تعطيل الشبكة الحديدية هي السيارات المصفحة. هدرت السيارات بقيادة لوزنس على طول الخط الحديدي وتم الاستيلاء على المركز قبل أن يتمكن الأتراك المذهولون من إدراك الخطر الذي يحق بهم. كان المركز يطل على جسر مهم يقع على بعد 149 كيلو جنوبي دمشق، نقش عليه إهداء خاص للسلطان عبد الحميد.

قام لوزنس بررع أنغام تحتوي على مئة وخمسين باوياً من المتفجرات في الطريق وفي المركز، وعندما أوصلهما ببعضهما تلاشى الجسر مع أناسم الخريف. عند إنهاء

المهمة تابعت السيارات سيرها بسرعة عالية لكنها علفت في الزمان وتأخرت لبضع ساعات، وفي طريق العودة للانضمام إلى الجيش في حوران، اجتازت الشبكة الحديدية الراقعة على مسافة خمسة أميال شمالي درعا، حيث استولى لورنس على مركز آخر وهو م غرفة خبالة كروية ونسف جسراً ثانياً واقتلع ستعنة زوج من الشكك.

بعد نسف ما يكفي من الشبكة الحديدية بجوار درعا لجعل نظام الإمدادات التركي في حالة فوضى عارمة، صعد لورنس ورجاله إلى مرتفع عال يدعى بجبل عري Tell Ars يطل على منظر شامل لدرعا على بعد أربعة أميال. وبواسطة منظاره التحري رأى تسع طائرات على مدرج العدو. أثناء فترة الصباح كان الطيارون الألمان قد انطلقوا في الهواء، وكانوا يلعبون لعبة قذرة مع فرق لورنس بإلقاء قنابلهم على العرب وقصفهم بمدافعهم الرشاشة. حاولت قوات الأشراف الدفاع عن نفسها من الأرض بمدفعينها الخفيفة لكنها فشلت في ذلك إلى أن وصلت إحدى طائرات لورنس القديمة من واحة الأزرق بقودها الكابتن جونور، واتجه مباشرة إلى وسط الكتائب الألمانية.

راقب لورنس ورفاقه ما يحدث بمشاعر مضطربة، إذ كانت طائرات العدو متفوقة على المركبة البريطانية التاريخية. لكن الكابتن جونور استطاع، بفضل مهارته وحظه الحسن، أن يمر بين الطيارين الألمان ويقود طائرته باتجاه الغرب.

بعد عشرين دقيقة عاد جونور الشجاع يخترق الهواء عبر أسراب طائرات العدو وأشار للورنس في الأسفل أن الوفود قد نفذ لديه، هبط على بعد خمسين ياردة من الفرقة العربية وانزلت طائرته على ظهرها، فما كان من الطائرة الألمانية إلا أن انقضت عليها وألقت قنبلة أصابها إصابة مباشرة تحولت على إثرها إلى قطع صغيرة. لحسن الحظ كان جونور قد فتر من مقعده قبل الانفجار بلحظة واحدة، وكان الجزء الوحيد الذي لم ينحطم في الطائرة هو مدفع لويس الرشاش. وفي خلال نصف ساعة كان الطيار الشجاع قد نفذ إلى ساحة فورد وانطلق خارج درعا يعطّر الأثر الكبرصاصه الخطاط.

في تلك الأثناء أسرع لورنس لينضم إلى الفرق التي كان قد أرسلها باتجاه مزريب،

وبعد ساعة من الوصول إليها ساعد في قطع خطوط التلغراف التركية بين فلسطين وسوريا، من الشعب حقاً تقدير أهمية هذا الأمر، إذ كان يسهم في عزل الجيوش التركية تماماً عن الإمدادات التي قد تصلها من شمال سوريا وتركيا. وفي مزيريب انضمت بضعة آلاف أخرى من السكان إلى القوات العربية، وفي اليوم التالي سار لورنس وفرقة على طول الشبكة الحديدية باتجاه فلسطين إلى قلب المنطقة الخلفية للأتراك. أمضوا معظم ذلك اليوم يزرعون الألغام، وبالتقريب من نصيب فجر لورنس الجسر التاسع والتسعين، وهو جسر كبير له ثلاث قناطر جميلة، وكان هذا العمل آخر ما قام به من الأعمال التخريبية. ولما كان يحس أنها ستكون آخر عملية، فقد وضع ضعفي الكمية المطلوبة من المتفجرات.

أضحت الفرقة في الثامن عشر من الشهر ليلة هادئة في نصيب بعد يوم عمل شاق. وفي الصباح التالي، سار لورنس بجماله وخبرته وبدؤه إلى التايهة Umtaiye حيث انضمت إليه السيارات المصفحة. وأثناء النهار حدد موقع مطار آخر للعدو بالقرب من سكة الحديد فذهب مع سيارتين مصفحتين ليلقي نظرة فريعة. وهناك وجدوا ثلاث طائرات ألمانية أمام المبنى، ولو لم يكن هناك هذا الوادي العميق لسبقتهما السيارتان المصفحتان عندما أقبلت ثلثان من الطيارين الألمان وحلقا كطائر ضخم بصيانه شلالات من الرصاص على سيارتي الزولز دويس. وفي الوقت نفسه كان لورنس وطاقمه قد أجهزا على الطائرة الثالثة بإطلاق خمس عشرة رصاصة نحوها. عندما كانت السيارتان المصفحتان تحاولان العودة إلى التايهة Umtaiye انقضّ الألمان عليهما لكن قنابلهم ضاعت هباءً وتجت السيارات بأمان عدا شظية واحدة أصابت يد الكونونيل. وعند الحديث عن العمل الذي قامت به السيارتان علق لورنس قائلاً إن ذلك القتال كان متميزاً حقاً.

في اليوم نفسه قام العرب النظاميون بعمل رائع أيضاً يفودهم جعفر باشا بمرافقة الفصيل الفرنسي المدرع وخيالة الرؤنة بقيادة توري الشعلان.

وجعفر باشا هذا، الذي شق طريقه ببراعة في المعركة، هو من عائلة بغدادية تربية

نبيلة، وتاريخ حياته مفعم بالمشقات والمخاطر. ولما اندلعت الحرب كان جعفر باشا العسكري جنرالاً في الجيش التركي، وأُرسل في حواصة من القسطنطينية إلى إفريقيا الشمالية لبحرّض سكان الصحراء من عرب السنوسي على الفتنه والثورة على الإنكليز. وقد نجح يادى الأمر في النصر على الإنكليز، ثم حدثت الموقعة الثانية فكانت سجالاً بين الجيشين، ولما وقعت الموقعة الثالثة جرح جعفر باشا جرحاً خطيراً وهزم السنوسيون هزيمة منكرة في Agagia قرب السلوم Soltum وساقه البريطانيون أسيراً، وسجنوه في قلعة القاهرة العظيمة.

حاول الهرب بعد ثلاثة أشهر، فسقط في الخندق وكسر كاحله وقُبض عليه من جديد. كان بديناً كالبرميل، مرحاً بحب الاستمتاع بالحياة، لكنه كان لطيفاً محبوباً فأذن له الإنكليز بالسجن في أنحاء القاهرة. ولما كان جعفر باشا عربياً كان من الطبعي أن يتعاطف مع القضية العربية، وذات يوم طلب من الإنكليز أن يسمحوا له بالتطّوع في جيوش فيصل فلبى الإنكليز طلبه، وهناك أظهر من المقدرة الحربية في شهور قليلة ما جعل الأمير فيصل يرقبه إلى رتبة قائد عام للجيوش النظامية التي كانت تتألف بشكل أساسي من الغازين من الجيش التركي، والذين كانوا يعرفون جعفر عندما كان جنرالاً في تُركية.

كان جعفر باشا قد حاز على وسام الصليب الحديدي في الدردنيل، كما نال وسام الهلال التركي بعد نجاحه في حملة السنوسيين، وبعد أن خدم مدة من الزمن في الجيش العربي انضم إلى الجيش الإنكليزي وأظهر براعة فائقة، عينه الإنكليز قائداً للفرقة المعروفة بفرقة «القدّيس ميخائيل والقدّيس جورج». وقلده ألني هذا الشرف في مقره بالزملة من أرض فلسطين. وكان الذي منحه هذا الشرف هو البريطاني ذاته الذي كان قد أسره منذ عام، ولا نسل عن فرحة جعفر باشا وسروره لهذه اللقطة المرحّة من قبل أنجنرال ألني.

لم يكن الدور الذي لعبه نوري الشّعب، صهر جعفر باشا، أثناء الحرب بأقل أهمية من دور جعفر باشا نفسه. لقد بقي نوري الشّعب رئيساً لإدارة الأمير فيصل حتى تولى

فيصل الحكم في دمشق، ثم في بغداد. ونوري السعيد يشبه جعفر باشا في أنه قد تلقى علومه الحربية في كلية تركية. وكان طياراً إبان الحرب البلقانية. ثم عمل سكرتيراً للجمعية السورية العربية التي كانت تعمل على الإطاحة بالحكم التركي. وهو رجل مغوار يحب القتال، وكلما كان القتال حماسياً حامياً تراه هادئاً رابط الجأش. وهو من سكان المدن الفلافل الذين كانوا موضع احترام البدو وأعجابهم.

مضت الأمور على خير يائسة للمخطط المبدئية لهجوم آلبي على فلسطين. ولكن لغاية الأربع وعشرين ساعة قبل بدء الهجوم في التاسع عشر لم يكن القائد الأعلى نفسه واثقاً من النجاح. لو اكتشف الأتراك والألمان خطته الحقيقية ولم يخذعهم أن تكون القوات العربية والبريطانية قد ركزت على عمان بهدف محاولة الاتجاه نحو وادي الأردن، ونو سحب العدو جناحه الأيمن عند منتصف الطريق عبر فلسطين من ساحل البحر المتوسط ونهر العوجا إلى هضاب السامرة Samaria، والذي سيكون تراجعاً بمقدار عشرة أميال عن الجبهة بأكملها، لكان الأتراك قد نجوا بأنفسهم، ولذهب هجوم آلبي أذراج الزباج، ولباءت عمليات لورنس الباهرة قرب درعا بالفشل.

نم يكن لدى لورنس مؤن تكفي فريته ليومين آخرين. لذلك كان الفشل سيشكل كارثة حقيقية له. بالطبع لم يكن آلبي أو لورنس ليعانينا من خسائر كبيرة، لكن إسدال الستار على قضية الجزيرة وفلسطين كان سيتأخر حتماً، وربما كانت الحرب تستمر بضعة أشهر أخرى ومئات آلاف الأرواح ستزهق في الجبهة الغربية. لكن لم يكن هناك^٤ نو، بل سار العدو إلى المنع المنسوب له كما تساق الخراف إلى الذبح.





الأمير فيصل ومردوسوف في مؤتمر السلام



أبولو من جزيرة العرب

الفصل الرابع والعشرون

انهيار الإمبراطورية العثمانية

بشكل عام، كان هذا الاتحاد بين القوات البريطانية والعربية أحد أروع الخطط في السجلات الحربية. كانت لعبة شطرنج لعبها خبراء على مستوى عالمي. لم تسبقها حملات تشبهها أبداً، بل كانت انقلاباً على مبادئ مارشال فوش. لقد عاد آئني ولورنس إلى حروب نابليون في القرن الثامن عشر عندما انتصر الجنرالات بفضل التخطيط والتدبير بدلاً من التكتيكات العسكرية (وتعني كلمة تكتيكات العلم الذي يتضمن تدبير المقاتلين عند خطوط النار).

وبهذا أصبحت هذه العملية تعد من أسرع وأذكى العمليات التي جرت في تاريخ العالم، فقد خسر آئني ولورنس أربعمئة وخمسين رجلاً فقط على الرغم من أنهما قد هزما الجيش التركي وأسرا ما يزيد عن مئة ألف تركي وتقدماً لأكثر من ثلاثمئة ميل خلال أقل من شهر وقصداً ظهر الإمبراطورية العثمانية. يعود جزء من الفضل إلى البريفادير باردولوميو. إن آئني رجل عظيم لكنه بحاجة إلى رجل دقيق حاد ليكملة. وكان هذا الرجل هو الجنرال باردولوميو.

وكانت حطة آئني في اكتساح الأتراك من كل جانب بصرية واحدة لا يعرفها غير أربعة رجال: المفائد العام نفسه، ورئيس إدارته الميجور - جنرال بونز، والجنرال باردولوميو، والكونونيل نورنس. والواقع أن الملك حسين والأمير فيصل لم يكونا على علم بما يجري.

وفي الساعة الخامسة من صباح اليوم الثامن عشر من شهر سبتمبر جاء الجنرال

بارثولوميو إلى مكتبه في الزمعة وسأل أحد الضباط المسؤولين: «هل هناك أي تغيير؟»
أجاب الضابط: «كلا، فالأترك ما زالوا في أماكنهم».

قال بارثولوميو: «حسناً، لن ينتهي هذا انفصل حتى نكون قد أسرنا منهم ثلاثين ألفاً على الأقل». لم يكن يخيل إليه بأن قوات الحلفاء ستأسر ثلاثة أضعاف الثلاثين ألف تركي.

كان خداع العدو مثالياً بكل تفاصيله. عندما دخلت قوات الإنبي الناصرة، التي كانت مقرراً للعثمان والأترك في فلسطين، وجدوا أوراقاً تشير إلى أن الفائد الأعلى الألماني كان متأكداً بأن الهجوم سينجح في وادي الأردن. لقد تُدع الفيلد مارشال فون ساندروز حتى آخر لحظة.

في تلك الأثناء لم يكن لورنس وجويس والجنرال نوري ومساعدوهم قد تلقوا أبناء عمما بجري في فلسطين، لكنهم كانوا منهمكين ليل نهار في تدمير أجزاء من الشبكة الحديدية. وفي إحدى الليالي خرج النوردي ونترتون، الذي لعب دوراً حيوياً في المرحلة الأخيرة من الحملة، خرج في مهمة تدميرية ووضع حوالي ثلاثين لغماً على طول الخط. كان ينطلق بنفسه ليلاً من نقطة إلى أخرى داخل سيارته المصفحة. وبينما كان يسير على طول الشبكة قابل جندياً سألته قائلاً: «كيف تجري الأمور؟».

أجاب ونترتون: «بشكل جيد. لقد زرعنا ثمانية وعشرين لغماً وسنفجرها خلال بضعة دقائق». علّق الجندي بقوله إن هذا أمر رائع ثم اختفى. وبعد لحظات كانت المدافع الرشاشة تنطلق من كل الجهات، وكان على الضابط البريطاني الإسراع بالأمر. كان مسأله إما ألمانياً أو تركيا، ولو حدثت القصة قبل ذلك بساعة واحدة لكانت مهمة النوردي ونترتون قد فشلت فشلاً ذريعاً. لكن الألغام انفجرت وكان المشهد رائعاً حقاً.

في اليوم التالي أسرع لورنس عائداً إلى الأزرق Azarak بيارته المصفحة، وطار بعدها عبر الصحراء وشمال فلسطين إلى مقر الإنبي في الزمعة، وفي اجتماع عاجل مع القائد العام استطاع الحصول على ثلاث مقاتلات بريستول هي من أفضل الطائرات الحربية التي كان

البريطانيون يستخدمونها في الأرض المقدسة. كما عاد أيضاً بأنباء رائعة مفادها أن قوات آلبي قد أسرت أكثر من عشرين ألف أسير، وأن الناصرة و نابلس ومراكز أخرى مهمة قد سقطت، وأن البريطانيين يتقدمون باتجاه درعا ودمشق. يعني كل ذلك أن أكتشي سيستدعي الجيش العربي ليلعب دوراً مهماً جداً من الآن فصاعداً، لأنه كان القوة الوحيدة بين الفرق التركية المشتتة وإقليم الأناضول الذي يجب عليهم الانسحاب إليه.

كان لورنس قد ذهب إلى فلسطين طلباً للطائرات، لأن الألمان كانوا يملكون تسعاً منها قرب درعا، كانوا يقصفون بها أنباج فيصل ويبدونهم. كان أحد الطيارين يدعى كاينز بيتر والأخر كاينز روس سميت، والذي أصبح فيما بعد مشهوراً عالمياً بطيرانه من إنكلترا إلى أستراليا. بقدّم لنا اللورد ونترتون وصفاً حياً لأحداث ذلك الصباح في مقال رائع نشر في البلاكوودز حيث يقول: «بينما كان لورنس والطيارون يتناولون طعام الفطور معنا، شاهدنا طائرة تركية متجهة نحونا مباشرة. أسرع أحد الطيارين لانزال الطائرة الدخيلة، وتم له الأمر بنجاح فسقطت الطائرة التركية قرب الشبكة الحديدية وقد اشتعلت بها النيران. ومن ثم عاد وأكمل فطوره الذي كان لا يزال ساخناً. لكن الفطور لم يكن هادئاً أبداً في ذلك الصباح، إذ لم يكد يصل إلى تناول العرني حتى ظهرت طائرة تركية أخرى. أسرع الأسترالي من جديد لكن التركي كان مراوفاً وففل راجعاً إلى درعا فما كان من الطيار إلا نحق به وأسقطه ككتلة من الذهب».

في تلك الليلة خسّر الألمان كل آلاتهم المتبقية، وحلّق الطيارون البريطانيون وحدهم في سماء الجزيرة الشمالية وفلسطين وسوريا.

بعد الظهر قدمت من فلسطين طائرة هاندلي بايدج Handley-Page ضخمة تقل الجنرال برونون، وهو قائد في سلاح أكتشي الجوي، وكان الذي يقود الطائرة روس سميت. أحضرا معها سبعاً وأربعين صفيحة من الوقود ومؤن شاي للورنس وونترتون ورفاقهما. كانت هذه أول مرة تحلق فيها طائرة ضخمة قاذقة للقنابل فوق خطوط العدو في وضع النهار، وكان الهدف من وراء ذلك هو الدعاية، وقد أعجب رجال القنابل كثيراً بهذا الطائر الكبير الذي لم يروا أضخم منه من قبل، لدرجة أن كل

مكثان حوران، الذين كانوا مترددين في مساندة الأمير فيصل، تضامنوا فوراً مع القضية العربية وركبوا خيولهم مصطفين رصاصاً بناذقهم في الهواء ومتحمسين للحمل على الأتراك، أو على الأقل القيام بعرض بطونني صاحب.

وفي اليوم التالي نزلت فرقة من المشاة بقيادة جعفر باشا، القائد الأعلى لقوات الكولونيل جويس النظامية، لإنهاء نظرة على الجسر الضخم الأول الذي نسفه لورنس بالذبابيت قرب درعا. وجدوه قد أصلح تقريباً، فشنوا هجوماً حاداً طردوا على إثره الحراس الذين كانوا من الألمان الأشداء، وخربوا معظم الخط وقاموا بإحراق الهيكل الخشبي الذي كان الأتراك والألمان قد شيدوه خلال سبعة أيام. في هذه المواجهة العنيفة انخرط في قلب الأحداث كل من القطعة الفرنسية بقيادة الكابيتين بيزاني، وختالة النزولة بقيادة نوري الشعلان.

كان نوري رجلاً هادئاً فليل الكلام كثير الأفعال. كان ذكياً جداً وواسع المعرفة وحازماً ومرحاً. أخبرني لورنس ذات مرة أنه لم يكن زعيم أكبر قبيلة في البادية فحسب، بل أحد أفضل الشيوخ العرب الذين التقى بهم، وأن أفراد قبيلته كانوا كاتعجبة بين يديه لأنه «كان يعرف ما الذي ينبغي فعله ويقوم بفعله».

عندما بدأ لورنس بتنفيذ عملياته حول درعا، قام فون ساندرز تماماً بما أراد خصوصاً أن يقوم بفعله. لقد أرسل آخر مؤن لديه إلى درعا، وعندما احترقت قوات آلثبي الخطوط الأمامية التركية كانوا قد سبقوهم بمسافة كافية. وفي مساء اليوم التاسع عشر قدمت الشاحنات التركية إلى منطقة العقولة Afulah طلباً للمؤن دون أن يدري راكبوها أن كل مخزونهم العظيم قد أصبح بأيدي رجال آلثبي. وعندما دخلوا محطة الترويد قال ضابط بريطاني بأدب: «هل تمنعون بالذهاب من هنا؟ سمحتم؟» استغرق وصول الخبر إلى الأتراك مدة أربع ساعات كانت قوات آلثبي قد استولت خلالها على العقولة Afulah ومنطقة التقاء الشبكة الحديدية في وسط سهل جزريل⁽¹⁾ Esdracelon حيث تتفرع الشبكة، التي تربط بين القسطنطينية ودمشق والأرض المقدسة، إلى فرعين يتجه

(1) اسمه بالعربية: مرج ابن عامر.

الأول نحو السامرة Samaria والآخر شرقاً إلى حيفا على البحر الأبيض المتوسط.

كانت العقولة Afuleh محطة التزويد الرئيسية للجيش التركي بأكمله. وبعد أن احتلها النبي بست ساعات جاءت طائرة ألمانية بأوامر إلى فون ساندرز من هايدنبرغ. لم يكتشف ركاب الطائرة المعضلة حتى نزلوا من البتيم ومشوا إلى المقر الرئيسي. ولمعاجلتهم الشديدة وجدوا أنفسهم يقدمون الأوامر لإدارة النبي.

بحلول الرابع والعشرين من سبتمبر، كانت قوات النبي قد نفذت مسافة واسعة بحيث وجد الجيش التركي الرابع، المتمركز حول عقان والأردن، نفسه يهاجم خياماً وبنائات فارغة، فجاءتهم الأوامر بالعودة للدفاع عن درعا ودمشق. ولقد غضب القواد الأتراك لما اكتشفوا أن خط الشبكة الحديدية قد قطع وراءهم وحاولوا الانسحاب شمالاً بكل آلاتهم ومدافعهم. لم يكن في تبة لوزنس وخياله فرش طريقهم بالورد، فأقام فوق الشلال ليصب على رؤوسهم سيلاً لا يتقطع من الرصاص، اضطر الأتراك معه لتترك مدافعهم ومركباتهم بين المفرق ونصيب.

ذبح المئات، وتفرقت فلول المنسحبين إذ لم يتسع الوقت ليعيدوا تشكيل قواتهم. وقد أضافت الطائرات البريطانية لمسة أخيرة على المشهد بإلقاء القنابل على القلول المنهزمة في كل الاتجاهات.

فرّ لوزنس البقاء بين درعا ودمشق أملاً في الإخلاء السريع لدرعا وبالتالي فنص قطع الجيش التركي المتهلل وهي خارجة منها، وأيضاً لمضايقة بقية الجيوش التركية في فلسطين، والتي قد تحاول الفرار شمالاً. لذلك سار بسرعة في اليوم الخامس والعشرين، يقود فرقة الهجانة باتجاه الشمال، وبعد ظهر اليوم السادس والعشرين نزل إلى الشبكة الحديدية التركية قرب حربة غزالة Ghazale وإزرع Ezra على الطريق الموصل إلى دمشق.

كان يرفقه ناصر ونوري وعودة والدروز، وهي أسماء قال لوزنس عنها إن من شأنها أن تلجم الأطفال حتى في النهار. فجاء فعله السريع الأتراك المدعورين، فقد

كانوا في اليوم السابق يعملون بحماسة على إصلاح الشبكة الحديدية، التي خربها لورنس قبل أسبوع، وإعادةتها للعمل. لكن لورنس زرع فيها بضعة مئات من الألغام جعلتها تتوقف عن العمل نهائياً مع حجز ستة قطارات في درعا. انتشرت تقارير التكاثر في أرجاء سوريا كما تنتشر النار في الهشيم وبدأ الأتراك في الحال بإخلاء مدينة درعا.

وفي فجر اليوم السابع والعشرين كان لورنس وخيالته قد استطلعوا المناطق المحيطة، واستولوا على ألبيتين نمساويتين من المدافع الرشاشة كانا قد وُضعتا في مكان مواجه للطريق الذي قذعت منه قوات آلني. صعد لورنس إلى قمة تل مرتفع في الجوار يدعى الشيوخ سعد؛ استطاع من فوقه مسح المنطقة بأكملها بمنظاره المكبر. وكان كلما رأى قطعة عسكرية للعدو في الأفق كان يقفز على ظهر حصانه برفقة حوالي تسعنة رجل من خيرة رجاله، ليقوم بدحر قنولهم. وعندما كان يرى من مكانه المرتفع قرية كبيرة لا يمكن القضاء عليه، كان يريض في مكانه ليحركه يحرّ بسلام.

وفي الظهيرة جاءت طائرة إلى لورنس برسالة تقول إن فرقتين تركيتين كانا تتقدّمان منه. كانت إحداهما قادمة من درعا وقوامها ستة آلاف جندي، بينما كانت الأخرى آتية من مزريب بالني جندي. فرز لورنس أن يهاجم الثانية التي تناسب مع حجم قوائمه، فأرسل إلى بعض القوات النظامية التي كانت على بعد بضعة أميال لتحصد الأتراك كزهود الأفحوان، وأسرع ليعترض طريق العدو قرب طُفس. وفي الوقت ذاته أرسل خيالة حوران في الانجاء الآخر للالتفاف حولهم والمراقبة بجوار الفرقة لإزعاجها. وصل الأتراك إلى طُفس قبل لورنس بوقت قصير وعاملوا نساء وأطفال القرية معاملة وحشية إذ أمر قائدهم، شريف بك، بذبحهم جميعاً.

كان طلال، زعيم شيوخ قرية طُفس والذي كان منذ البداية حصناً قوياً للورنس وأشجع خيال في الشرق الأدنى، كان راكباً في مقدمة الفرقة العربية مع لورنس وعودة أبو تايه عندما رأى نساء وأطفال إخوانه يسبحون في برك من الدماء على الطريق.

بعد الحرب يوضع سنوات تزوج شاعر إنكليزي، وكان أحد أصدقاء لورنس، وعندما اعتذر لورنس إليه لعدم امتلاكه المال الكافي لشراء هدية زفاف لائقة، اقترح

الشاعر أن يمنحه بدلاً من ذلك بضع صفحات من مذكراته الشخصية. وافق لوزنس وأعد الشاعر الأوراق لنشر في أميركا. وكان الجزء المباع يتضمن قصة موت الشيخ الباسل طلال الحر يدین el Hareidhin.

«تركنا عيد المعين هناك وركبنا بالقرب من الحدث الأخرى، التي نيتي بوضوح في ضوء النهار أنها أجساد رجال ونساء وأربعة أطفال صفراء، متجهين نحو القرية التي عرفنا من هبوطها أنها مليئة بالموت والرعب. وحول المكان كانت هناك حظائر للخراف وعلى إحداها كان هناك شيء أحمر وأبيض. ألفت نظرة عن كثب، فرأيت داخلها جثة مكومة لامرأة وجهها للأسفل ومطعونة بسكين تظهر قبضتها بشكل رهيب بين ساقها العاريين، فعلمنا أنها كانت حاملاً، وكان حولها آخرون من القتلى، يبلغ عددهم العشرين، مذبح حين يطرق مختلفة بما يتناسب مع النزعات الوحشية لنقتله. انفجر الزعاقى Zaagi بنوبة هستيرية من الضحك ثم انضم إليه الآخرون. كان المشهد جنونياً بحق، فقلت: «أفضلكم من يأتي بأكثر قتلى من الأتراك». ثم ركبنا بسرعة باتجاه العدو المتلاشي وفي الطريق تصدينا أولئك الذين جاؤوا يستدرون عطفنا.

زار طلال كالحبيوان الجريح وصعد بهدوء إلى الأرض المرتفعة، حيث جلس على فرسه لفترة طويلة يتفحص غضباً وينظر بعينين ثابتتين إلى الأتراك. اتجهت نحوه لأنحدث إليه لكن عودة أمسك بي ومنعني من فعل ذلك. وبعد بضع دقائق وضع طلال كوفيته على وجهه ولكن بمهمازه خاضعتي ففرسه ثم أسرع يحدو بهوزر. وقد انحنى على الشرج وأخذ يتمايل كأنه سيسقط أرضاً، وقد توجه إني قلب جيش الأعداء.

كانت المسافة كبيرة على سفح التل ثم عبر الغور، وجلسنا جميعاً الأصنام بينما كان يندفع إلى الأمام بأقصى سرعته، وتحيل إلينا أن وقع حوافر ففرسه كان أعلى من التماثيل كنا قد توقفنا عن إطلاق الرصاص، كما أن الأتراك أحجموا عن القتال وأخذوا ينتظرون ذلك الهدي الذي يقذف بنفسه في أشدق الموت. استمر يحدو في هدأة المساء إلى أن أصبح على مسافة قريبة من الأعداء، عندها استقام على سرجه وصرخ صرخة دوت كالزعد: «طلال! طلال!». وما إن سمع الأتراك هذه الصيحة

حتى انطلقت بدقيانهم ومدافعهم الرشاشة في آن معاً فلم يتركوا قطعة منه أو من فرسه إلا مزقوها شراً ممزقاً، وسقط البطل ميتاً بين أسنة رماحهم.

نظر عودة إليه واجماً متجهماً ثم قال: «رحمه الله، سنأخذ بثأره». حركت لجام فرسه وتوجه ببطء نحو الأعداء. استدعينا الفلاحين الغارقين في الخوف والدماء، ووجهناهم نحو الفرقة المنسحبة، حيث قادمهم عودة كأسد هصور شسن. وبمناورة بارعة دفع بالأعداء إلى أرض وعرة وفزقهم إلى ثلاثة أقسام. كان القسم الثالث أضعف الثلاثة ومؤلفاً في معظمه من المدفعين الألمان والتمساويين، الذين تجمعوا حول ثلاث سيارات من المفترض أنها تقل ضباطاً مهتمين. قاتلوا ببراعة وصدوا هجمائنا أكثر من مرة بالرغم من تهوؤنا. كان العرب يقتلون كاششباطين وكان العرق يعمي أعيننا وامتلأت خلوقنا بالزعمال وكان غضب الانتقام يغلي في عروقنا وفي أيدينا، بحيث كنا بالكاد قادرين على إطلاق الرصاص. أمرت (جالي، لأول مرة أثناء الحرب، بأن يعملوا فيهم القتل وألا يأسروا منهم أحداً.

إن رواية مرث طلال الحريدين من طقس بكلمات لورنس نفسه تظهر لنا قدراته الزائغة على الوصف. ونعطينا فكرة عن التحفة النادرة التي سيتلقاها العالم يوماً ما من قلمه.

قاومت آليتان مدفعيتان ألمانيتان ببسالة ثم هربتا مع جمال باشا. القائد العام التركي، في سيارته، وقضى العرب على القسم الثاني نهائياً بعد قتال مواجهة مرير. ثم يؤسر أحد، إذ كان العرب ممثلين غضباً بعد مذبحه طقس، لكن أسر خلال اليوم مثان وخمسون من الألمان، ثم اكتشف العرب أن رجلاً من رجال لورنس، وكان مكسور الفخذ، قد تم طعنه بسكينين المارينين، أصابهم الجنون فأداروا مدافعهم نحو الأسرى وحصلوهم عن آخرهم.

بعد المواجهة جاء نوري الشعلان على رأس خيالة من الرزولة راكباً عبر الطريق الرئيسي لدرعا. حدثت بعض الاشتباكات على الطريق لكنهم تمكنوا من الاستيلاء على المدينة عنوة. وفي صباح اليوم التالي عاد نوري إلى لورنس في طقس بخمسمئة

أسير من المشاة وبشرى تحرير مدينة درعا، وقد وصلت بعض قوات آلبي إلى درعا في اليوم ذاته.

أمضى لورنس تلك الليلة الضيقة على تلال الشيخ سعد، ولم يكن وانقأ من النصر، إذ كان على الدوام بوجس خيفة ويخشى أن تكتسح موجة كبيرة من الأعداء المنسحجين فرقه الصغيرة فتتمحوها من الوجود. وفي تلك الليلة اشبك خيتانو حوران مع فرقة تركية كبيرة في درعا قوامها ستة آلاف جندي، وبدلاً من التّوم مع الجيوش النظامية في الشيخ سعد، أمضى لورنس جزءاً من الليل يساعد خيتالي حوران، وعند الفجر ركب باتجاه العرب مع مجموعة من رجاله إلى أن لحق بفرقة الخيالة الزابعة للجيش البريطاني.

وبعد توجيههم من درعا وبدء مسيرهم شمالاً إلى دمشق عاد لورنس بأقصى سرعة لينضم إلى خيالة حوران. على الرغم من أن الفرقة التركية عند مغادرتها لدرعا كانت مؤلفة من ستة آلاف جندي، فقد بقي منهم في نهاية اليوم خمسة آلاف فقط بعد أن نصيدهم البدو. وبعد ثماني عشرة ساعة بقي منهم ثلاثة آلاف، وبعد منطقة انكسوة أصبح العدد ألفين إذ دفعهم لورنس نحو إحدى فرق الخيالة البريطانية القادمة من جهة الجنوب الغربي.

على الإجمال، قام لورنس وجويس وحعفر ونوري وفزاتهم المستفرقة من البدو والجيش النظامي بقتل حوالي خمسة آلاف تركي في المرحلة الأخيرة من الحملة وأسروا أكثر من ثمانية آلاف، بالإضافة إلى الاستيلاء على مئة وخمسين مدفعاً رشاشاً وثلاثين مدفعاً ثقيلاً. وعلاوة على فرقة الألف رجل الذين ساروا شمالاً من اتعقة مع لورنس، فقد شارك في الحرب عند درعا عودة أبو تايه ومثان من خيرة مقاتلي قبيلة الحويطات، وأثنان من بني صخر أتوا من شرق البحر الميت، وأربعة آلاف من رجال التوّالة بقيادة نوري الشعلان من شمال الصحراء العربية، وألف من درور حوران، وثمانية آلاف من القرويين العرب في حوران.

بعد انتهاء الحرب بعام أو أكثر كتب الكولونيل ستولنغ، الذي لعب دوراً بارزاً في هذه الحملة الأخيرة، كتب لي رسالة تلخص الأثر الذي قام به العرب لمساعدة آلبي في التغلب

عنى الأتراك: «كان ذلك مبرراً لوجودنا، وللمال والوقت اللذين أنفقناهما على الثورة العربية». كانت الحملة نفسها مشهدة مسرّحياً، إذ انطلقنا بقوة نظامية صغيرة من أربع مئة عربي، وقطعنا ستمئة ميل في ثلاثة وعشرين يوماً داخل الصحراء العربية المجهولة وكان وصولنا وراء الجيوش التركية الرئيسية بأهوال عدة مفاجأة ما بعدها مفاجأة.

«وقبل يومين من تقدّم البريطانيين في فلسطين، كنا قد قطعنا ثلاثة خطوط للسكة الحديدية، ولم نسمح للقطارات بالوصول إلى الجيوش التركية لمدة خمسة أيام. كانت النتيجة أنه لمّا بدأ انسحابهم كانت مزينهم من الطعام والدّخيرة قد انتهت. خلال تلك الأيام كانت إقامتنا غير ثابتة نوعاً ما، وكنا نقل معسكرنا مرتين في الليلة حتى لا يباغتنا العدو. كنا فرقة ضعيفة آنذاك، وفي الوقت الذي تابعتنا فيه المسير إلى أن وصلنا إلى دمشق كان حوالي أحد عشر ألفاً من الخيالة العرب قد انضموا إلينا».

سار بعض الخيالة العرب ذلك المساء إلى داخل دمشق، حيث أحوالت القنابل الليل إلى نهار. ثم رجعوا إلى الكسوة التي تقع على بعد أميال قليلة جنوبي دمشق بالقرب من المكان الذي ظهر فيه التور المبهر لشاؤول الطرسوسي وحوّله إلى بولس مفسر المسيحية. وهناك كان وهج النيران القادم من دمشق، وهدير صدى المتفجرات يمنع لورنس من النوم، فبقي مستيقظاً معظم الليل. كان مُهلك القوى ومنذ الثالث عشر من سبتمبر لم يحظ سوى بفترات قليلة من النوم. كان دائماً إما ممنطلياً هجينه السريع أو جواده العربي الأصيل، أو في سيارة مصفحة أو محلقاً في الجو على متن طائرة حربية. وبعبارة موجزة كان شعلة نار متقدة أذى كل ما طُلب منه في الأزمة العظيمة إبان الحرب. وقد هي الحرب قد أوشكت على الانتهاء في أرض ألف ليلة وليلة، لكن النوم ما يزال يجافي عينيه، إذ يغوم الأتراك والألمان بأفراغ ذخيرتهم ليلاً في دمشق على بعد ثمانية أميال شمالاً. مع كل الصغار كانت الأرض تهتز والسماء تبيض ولطخ حمراء تعزف سواد الليل عندما تنطلق القنابل في الهواء. قال لورنس لسيرلينغ: «إنهم يحرقون دمشق»، ثم استلقى على الزمالة واستسلم لرقاد عميق.





المؤلف، رسم تخطيطي لجيمس مكاي الزمام الملحق بقوى
الفيلد مارشال إليفي خلال «الحملة الصليبية الأخيرة»



قاطع طريق من جبل القرويز

الفصل الخامس والعشرون

حكم لورنس في دمشق وخيانة الأمير الجزائري

وفي صباح اليوم التالي دخل العرب والإتكليز مدينة دمشق بعد انقيا انخضراء انفي لا تضاهيها في جمائها أية مدينة في العالم. كان سحر المشهد وكأنه حلم يراه التأم عندما يغفو صباحاً لكنه حلم لن يلبث أن يتلاشى. تذكر لورنس قصة النبي محمد لما أتى إلى دمشق أول مرة للتجارة، وعندما رآها من بعيد رفض دخولها قائلاً: إن الإنسان لا يستطيع دخول الجنة مرتين. فعابك بجنود قد جاؤوا مباشرة من الصحراء الجرداء الفاحشة؟ عندما تنظر إليها من بعيد ترى واجهة خضرة محاطة ببنية صفراء، وفي الخلفية تظهر الجبال ذات القمم المكسوة بالثلوج، إنها حقاً جوهر زمردية ومن الطبيعي أن ينظر البدوي إليها كأنها جنة الله في الأرض.

عندما مالت أشعة الشمس لتلقي على المدينة الحاملة علالة رقيقة غشيت مأذنها وفيها، دخل لورنس وسترلينغ في سيارة الزولزرويس الشهيرة «الضباب الأزرق» the Blue Mist. ذهب إلى مقر البلدية مباشرة حيث عقد اجتماعاً مع كل شيوخ المنطقة، واختار لورنس شكري الأبوي، وهو من نسل صلاح الدين، ليكون أول حاكم عسكري للنظام الجديد. ثم عين رئيساً للشرطة، وهو مدير لتقيل الداخلي، وعدة ضباط آخرين. وبعد ترتيب الأمور سار شكري ونوري السعيد وعودة أبو تاي ونوري الشعلان ولورنس في شوارع دمشق برفقة الجيش البدوي النظامي.

دخل لورنس دمشق، وهو بعد في التاسعة والعشرين من عمره على رأس أكبر جيش في جزيرة العرب منذ خمسة قرون، وفي أقل من عام واحد أصبح أهم رجل في

الجزيرة منذ أيام هارون الرشيد، وكان دخوله الرسمي إلى عاصمة الإمبراطورية العربية القديمة في الساعة السابعة صباح يوم الحادي والثلاثين من شهر أكتوبر. احتشد سكان المدينة وعشرات آلاف البدو الصحراويين في الشارع الذي يدعى بالشارع المستقيم بينما كان لورنس يدخل البوابة وهو يلبس لباس أمير مكّي.

ولا نسل عن عبطة الجميع عندما تحررت دمشق العظيمة الخالدة، ولا نسل عن سرورهم للخلاص من التبر التركي! وبلغ الحماس بالذراويش أن ساروا في القطيعة أمام لورنس يرقصون ويلامسون أجسادهم بالتبوف، وسار وراء لورنس الفرسان العرب في ثيابهم البدوية المخلاة. كانوا قد سمعوا كثيراً عن مقدرة الشريف لورنس وأعماله العدهشة قبل شهر، وها هم يخرجون الآن ليرؤوا لأول مرة هذا الرجل الإنكليزي الثغامض الذي وُحِدَ قبائل الصحراء وطرد الأتراك من جزيرة العرب. ولما رأوه قداماً يتهاذى في الأسواق على ظهر بعيره، علت التهافتات له ولقبصص بصوت واحد يملأه الفرح. والواقع أنه ما من رجل في العالم أقيم له مثل الاستقبال الحماسي الحار الذي أعده الدمشقيون للورنس.

وصف الدكتور جون فني، وهو عضو في جمعية الصليب الأحمر الأميركية جاء مع ألبي إلى الشمال. وصف هذه المناظر الساحرة فقال: «مما لا ريب فيه أن السرور الذي شعر به الدمشقيون عند دخول لورنس ومن معه لا يمكن أن يتكرر أبداً، وكانت الأسواق ممتلئة بمئات آلاف البشر، وكان الشارع المستقيم مكتظاً بحيث لم تعد الخيول والجمال قادرة على المسير. أما سطوح المنازل فكانت تغص بالناس كذلك، وكان الدمشقيون قد علقوا ما يملكون من التيجان الفسيفسائية على شرفانهم، وأمطروا لورنس ومن معه بأغطية الرأس الحريرية والأزهار البديعة وعطر الورود».

وإكراماً للعرب، كان ألبي قد أمر الجيش الأسرائيلي أن يسير في المزخرة وأن يجعل حرس فيصل يتقدمون المصفوف ويدخلون المدينة أولاً، كما أن ألبي لم يتدخل في التدابير والإجراءات التي اتخذها لورنس وجماعته في تنظيم الحكومة المؤقتة في دمشق. وكان من فطنة لورنس أن جعل ممثلي الجيش العربي يتقدمون على

البريطانيين، وأعطى بذلك القيادة للأمير فيصل.

لم يبق الكرونويل لورنس في دمشق إلا أربعة أيام فحسب. ولكنه كان في خلال هذه الأيام، في الحقيقة، الحاكم المطلق والتسيد المطاع، وكان أول عمل قام به أن زار قبر صلاح الدين الأيوبي، ذلك القبر الذي وضع عليه فيصر ألمانيا في سنة ١٨٩٨ راية من الأطلس واكليا من البرونز منقوشاً عليه هذه الكلمات بالتركية والعربية: «من إمبراطور عظيم لامبراطور عظيم أحر». وكان لورنس قد زار هذا القبر لدى زيارته لدمشق قبل الحرب، وفي أوائل أيام الحملة تعاهد مع فيصل، عندما كانا في الجنوب قرب «يشع»، ألا يسمي من ذاكرتهما هذا القبر الذي يضم أعظم الملوك. هذا ويزي الإكيلي البرونزي الآن مكتب إدارة المتحف الحربي البريطاني، بينما ذهب علم الفيصر معي إلى أميركا.

أثناء الحكم المؤقت للورنس على دمشق كانت أسواق هذه المدينة الخالدة تضج بالحركة، وإن معرفته بمن أرادوا تدبير المؤامرات ضده جعل من الممكن السيطرة على الأمور. وحتى في ذلك الوقت كان هناك خطرٌ كبير وخوف من حدوث الاغتيالات.

وفي الثاني من نوفمبر قام البعض يحاولون إحداث شغب في دمشق وفترة من التويع الذي قد يؤدي إلى الانقلاب. أنا المحرك لهذه الفترة فهو أمير جزائري يدعى الأمير عبد القادر، الذي كان عدواً لدوداً للملك حسين وأبنائه. وعبد القادر هذا هو حفيد الأمير عبد القادر الكبير الذي حارب الفرنسيين في الجزائر، ولكنه فشل في نهاية الأمر وخرَّ هارباً إلى دمشق. أما حفيده، محمد سعيد وعبد القادر، فقد لعبا دوراً سيئاً في الحرب في الشرق الأدنى. أما الأول فكان عميلاً للألمان والأتراك في إفريقيا، وهو الذي حرَّض السنوسيين على غزو مصر، أما شقيقه الأصغر، والأكثر وحشية، فكان حاسوساً على مستوى عالٍ لأنور باشا ولذلك انضم إلى الجيش العربي.

تظاهر عبد القادر أنه جاء هارباً من القسطنطينية ولهذا استقبله العرب أحسن استقبال، ولما وصل إلى الصحراء قوبل برئاسة الجيش العليا كوطني صميم. وقد نجح عن طريق الخطابة، وهو خطيب قدير في التأثير على المحيطين به وإقناعهم بولايته الحازمة المتقدمة لدرجة أن جلالة الملك حسين رغب به واستقبله في مكة المكرمة ومعه لقباً مشرفاً.

ولما بدأ ألبي في الهجوم الذي نعم عنه احتلال بشر السبع وغزة والقدس وأريحا، طلب من لورنس أن يقدم المساعدة عن طريق تسف جسر مهم للتمسكة الحديدية يقع بين مكان وجود الجسر التركي وقاعدته في دمشق. وصادف كون عبد القادر هو الإقطاعي الذي يملك الشطر الأكبر من الأراضي المحيطة بالجسر، ولما باحثه فبصل في هذه القضية طلب أن يشارك في تلك الحملة. وبعد أن رافق لورنس عدة أيام وأصبحت المجموعة على بعد أميال من الجسر، ما كان من عبد القادر وحياته إلا أن تسلموا في الضحراء ليلاً ليخبروا الإدارة الألمانية والتركية عن خطة لورنس. مع ذلك، وعلى الرغم من بقاء عدد قليل من الرجا مع لورنس، فقد تمكن من القيام بمحاولة غير ناجحة لتسف الجسر، وهي مغامرة كادت تودي بحياته.

في البداية، ارتاب الأتراك بجاسوسهم الجزائري وظنوا أنه يلعب على الحبلين، لكنهم بعد ذلك أطلقوا سراحه وأغدقوا عليه بالعطايا. وعندما شن ألبي حملته الأخيرة على دمشق، ذهب عبد القادر إلى اقري السورية يحض أهلها على أن يغنوا موالبين للحكام العثمانيين. ولكن تباد أي عبد القادر وأخوه أن الأتراك قد تفهقوا تفهقاً مريباً. نفذا أيديهما من صداقتهما لأنور وطلعت وجمال، وأسرع إلى دمشق قبل دخول ألبي ولورنس بساعات وشكلاً حكومة وطنية عربية نصبا نفسيهما على رأسها، واستعدا لنثر حيب بالجوش البريطانية والحجازية القادمة.

ولكنهما لم يكونا بالطبع سعيدين باكتشافهما أن المنتصرين بقودهم الكولونيل لورنس الذي أمرهما أن يستقبلا فوراً ثم عتب، بناء على اختيار الأمير فيصل، رجلاً آخرين بدلاً منهما. أثار هذا الأمر ضغط الأخوين المنامرين فجردا سلاحيهما وأرادا قتل لورنس، لولا أن الحاضرين في المجلس أوقفوهما عند حدهما. عندها جمع الأميران الجزائريان المتناحضان حراسهما الشخصيين وطافا في شوارع دمشق بلبيان الخضب المؤثرة وشدعيان أن الأمير فيصل وأملك حسين ما هما إلا دميئين بيد لورنس والبرطانيين. وأخذوا يحرضان الدمشقيين على البدء بثورة جديدة.

سرعان ما سرت الفوضى، واستغرق رجال لورنس ست ساعات حتى نجحوا في

تهدة المدينة. تحولت الفوضى بعد ذلك إلى نهب وسلب، وأصبح من الضروري للورنس والجنرال نوري باشا وشكري الأيوبي والقادة الآخرين في الجيش الشريفي اللجوء إلى إطلاق الرصاص في الساحة العامة في دمشق لفرض السلام بانقوة بعد قتل وجرح عشرين رجلاً لوزير.

أما الشقيقان الثائران فقد استطاعا الهرب، وتمكنا من الاختفاء شهراً كاملاً أمضياه في وضع الخطط وتنظيم الثورة من جديد. لم يستطع عبد القادر الانتظار فترة أطول، فحمل يندقيته وقد بلغ به الغضب كل مبلغ وعدا بفرسه إلى قصر الأمير فيصل وصاح طالباً من فيصل الخروج ليقاتله، وبدأ يطلق العيارات النارية. كان مصرعاً على منطبه، فما كان من أحد الحراس العرب إلا أن صوب النار عليه فاخترقت الرصاصه رأسه وأسدل الستار فجأة على معامرات الأمير الحزائري¹¹.

وبعد سقوط دمشق، احتلت القوات العربية والإنكليزية المتحدة ميناء بيروت حيث توجد الجامعة الأميركية، التي لها أكبر الفضل في نشر الروح الديمقراطية في الشرق الأدنى. وهذا حدث حادث خطير كاد يؤدي إلى مشكلة دبلوماسية. فقد كانت القوات الشريفة هي القابضة على ناصية الأمور، كما في دمشق، وبعد عدة أيام جاء نائب فرنسي مع ضابط بريطاني وطلبا إزال العلم العربي من مجلس البلدية ورفع العلم الفرنسي ثلاثي الألوان. فما كان من الحاكم العربي إلا أن وضع مسمده على الطاولة وقال:

«المسدس أمامكم وفي مقدوركم قتلي إذا أردتم، ولكني لن أزل العلم العربي!» وبعد ثلاثة أيام أرسل النبي برفقة يأمر فيها برفع الأعلام كلها في ميناء بيروت وأن يحكم المدينة ضابط فرنسي باسم الحلفاء جميعاً. ومنذ ذلك الحين أصبح على العرب أن يناضوا على الصعيد الدبلوماسي حتى لا يخسر وأما كسبه على الصعيد الحربي. وبرز الشاب لورنس بطلاً من جديد

(11) المذكور هنا هو الأمير عبد القادر الصغير، وليس الأمير عبد القادر الحزائري الشهير الذي توفي بدمشق عام 1883.

ونقدّمت القوات العربيّة والإنكليزيّة المتّحدة إلى بعلبك، مدينة الشمس، حيث
تجد آثار أحد أعظم المعابد على وجه الأرض والذي ما زالت أعمدته شاهدة على أنه
كان أعجوبة من أعاجيب الدّنيا.

لم تكتفِ سيارات ألّبي المصفحة ولا رجال فيصل الذين يمتطون الجمال الضريعة
بما حققوه، بل انطلقوا بقيادة الجنرال العربي توري السعيد شمالاً إلى أن اكتسحوا
الأتراك وطردهم من حنب، وهي من المدن العربيّة الإستراتيجية في الشرق الأدنى
أثناء فترة الحرب. ولو لم يستسلم الأتراك لقلّت الجيوش وراءهم حتى توصلهم إلى
القرن الذهبي.

وبعد أن تمكّن ألّبي ولورنس من احتلال دمشق وحنب وقطع الشبكة الواصلة بين
برلين وبغداد، تلاشى في الهواء حلم القيصر والأرستقراطيين بتكوين إمبراطوريّة
أوروبية مستندة من بحر البلطيق إلى الخليج العربي.

وعندما غامرت تُركيّة بالاشتراك مع ألمانيا في القتال، أكّدت أنها ستزلف جيشاً
من مئتين رجل. لكن نصف الجيش كان من أصل عربي، ويمكن القول إنه منذ ابتداء
الثورة العربيّة حتى اندحار الأتراك نهائياً، هرب من الجيش التركي حوالي أربع مئة ألف
منهم! أما العوامل التي ساعدت على انفصال هذا العدد الضخم عن الجيش التركي
فأهمّها ما يلي. الدّعاية الواسعة المخطّمة في الشرق الأوسط التي قام بها لورنس
وجماعته لبثّ روح القوميّة العربيّة في النفوس، والتجّاح الباهر للثورة العربيّة. في
الحقيّة لقد كان ترك الجنود تصفوف الجيوش التركيّة مكافأةً للحلّماء على مساندتهم
لقضية الأشراف.

في رحلتنا الشريعة مع لورنس من العقبة إلى حلب شمالاً، لم ندخل إلى المدينة
ولم نعرف ما حلّ بالحامية التركيّة المهمّة هناك. على الرّغم من أن حزيمة العرب لم
تعد الآن تحت السّيطرة التركيّة، فما زالت القوات العثمانية تحتلّ المدينة لوجود قبر
النبي فيها. وكان الأمير عبد اللّه، أخو الأمير فيصل، قد حاصرها بجيشه، لكن ثبات
الأتراك في المدينة وتمكّنهم من المحافظة على وجودهم فيها كان نعمة للعرب لأن

كن المؤن اللازمة للحامية سُحبت عبر الصحراء من سوريا، ومن ثم ذهب الجزء الأكبر منها بدلاً من وجهتها الأساسية. في الواقع فإن زراعة لوزنيس لألغامه على طول الشبكة بين دمشق والمدينة عاد على العرب بمحصول وفير من المؤن التريكية والدخائر والمواد الحربية الأخرى.

قال الكولونيل لورنس مفسراً عدم إخراج الأتراك من المدينة: «كانت قوتنا الجسدية منهكة، فلم ندع قوتنا النفسية تصاب بالضعف. لقد ربحتنا المنطقة عندما علمنا المدنيين أهمية فكرتنا عن الحرية، أما وجود العدو أو غيابه فقد كان مسألة ثانوية.

«أظهرت نري هذه الأفكار أن مهاجمة المدينة أو إخضاعها للاستسلام لم تكن تتوافق مع إستراتيجيتنا المثلى. لقد أردنا أن يبقى العدو بأعداد كبيرة في المدينة وفي كل مكان لا يُخشى خطره. أما مسألة الطعام فهي ستقيد في النهاية إلى الشبكة الحديدية، وكنا نترك له المجال لاستخدام سكة الحجاز والأردن وفلسطين ودمشق وحلب حتى نهاية الحرب، طالما أنه نخلي لنا عن معظم العنبر العربي. ثو أنه أظهر رغبة في إخلاء المنطقة سريعاً من أجل التركيز بأعداد كبيرة على منطقة صغيرة، لكننا عملنا جاهدين لاستعادة نفق، ليس بالقوة، بل بتخفيف الضغط عليه. وكانت خطتنا هي إبقاء الشبكة الحديدية تعمل، ولكن مع إلحاق الخسائر بالعدو وإزاعاجه». في الحقيقة لم يصل إلى الحامية سوى القليل مما أرسل من سوريا، وفي الأشهر الأخيرة قبل الهدنة كانت القوة التركية في هذه المنطقة المعزولة قد خففت حميتها الغذائية على التعر فقط، وكان يُجمع من أشجار التخليل في الواحة. حتى سقوف المنازل هدمت لتستخدم كوقود، ومع ذلك لم تستسلم الحامية إذ كان قائدها، فخر الدين باشا، جنراً شجاعاً حازماً وعينياً.

حتى عندما وصلت الأخبار بأن الجيوش العربية والبريطانية قد استولت على دمشق وحلب، وأن القوات التركية في سوريا قد هُزمت تماماً وأُجبرت على توقيع الهدنة. وبالرغم من أنه يعلم أنه من غير المجدي له أن يتمسك بالمدينة أكثر من ذلك بعد انتهاء الحرب وعزله مع حاميته وسط صحراء تبعد ألف ميل عن القسطنطينية، فقد رفض هذا الثمر التركي الاعتراف بالهزيمة.

مضت الأيام ثم الأسابيع، وانخفض عدد رجال الحامية من عشرين ألفاً إلى أقل من أحد عشر ألفاً. لكن فخري باشا أقسم على القرآن أنه بدلاً من الاستسلام لنزير و البريطانيين، سينسف قبر النبي محمد ويمحو نفسه ورجاله من على وجه الأرض. ضمن البريطانيون لفخري أنه وفرقه ثم يُعصوا بأذى من قبل البدو، لكن النمر العجوز بقي صلياً قاتحجر.

لكن جيوشه لم تكن بهذا التعصب واشتاقت للعودة إلى الوطن في الأناضول. لذلك نمرّدوا على قائدهم الياسل في النهاية وألقوا القبض عليه، ثم سلموا المدينة للأمير عبد الله في العاشر من شهر يناير عام 1919، أي بعد انتهاء الحرب بعدة أشهر. لا بد أن اسم فخر الدين يحتل مرتبة عالية في التاريخ التركي⁽¹⁾ ولا جبال عدة تستخدم الأسماء العربيات في المدينة هذا الاسم كوسيلة لإسكات الأطفال.

بعد استسلام المدينة لم يعد أحد يسمع عن فخري باشا في الشرق الأدنى ويبدو أنه اختفى من الصورة تماماً. لكن بعد فترة من الزمان، عندما كنا ننقل في أجزاء من آسيا الوسطى، التقيتُ بحامي المدينة في مدينة كابل في بلاط أمير أفغانستان. لم يكن قد فقد حماسه أبداً، ويعمله كمسفير تركي في أفغانستان كان يبذل قصارى جهده لمنع الأمير من مصادقة الإنكليز في الهند.

لو أن تركية تملك مليون محارب بهذه الروح التي يسكنها فخر الدين، لم تكن لتستعيد كل مقاطعاتها فحسب، بل لتمكنت من الاستيلاء على الشرق الأدنى بأكمله ونأسس إمبراطورية تنمّز في مجدها وعظمتها على إمبراطورية الدول القديمة



(1) هذا صحيح، فهو القائد الذي عجز الإنكليز تماماً عن مفارغته، وهزمهم أشد الهزائم. واسمه في تركية يكرّم غالباً إلى اليوم، ويلقب: Cöl Kaplani أي: «نمر البز». واسمه الأصلي: عُمر فخر الدين تُركان باشا.



الجنرال فخري ياشا
التمرد التركي الذي دافع عن المدينة المنورة

الفصل السادس والعشرون

قصص النبيل السري

بالزغم من كون لورنس الرجل الذي لعب أروع دور في الحرب، فإن هناك ما لا يقل عن عشرين ضابطاً كان لهم دورهم المميز في جزيرة العرب، وينبغي تأليف مجلد يروي قصص أعمالهم البطولية.

كان التعاون البريطاني مع العرب منتشراً عن طريق مكتب الاستخبارات السرية في الشرق الأدنى، الذي أنشئ عندما كان السير هنري مكماهون لا يزال المفاوض الشامي في مصر. بعد نقاعه انتقل المنصب إلى خليفته السير ريتشارد بنغابت، والسير إدموند ألنبي (وهو الآن فيلد مارشال فايكونت). وبالزغم من أن هؤلاء الرجال الثلاثة المتميزين شجعوا العرب ولعبوا دوراً فعالاً في ثورة الأشراف، فلا أحد ممن لم يزوروا جزيرة العرب يستحق أن يُنسب إليه الفضل في نجاح الثورة العربية أكثر من السير غلبرت ف. كلايتون، مؤسس الفيلق السري.

إنشاء الأقسام الأولى للعمليات في الشرق الأدنى، جعل الجنرال كلايتون المقاهرة مقراً له. وهناك جوع رجالاً لا معين كان كل واحد منهم خبيراً بشأن من شؤون الشرق الأدنى، وبنية محددة من الخليط المواسع لسكان المنطقة. كان من بينهم طلاب في الشؤون السياسية من أمثال مارك سباكس وأوبري هيرت، ثم هناك هوغارث، الجغرافي والآثاري الشهير، وكورنواليس وجويس، الجنديان القادمان من السودان، وولي ولورنس اللذان كانا مهتمين بعلم الآثار في بلاد الرافدين. وآخرون غيرهم بمن فيهم مهندس مغامر ذو حرة عالية يدعى نيوكومب، وصفه نورتن بقوله إنه «أكثر الأشخاص نشاطاً في التدمير في العالم بأسره».

وبالرغم من أن الكولونيل لورنس قد دُمّر من المفطارات أكثر مما دُمّره أي شخص آخر، فلم يكن أول من قام بزرع الألغام في جزيرة العرب. يعود الفضل في ذلك إلى المقدم س. ف. نيوكومب الذي ربما كان سينفوق على لورنس في تدمير المفطارات وتخريب السكك الحديدية لو لا أن أدّت به جرائته وحبّه للفتان إلى قضاء آخر مراحل الحرب في الشجون التركية.

قبل عام 1914 كان نيوكومب قد حصل على شهرة كونه أفضل مهندس في الجيش البريطاني. وقد كان من أحد إنجازاته الخط الحديدي الموصل بين وادي النيل والبحر الأحمر مروراً بصحراء السودان. كان رائداً دوماً، وقد قام باستطلاع مسالك في الحبشة وفارس ومناطق أخرى تبدو لنا على المخارطة مجرد بقع مجهولة.

كان يستغرق في كل عمل إلى أقصى درجة بحيث اشتهر، إلى جانب شجاعته، بالنسيان. بعد الاستيلاء على ميناء الوجه في الأيام الأولى لثورة الحجاز، عُيّن قائداً مؤقتاً للميناء. كان عدد من الضباط يعيشون معه، لكن الكولونيل كان الوحيد الذي يملك خادماً وكان الجميع يعتمدون عليه في ترتيب الفوضى التي يحدّثونها. مع ذلك كان نيوكومب لا يبالي بشؤون الحياة اليومية، فعندما كانت الساعة تشير على الواحدة ظهراً ويقترح أحد الموجودين الاستراحة قليلاً لتناول طعام الغداء، كانوا يكتشفون أن نيوكومب قد نسي إعطاء التعليمات لإعداد الطعام، وبالتالي يتوجب عليهم الانتظار حتى الساعة الثانية لتناول الغداء.

كان للكولونيل نيوكومب دورٌ بارز في الشؤون العربية تسعة أشهر، وهو الذي بدأ أساليب تدمير السكك الحديدية التي استخدمها لورنس فيما بعد بكل كفاءة. وبالرغم من أنه كان يلبس الملابس العربية، فلم يكن شرفياً أبداً في تعامله وكان يتغمّس ليل نهار في عمله بسرعة جنوبية بحيث لا يستطيع أحد أن يجازيه. وفي نهاية الأشهر التسعة التي أمضاها في الصحراء التحق بالجيش البريطاني في فلسطين ونفذ أثناء الهجوم على بئر السبع أجراً عمليات شهدتها الحرب.

كانت فرق البشري من الخيالة والمشاة تقرب من بئر السبع من جهة الغرب والجنوب

والشرق، لكن كان هناك في الشمال طريق الخليل - القدس Hebron-Jerusalem الذي كان في تلك الأيام الشريان الرئيسي للاتصالات التركية. تسلل نيكومب ومئة أسترالي، تطوعوا بالذهاب معه، إلى الحطوط التركية نيلاً قبل الهجوم على بئر السبع بغضيل. كانوا يحاولون قطع الطريق والاستيلاء على المون والإمدادات التركية إلى أن يتمكن أنشبي وجيشه من هزيمة القوات التركية واحتلال بئر السبع. كانت مهمة صعبة جداً لكن نيكومب ورفاقه الأسراليين بقوا مرابطين على الطريق نيلاً نهاراً أو هزموا ما يفوق عددهم بخمسين مرة. وفي النهاية حوصروا على قمة تل وأسر المحظوظون منهم الذين بقوا على قيد الحياة.

صادف أن كان الكولونيل نيكومب أعلى الضباط المأسورين في فلسطين رتبة، لذلك حدث الكثير من المرح والمرح وهو يمر في شوارع القدس في طريقه إلى السجن في الأناضول.

وبعد عدة أشهر وبعد أن نجا من الجندري وكل متاعب حياة السجن، فر الكولونيل من زنوائه في القسطنطينية بمساعدة فتاة سورية جميلة أخفته فيما بعد في منزلها. كان ذلك قبيل انهيار الإمبراطورية العثمانية وفصل نيكومب حياة الإثارة في التخلي في القسطنطينية على الحياة التركية التي قد تتبع فراره من تركيا، فبقي في إسطنبول ليؤسس مكتباً سرّياً للدعاية في قلب أرض العدو. لقد نجح نجاحاً باهراً وتمكن في النهاية من الاتصال بمجموعة من الأتراك البارزين الذين كانوا يعارضون السياسة الألمانية لطلعت وأنور وساعدهم في ترتيب أمور الهدنة التي نتج عنها هزيمة تركيا في الحرب. وكنهاية ميلودرامية متوقعة اختتاماً لعمله الفذ، تزوج من الفتاة السورية الجميلة التي كانت قد ساعدته على الفرار من السجن، وعاشا بسعادة.

وكان من بين الرجال الذين استتركوا في ترتيب المساندة البريطانية للعرب بتقديم الاستشارات الحربية، الكولونيل ويلسون والكولونيل كورنواليس والمقدم آلان داووني والتائد العسكري هو غارث. كان الكولونيل ويلسون حاكماً على مقاطعة البحر الأحمر في السودان عندما أطيح الشريف حسين وأبناؤه بالأتراك لأول مرة في مكة،

وقد خطط عمليات مسنحة سرية لإبقاء نار الثورة مشتعلة إلى أن يحصل الحلفاء على وقت كافٍ يقرروا مساعدة العرب بشكل رسمي. حصل الكولونيل ويلسون ألبواخر البريطانية بالذخائر والبنادق في بورسودان ثم نقلها إلى مراكب سراعية في وسط البحر الأحمر.

ومن ثم كانت هذه المراكب تنزل المؤن سرّاً على الساحل العربي حيث يتم توزيعها على البدو. لكنه بعد سقوط مكة وجدة ترك عمه في السودان وانتقل إلى جدة حيث عمل كمسؤول عن الشؤون البريطانية في الحجاز الجنوبي وكمستشار نلشريف حسين حتى انتهاء الحرب. في الواقع كان الكولونيل ويلسون، بالإضافة إلى الجنرال كلايتون ورونالد ستورز، الشكر تبرأ الشرقي للمفوض السامي في مصر، هو أول من فتح باب المفاوضات بين البريطانيين وقادة الثورة العربية. وبالرغم من اعتلال صحته، فقد قام الكولونيل ويلسون بعمه على أكمل وجه.

أما كورنواليس وداوني وهو غارث، فقد أمضوا معظم وقتهم في مقرّ - القاهرة الذي كان يعرف باسم «المكتب العربي» Arab Bureau، والذي كان يرأسه الكولونيل كورنواليس، الذي أرسل بعد الحرب إلى بلاد الزافدين كأحد المستشارين البريطانيين للأمير فيصل الذي أصبح ملكاً على بغداد. استلم الكولونيل الجانب السياسي للمكتب بإدارة المفاوضات بين البريطانيين والحكومة الجديدة في مملكة الحجاز، ومساعدة الملك حسين لينتج من إتمام حملته. وعمل الكولونيل أيضاً في الإشراف على عمل مهم آخر هو كسب المتطوعين العرب في الجيش التركي إلى صفوف الجيش العربي. وهم المذبذب كانوا في معسكرات السجون في سوريا وفلسطين ومصر وبلاد الزافدين. كان لورنس كثيراً ما يُسمح إلى عبقرية كورنواليس وبعده عنصراً مهماً في نجاح الثورة العربية.

من بين الضباط اللامعين أيضاً المقدم آلان داوبي، أحد جنّاس كولدستريم، والذي أمضى وقته متنبلاً بين مكتب الشؤون العربية في القاهرة، والصحراء، ومقرّ ألبي في فلسطين، وعلاوة على عمله كمسؤول عن الحملة العربية من الناحية العسكرية

وانترويد بالأمم، فقد كانت مهمته الرئيسية إبقاء الأمير فيصل والكولونيل لورنس والقادة الآخرين في جزيرة العرب، على اتصال دائم بالإنبي. كان ولورنس صديقين حميمين قاما بعملهما في اسحاجام نام، وكان داوئي يبدل قصارى جهده ليزود لورنس بكل المعدات التي يحتاجها، كما مكنته زياراته إلى جزيرة العرب من القيام بغزوة أو اثنين إذ كان هو أيضاً يهوى زرع الألبان.

كانت طبيعة الحرب في الصحراء غير اعتيادية، فتطلب الأمر وجود شخص عبقرى على الأقل قادر على التوسط بين الجزيرة والحكومة الملكية في لندن. أوكلت هذه المهمة الضخمة إلى رجل ذي شهرة عالمية لا يمكن غض النظر عن مقترحاته حتى من قبل رئيس الوزراء ووزير البحرية. برهن السير غيلبرت كلايتون على عبقرته في انتقاء الرجال لاختياره د. ج. هوغارث، مدير متحف أشموليان في أوكسفورد، لهذا المنصب، فلم يقد باختيار رجل مشهور بعلم الآثار والمتاجرة بها فحسب، لكنه كان أول من سكن جزيرة العرب من رجال التلطف. وهنا أيضاً انبسم الحظ للورنس بتعاونه مع من لا يمكن إيجاد من هو أكفأ منه إذ كان الكولونيل هوغارث يعرف لورنس منذ طفولته وهو الذي أطلقه في مجال علم الآثار.

طوال فترة الحملة كان لورنس وزملاؤه ينظرون إلى الكولونيل هوغارث كمستشار وفيلسوف ووسيط سلام، وكانت مهمته التوفيق بين الخطوات التي تجري في الجزيرة وبين الإدارة العامة لوزارة البحرية. كما أنه أصدر المنشور السري في مقر القاهرة تحت عنوان «النشرة العربية»، وطبع منها أربع نسخ فقط واحدة لتويد جورج ووزارته، وواحدة للإنبي وإدارته، وواحدة للورنس ورفاقه في الصحراء، وواحدة لتبقى في ملف مكتب الشؤون العربية.





الفيلد مارشال فايكونت ألشي حاكم القدس
وفیصل الأول، ملك العراق وحاكم بغداد



الفيلد مارشال فايكونت ألشي
الخليفة المعاصر لريتشارد قلب الأسد

الفصل السابع والعشرون

جويس ورفاقه وفرسان سماء جزيرة العرب

كانت قوات ملك الحجاز خليطاً من الجنود النظاميين ومن البدو الذين يمتطون الجمال والخيول، والأوتون يمشون «الغازين» من الجيش التركي كانوا قد جُندوا قسراً في الجيوش العثمانية، ثم وقعوا أسرى في أيدي الإنكليز في فلسطين وبلاد العراق. كان عدد الجنود النظامية يبلغ حوالي عشرين ألفاً وقد دُرِّبوا تدريباً خاصاً، كمشاة، ليهاجموا المراكز الحصينة التي يعجز البدو عن الاستيلاء عليها. كانت الفرق النظامية تحت قيادة الكولونيل جويس، وهو كلورنس رجل إيرلندي لعب دوراً في الحرب يفوق بأهميته كل الأدوار التي قام بها الضباط الآخرون.

على عكس لورنس، كان جويس جندياً محترفاً في فرقة «حرس كوت» Connaught Rangers وذا سجل حافل بالخدمات الرائعة التي قدمها في حرب البوير وفي مصر والسودان. من الناحية الجسدية كان هناك فرق بين الاثنين، فبينما كانت فامة لورنس لا تتجاوز خمسة أقدام وثلاثة بوصات، كانت فامة جويس تصل إلى ستة أقدام وثلاثة بوصات. لم يكن جويس يستطيع أن يركب سوى العربات الكبيرة التي تسع له، وهو نادراً ما يركب الجمال هنا، لكنه عندما يقوم بذلك يبدو كحبل يركب جبلاً.

أمضى الكولونيل جويس ستة تقريباً يؤسس جيشاً ليرسله إلى المدينة التي حُصِّنت تحصيناً قوياً، وكان من المفترض أن يكون بقيادة الأمير علي. أخيراً، عندما جُهِّزت الأمور كلها، وصل رسول من الأمير علي برسالة إلى جويس يطلب إليه إيصالها إلى ملك مكة بأقصى سرعة. كانت الرسالة تقول:

«يا أبا الرحمة ومنك السلام، إليك نحيات من ولذلك، إن جيشه البطل ينتظر الأمر لينطلق إلى النصر على الأتراك، لكن يؤخره أمر واحد وهو أن ضباطنا الشجعان رأوا أنه من غير المجدي التقدم دون سيوف. لذلك أرجو منك بأن ترسل ثلاثين سيفاً من السيوف الدمشقية ذات الأعماد المذهبة لكي يرضى الجميع.

عبدك»

كان النكولونيل جويس قادراً، لحسن الحظ، على التعامل مع كل الأمور الضعيفة، إذ بالإضافة إلى تمكنه من التحدث باللغة العربية. كانت لديه مؤهلات قيمة أخرى. على سبيل المثال كان لبقاً هادئ الأعصاب رابط الجأش لا يتهور مهما كانت الضغوط، وكان مجتهداً مثابراً وصبوراً فوق حدود القبر. بينما كان لورنس يمضي وقته مع حشوده من البدو، كان جويس يبرز قدرته العسكرية بتشكيل قوة نظامية احتياطية مؤلفة من مزيج من السوريين والفلسطينيين والبغداديين الذين انضموا تحت راية الأشراف. لكنه كان يجد فسحة من الوقت من حين لآخر لينضم إلى لورنس في إحدى غزواته أو ليقود حملة تدمير لوحده. في إحدى المرات قام بتدمير سبعة جسور صغيرة واقتلع ألفي سكة على الخط الحديدي التركي بين محطتي طويره Towcira وهدية Hedia.

وهناك عدد آخر من الضباط الذين فاضلوا إلى جانب العرب ولعبوا دوراً في زرع الألغام ونسف تشيكك التركية. كان من بينهم المقدم و. ف. سترلينغ، والميجور ب. ج. و. مينارد من السلاح الإيرلندي والذي كان يشغل منصب قاضي في السودان، والميجور هـ. و. يونغ، والميجور م. إ. مارشال، والكابتن إ. سكوت هيفنز، والكابتن هـ. س. هورني، والملازم هـ. غاولاند الذي كان يحلم العرب طرق التدمير. كان كل الضباط الذين اشتركوا في القتال تقريباً ممن نالوا أوسمة شرف حربية قبل اختيارهم ليلعبوا دوراً في الحرب على أرض ألف ليلة وليلة، لكن لم يصل أحد إلى ما وصل إليه سترلينغ، إذ لم يكن جندياً في حرب أفريقيا الجنوبية فحسب، لكنه خدم أيضاً في فرقة الطيران الملكية قبل أن تنحطم به الطائرة ويكاد يفقد حياته في جولة استطلاع

فوق أحد الأماكن الثابتة من جزيرة العرب. فُقد له أن يكمل الحرب برأ واختبر ليكون طرفاً مهماً في حرب الحجاز.

لقد انضمت إلى العرب وهم على وشك الانقراض على سوريا، وكان يرفقه لورنس عندما وصل إلى دمشق. أمبا يونغ، الذي كان يعمل في قسم الاستخبارات في بلاد الرافدين، فقد كان أيضاً ممن استهونهم المشاركة في التدمير بالمتفجرات. أثناء المرحلة النهائية من الحملة أخذ على عاتقه مهمة تنظيم وسائل النقل، ولكن من بين إنجازاته المتعددة نجح في إطالة لحيته مما أثار حسد زملائه، وتحول شكله إلى شيخ حقيقي.

هناك شخص أحبّه البريطانيون والعرب على حد سواء، ألا وهو رفيق خيمة لورنس وصديقه الحميم، هو عضو في الفرقة الطبية لجنيش الملكي قسم وقته بين العصابات المعرصة وزرع الألغام، وكان له مساعدان طبيان هما الكابتن رامزي والكابتن ماكيسين. إنه الميجور مارشال رجل العلم الهادي: الخجول الذي أمضى حياته بين أنابيب الاختبار والمجاهر والبحث عن الجراثيم الغامضة في مجاهل غابات أفريقيا، لكنه برهن على أنه جندي حقيقي وفاز بوسام صليب الحرب في معركة نهر التيم، وحاز على أوسمة أخرى في جزيرة العرب.

عندما كان لورنس يذهب في إحدى حملاته، كان مارشال يحول خيمتهما في الغابة إلى مهجع لعصابات الكوليرا والظاعون، وكان ينجح غالباً في القضاء على الأمراض وإيجاد حلول لها. وفي رحلته داخل الصحراء كان يعمل بالمتفجرات، وبعد الغارة يرمي ما تبقى لديه من الديناميت وينكب على علاج الجرحى. وبعد إصابة الأتراك بالجراح، كان يذهب لتضميد جراحهم، وكان ناجحاً في التجمع بين مهمة الطبيب وجندي فُعين بعد الحرب مستشاراً لملك الحجاز، ومكث في جدة سبع سنين كمقيم بريطاني.

من بين كل زارعي الأغنام لم يكن هناك من هو أشجع من هـ. س. هورنبي الذي كان مهندساً مثل نيوكومب. كان قد تلقى علومه في ساحل الذهب Gold Coast في وسط الكونغو، وفي مناطق نائية من الكرة الأرضية، وقد بلغ به التهور أن نظر إليه البدو على

أنه مجنون تماماً، لكن مهنته كزارع الغام انتهت بشكل مأساوي عندما انفجر جزء من اللغم في وجهه وأصابه بعمى وصمم جزئيين. لافى العرب الذين كانوا يرفقته مشقة كبيرة في إعادته إلى العُقبة، ومنذ ذلك الحين وهو يمضي وقته في العمل الإداري.

في المعسكر الرئيسي في العُقبة كان هناك ضابطان آخران هما الميجور ت. هـ. سكوت والكابتن ريموند غوسيلت. كان سكوت منغمساً في المرح والمال، بينما كان غوسيلت مستغنياً عن كل شيء. كانت خيمة سكوت مليئة بصناديق القطع الذهبية المصدرة من كل أنحاء الإمبراطورية بهدف إثارة حماسة البدو المزاجيين كلما خبت جذوتها. وكان حارس تلك الصناديق كلباً بحجم الشنجا يذعره الميجور سكوت بكلمة الصُيد البنغاري. أفا رفيقه، الكابتن غوسيلت، فقد كان إمبراطوراً لقسم المؤن، ما عدا عندما كان عودة أبو ثايه أو فريق آخر من عصابة لورنس يتهيئون للمعسكر.

وكان هناك أيضاً ضباط السيارات المصفحة والمدفعيات الخفيفة؛ ومنهم الكابتن غيلمان والكابتن دويست والكابتن برودي، والملازم غرينهيل والملازم ويد والملازم هامكو. ولما كانت الطرقات تعيقهم، كانوا يسلكون الجبال الوعرة ليصلوا إلى المواقع المحددة، وقد شاركوا في مغامرات لا تُحصى أثناء المرحلة الأخيرة من الحرب.

ولكن كان من أمتع الأعمال على الإطلاق عمل الطيارين الذين أرسلوا لإرضاء العرب الذين كانوا يصرون على أن جيوشهم يجب أن تحتوي، كجيش الأتراك، على طيور ترمي بيضاً متفجراً. كانت العُقبة مركزهم الرئيسي وكانوا ينطلقون منها ليحددوا مواقع اندوريات التركية فيقصفوا الحاميات على طول خط دمشق - المدينة. ثم يغامر الطيارون بأرواحهم كما فعلوا هنا، اللهم إلا في شرق أفريقيا وعلى الحدود الأفغانية. وعندما كانت الطائرة تغادر العُقبة كان الطيار ومراقبه يعرفان تماماً أنهما إن واجها مشكلة في المحرك، فالأمر متروك بالنسبة إليهما، إذ كان الطيارون يحلقون فوق أراضي مجهولة جرداء كجبال القمر. في إحدى المرات، عندما كنا نتجول في جبال أدوم في طريقنا إلى «المدينة الوردية»، سمعنا هدير طائرة حربية فوق رؤوسنا، ولما رأينا الهبوط العنيف وقد تطايرت الحمم البركانية في السماء العربية الزرقاء، ازداد إعجابنا

بهؤلاء البريطانيين المشهورين الذين كانوا يحلقون فوقنا على ارتفاع ألف قدم.

كان هؤلاء الطيارون تحت إمرة الكابتن هارولد فورنس وليامز في البداية، ثم أصبح قائدهم الكابتن فيكتور سيدونز. ذات مرة كان فورنس وليامز يطير من مصر إلى العقبة عبر صحراء سيناء، وعاد محملاً بأربع دزينات من قوارير مباسي Bass كان رفاقه العطشى قد أرسلوه لإحضارها. ولكن تحت أنظار الجميع هبط الطيار الشمس هوطاً خاطئاً فانقلبت الطائرة ونحطت كل القوارير. قالوا له إنهم يتوقعون أن يروا قريباً دمه يسيل على رمال الصحراء بدلاً من هذا السائل الثمين.

كما أمضى الكابتن فورنس وليامز ورفاقه شطراً من وقتهم يأخذون الزعماء العرب في جولات تسلية. اصطحبوا ذات مرة الشيخ العجوز المرح عودة أبو تابه، الذي كان قد أظهر شجاعته بزوجته من ثماني وعشرين امرأة، وقد أعلن بعد عودته إلى الأرض أنه ندم لعدم أخذه بنذيقته معه، إذ لم تكن لتسمح له فرصة أكبر من هذه ليطلق الرصاص على كل «أصدقائه» في العقبة.

ومن بين فرسان سماء جزيرة العرب أيضاً هناك الملازمون دايفرز وماكيتز وأولديفيلد وسيفي وآخرون غيرهم، لكن الوحيد الذي ذهب في الحملة إلى دمشق هو الملازم جونور Junor الذي ألقى قذبله في كل معركة عربية تقريباً، ونجا لينعب دوراً مماثلاً على الحدود الأفغانية في الهند بعد الحرب الأولى بفترة طويلة.

في المنطقة الجنوبية كان هناك عدد آخر من الضباط الذين تميز من بينهم الكولونيل بركر، وهو ابن أخت كننغر، والذي أمضى فترة قصيرة على ساحل البحر الأحمر ثم عُيّن حاكماً على المنطقة الجبلية الصحراوية الواسعة التي تدعى شبه جزيرة سيناء، حيث ناه بنو إسرائيل أربعين عاماً. وهناك أيضاً الكولونيل ج. ر. بامبت الذي نقل من المكتب الحربي في لندن إلى جزيرة العرب، وكان نائب الكولونيل ويلسون في جدة؛ وهناك الميجور هـ. ج. غولدي، الذي وصف مقره في جدة بأنه شديد الحرارة ولا يستطيع العيش فيه سوى البشر الذين يكادون يلفطون أنفاسهم. حول المدينة كان هناك جيش الأمير عبد الله وكان به خيران بالتدبير هما الميجور و. أ. دافنورت والميجور هـ. ج. غارود.

لا نكتمل قائمة الأوروبيين مقنن لعبوا دوراً في حرب الصحراء دون ذكر الفرنسيين. ففي أوائل شهر سبتمبر من عام 1916 أظهر الفرنسيون مشاركتهم في القضية العربية بإرسالهم بعثة إلى جدة بقيادة الكولونيل بيرمون Colonel Bermond. لكن حكومتهم لم تكن تساعد بشكل كافٍ وكان البريطانيون مضطرين ليزودوهم بكل شيء، مما أدى إلى صعوبة التفوق على العرب. مع ذلك، كان تلكايشين يزناني، الذي قاد قطعة من الفرنسيين ذوي الأصول الجزائرية طوال فترة الحرب، خبيراً لا تُضاهى في الصحراء المغربية وقام بأعمال مهمة فيما يخص الشبكة الحديدية التركية عام 1917، وكذلك في العمليات الأخيرة في ضواحي درعا عام 1918.

أما الأجانب الآخرون في الحجاز، فكانوا خليطاً من الفرق المصرية وفرقة من مسلمي الهند من حاملي المدافع الرشاشة.

ومن أظرف الأعمال التي قام بها الإنكليز أثناء الحرب في الشرق الأدنى ما قام به جنون فيلي الذي لم يلعب أي دور في الحملة الحجازية، لكنه باغت ذات يوم الملك حسين في عاصمته الصيفية، الطائف، وهو يلبس ثياباً بدوية أنيقة. وكان فيلي قد جاء بمهمة سرية ليقابل ابن سعود في وسط جزيرة العرب، وتوغل في منطقة مجهولة ممتدة من الخليج العربي إلى البحر الأحمر. وقد أعجب لورنس بفيلي إعجاباً عظيماً لقيامه بهذه الرحلة وبمقدرته على مسامرة البدو والاتلاف معهم، وما كادت الحرب تنتهي حتى توسط في تعيينه مستشاراً خاصاً لسلطان الأردن.

ربما يكون أكثر الأوروبيين أصالة ممن شارك في الثورة العربية هو اللورد ووترتون، الذي كانت له لجة ضخمة ويرتدي كوفية عربية ويركب جملاً ذاسرج مزخرف أخاذ. في إحدى المرات قاطعه عضو من وايتشايل أثناء إلقائه خطبة، فاستدار اللورد وحجج المزعج بنظرة صاعقة وصرخ بصوت ارتجت له القاعة: «صمتاً! Silence in the Ghetto».

أما في الصحراء فقد تمكن اللورد من الظهور بشكل رجل مسيئ السمعة وكقاطع طريق من جماعة عودة أبو نايه نفسه. في أحد الأيام جاء اللورد ووترتون بملابسه

البدوية راكباً جملة من بافا إلى مقر أنثي قرب الرملة. وكان هناك طريق بين هاتين المدينتين الفلسطينيتين، لكن راكبي الجمال والحمير أو المشاة كانوا أثناء الحرب يسلكون طريقاً فرعياً لكي يبقى الطريق الرئيسي محظوظاً بقوافل الشاحنات وسيارات الإدارة. وفي وسط هذا الطريق الرئيسي جاء اللورد ونترتون يتهادى على جملة في مهمة من الجيش العربي إلى أنثي.

رأه رقيب من الشرطة العسكرية كان معيّناً في تلك المنطقة لتنظيم التسير، فصرخ قائلاً: «ابتعد عن الطريق أيها الأسود قليل الأدب». لكن ونترتون تابع مسيره بهدوء فلم يكن معتاداً على أن يخاطبه أحد بهذه الطيش، وبالتالي افترض أن الرقيب كان يتحدث إلى رجل آخر. لكن الرقيب صرخ مجدداً: «ألم نسمعي أيها المسؤول الأسود؟ قلت ابتعد عن هذا الطريق وعُد من حيث أتيت».

هناك أوقف ونترتون جملة وأجاب كما يجيب أي شخص بمسنوء الاجتماعي: «لا بد أنك لا تعرف من أنا أيها الغلام. أنا ميجور وعضو في البرلمان ولورد أيضاً». عندها كاد الرقيب ينهار أرضاً، لكنه تمكن من أداء التحية وتمتم بكلمات يفهم منها: «تقدم يا سيدي، تقدم».

كان معظم الضباط في جزيرة العرب يحملون إشارات رتبة كولونيل أو عقيد أو ميجور (رائد). لكن الرتبة لم تكن لتشكل فرقاً مهماً وكان هناك اسجام تام بين الجميع. كانت الشجيرة محظورة بينهم ولم يكونوا يستخدمون الألقاب. حتى عندما سئحت الفرصة للورنس بأن يصبح جنرالاً، رفض هذا الشرف وتعلّل بأنه لا يريد أن يكون أعلى رتبة من زملائه. كان لكل رجل مهمته وطريقته الخاصة، وكان كل واحد منهم يتصرف بحرية كما كان الفرسان يفعلون قديماً.

وفي رسالة كتبت من جزيرة العرب إلى الوطن أثناء المرحلة الأخيرة من الحرب يقول الكولونيل ر. ف. بكستون، (قائد فرقة الهجانة الذي جاء من فلسطين ليتعاون مع قوات الأشراف):

«إن الكونتونيل نورنس أعجب رجل عرفته، فهو مرشدنا وفيلسوفنا وصديقنا، ومع أن ظاهره يوحي إليك بأنه مجرد صبي، ومع أنك لا تشاهده إلا تخملاً حياً، فإنه ما من عربي في البلد إلا ويعرفه بما أتى من الأعمال البطولية، وهو يعيش كالبدو ويلبس لباسهم ويسافر دائماً في ثياب بيضاء بسيطة، ولا يأكل إلا من طعامهم وهو يتفقد حماسة للعرب، وعملياً هو من أشعل الثورة بأكملها».



قافلة جمال في وادي عربة



طلال الحريردين من طقس

الفصل الثامن والمثرون

فيصل ولورنس في معركة باريس

بعد سقوط دمشق وإجلاء الجيوش التركية عن البلاد العربية، وبعد أن نجح نورنس في تأليف حكومة مؤقتة للأمير فيصل، خلع خنجره الذهبي المعقوف وحزم ثيابه البيضاء القاصعة البسيطة، وثيابه الأنيقة المزركشة التي كان ثقلها دلالة على أنه أصبح من أشرف العرب، وأسرع متطفاً إلى لندن بعد أن شهد نهاية مرحلة مهمة في تاريخ الشرق الأدنى. لقد صنع المستحيل إذ نجح في توحيد القبائل التي كانت الحداوة مستحكمة بينها، بن ووضعا في صف الحنفاء، وساعد آلبي عندما وضع حداً لأمانتي الألمان في السيادة الثامنة في الشرق الأدنى.

لكنه لا يزال يعتقد أن عمله لم يبلغ تمامه، فصمم على الذهاب إلى لندن ليطالب الحلفاء بالعهد الذي قطعوها على أنفسهم للعرب، وهناك مؤتمر للسلام لا بد أن يعقد، ولهذا عاد نورنس إلى أوروبا ليهيئ الأمور لوصول المفاوضين العرب.

وقد حدثت حادثة طريفة للنورنس عندما مرّ بسويسيا في طريقه إلى لندن، وقف لنورنس في المحطة يستفهم عن موعد القطار التالي المعاد إلى الهافر. كانت السماء تمطر رذاذاً خفيفاً وكان لنورنس يلبس فوق برّته معطفاً مطرياً داكن اللون دون أية علامة تدل على رتبته. ومع أن نورنس كان يومئذ في رتبة كولونيل، فقد كان يخجل لمن يراه أنه من صغار الضباط. كان المسؤول هناك ضابط ضخم انجته ذو شاربين مخيفين، وعندما اقترب منه الكولونيل وسأله بمتهى الأدب عن موعد القطار، نظر إليه نظرة صارمة وخاطبه بلهجة متوقدة طالباً إليه ألا يزججه وأن يسأل مساعده. خرج نورنس

دون أن ينسى بكلمة وخلع معطفه في الغرفة المجاورة ثم عاد إلى غرفة الضابط من جديد يقول بصوت هادي: «ماذا قلت عن موعد انطلاق القطار الثاني إلى انهار؟»
تلمحظة ودأ الضابط لو أنه يبدق عنق لورنس، لكنه التفت فجأة قرأى الناج والتجزم على كفي محدثه، ففهم واقفاً وحياه التحية العسكرية ثم قال متلعثماً:

«أرجو المَعذرة يا سيدي، أرجو المَعذرة».

لم يكن هناك ما يدخل السرور إلى قلب لورنس أكثر من إذلال العتكرين الذين يحاولون أن يظهروا أنهم مهمون. ليس في سلوكه نبجح أو مباحة، لكنه يستمتع عندما يصادف متبجحاً يحاول المبالغة في الظهور.

أقلت السفينة الملكية البريطانية «غلوستر» Gloucester الأمير فيصل ورجاله عبر البحر الأبيض المتوسط إلى لندن كضيوف للملك. انزعجت فرنسا عما علمت بقدم الوفد العربي إلى مؤتمر الصلح، ورفضت الاعتراف به. كانت فرنسا تريد سوريا لنفسها، وترى أن الأمير فيصل ومستشاريه الإنكليز سيكونون عائقاً في وجه طموحاتها. مع ذلك قصد فيصل باريس وهو يعلم أن الفرنسيين سيقابلونه بالفتور.

يحافظ الأمير فيصل محافظة دقيقة على تعاليم دينه ويأبى شرب الخمر، ولهذا حدثت إشكالات على متن الباخرة بسبب أن أعضاء الوفد كانوا ممن يتامحون في شرب الخمر. وبما أنهم كانوا يخشون الشرب علناً حتى لا يغضبوا الأمير، كانوا يتزرون قبل العشاء بنصف ساعة في غرفة الجلوس، يجرعون ما يجدونه من أنواع الخمر، وكان الجنرال نوري، وهو من أقدم ضباط فيصل والذي أظهر مقدرة في الحرب، قد تجرأ على إحضار كأسه إلى المائدة وكان يخفيها وراء قارورة الماء حتى لا يراها فيصل.

اصطحب الميجور مارشال، رفيق لورنس في الخيمة، الوفد العربي من الإسكندرية حتى مرسيليا، وكان يتساءل في سره عن كيفية استقبال الفرنسيين لرفاقه إثر وصولهم الميناء. وعندما دخلت الغلوستر مرسيليا صعد إلى متنها مبعوث فرنسي دون مثلين

بريطانيين، وقد صرح الفرنسيون لمارشال بأن اهتمام الإنكليز بفصل لا يبرهم، وأن كل الشؤون المتعلقة بسوريا هي من اختصاص الفرنسيين وحدهم. وعلى هذا أرسل مارشال برفقة إلى السفارة الإنكليزية في باريس، وبعد ساعات ظهر لورنس تحاشي لبلافته المعهودة الاحتكاك بالفرنسيين، واستعار كوفية مارشال العربية ووضع نفسه بين أفراد إدارة الأمير فيصل للتفاوض ونيس كضابط بريطاني.

وأخيراً وصل الوفد إلى باريس واحترار الأمير فيصل مقرأله فندق الكوتينتال في شارع ريفولي. وكان الكولونيل لورنس يذهب مع فيصل أينما سار، سواء إلى اجتماع غير رسمي أو إلى مؤتمر رسمي. فنيلون فقط من أعضاء مؤتمر الضنح هم من يعرفون أن هذا الشاب هو قائد النجوش العربية أثناء الحرب، والذي كانت شخصيته لا تقل أهمية عن شخصيته فيصل ذاته.

كان فيصل أبرز شخصية في الوفد مدة إقامته في باريس، وكان بزيته العربي يثير اهتمام الفرنسيين. وبالأخص الفنانين والمصورين والكتاب. ولكن فيصل ليس من الرجال الذين يطعمون في الشهرة، مثله في ذلك مثل لورنس على السواء، ولهذا كان يستيقظ في الساعة السادسة صباحاً ثم يذهب إلى مكان انعقاد المؤتمر فراراً من مقابلة الصحافيين والمصورين والجماهير المحتشدة التي كانت تبعه أينما حلّ للتمتع برؤية الأمير العربي وثيابه الرائعة.

وفصل من الرجال الذين يفهمون فوراً من يتملقونهم. وفي ذات يوم، بعد تناول العشاء في دار البلدية، وقف مسيو دوبوست Dubost يكيل له المديح في خطبته. ولما سأل مترجم مغربي الأمير عن الأثر الذي انطبع في نفسه من هذا الخطاب أجاب: «إن للخطيب اسناناً جميلة، ليس كذلك؟»

كان الإنكليز قد أفرطوا موعودهم للعرب إغراء لهم على القتال، فلما انتهت الحرب وجدوا أن معظم هذه الموعود غير قابل للوفاء لأن منها ما يتعارض ومصالح الفرنسيين. لكن الأمير فيصل نجح، بكياسته وحذقه، في كسب عطف عدد كبير من كبار رجال السياسة في المؤتمر ولم يكن يجتمع بأحد إلا سحره بحديثه. وفي اجتماع

مجلس العشرة أشار مسيو بيثون Pichon إلى حق فرنسا في سوريا الذي يرجع إلى أيام الحروب الصليبية. أصغى فيصل باحترام، وبعد أن أنهى انشغالي الفرنسي حديثه التفت فيهل نحوه وسأله بأدب: «أنا لست ضليماً بالتاريخ، فهل تتفضل بإخباري من الذي انتصر في الحروب الصليبية حقيقة؟».

كان رأي لورنس في مؤتمر الصلح صريحاً وبسيطاً، وهو أنه إذا كانت بريطانيا العظمى لا تستطيع ضمان الاستقلال للعرب، وإذا كانت تريد أن تتركهم في أيدي الفرنسيين، فسيبعد إلى مساعدة العرب في مقاومة المطالب الفرنسية التي تعارض الأمانى العربية، ولن يهدأ له بالٌ حتى ينال العرب الحقوق التي من أجلها استبلوا في القتال.

في أثناء الحرب كانت بريطانيا ترمي الثورة العربية لنيل الاستقلال ومكنت الملك حسين وأبناءه من صيانة جيوشهم ضد الأتراك. أما الفرنسيون، فلم يرسلوا للعرب سوى قطعة عسكرية واحدة لم تكن تثنى لولا الإمدادات التي جاءتها من لورنس ورملائه البريطانيين. لكن الاتفاقية المحررة بين البريطانيين والفرنسيين كانت «أنتخذ هذه، وأنا آخذ تلك»، وبالتالي أرادت فرنسا ضم سوريا إلى دائرة نفوذها. كان الأمير فيصل ولورنس على يقين من أنه لو نفذت هذه الاتفاقية فإن سوريا ستصبح مستعمرة فرنسية بالرغم من عدم رغبة معظم شعبيها لا بالسيطرة الفرنسية ولا بالتعاون مع الفرنسيين.

وليس لورنس بالمنطقل عندما عرض القضية العربية ووجه الأمير فيصل إلى لقاء المفاوضين على أرضهم، فقد درس جغرافية جزيرة العرب وسوريا وفلسطين دراسة دقيقة. وتحدث بالللهجات المختلفة في الشرق الأدنى. لقد عاش بين الطوائف المتعددة واختلط بها اختلاطاً لم يختلط مثله أي أجنبي، وشرب القهوة في دار كل شيخ من شيوخ القبائل العربية، ويستطيع التحدث لساعات عن الشؤون السياسية والدينية والتأرات القبلية بين العرب وجيرانهم. كما طاف المدن السورية وزارها مزاراً حتى أصبح يعرف عنها ما يعرفه عن لندن وأوكسفورد. وكان يتحدث منها إلى أصدقائه كأنه ينظر في خريطة أمامه، فيسرد المدن واحدة واحدة ويعرف مواقعها وتاريخها وتاريخ سكانها وعاداتهم.

وصرح لوزنس أن بيروت هي النافذة الغربية لسوريا وأنها فرنسية في مشاعر أهلها وفي لغة التخاطب المنتشرة فيها. بالرغم من مبنائها الإغريقي وجامعاتها الأميركية الضخمة. لكنه كان مصرّاً على أن دمشق، المدينة السورية العريقة ومركز الحكومة والمدين، هي عربية صميم، وأن أفكار شبوخها متشددة، وأنهم يربعون بقوة في الخلاص من الحكم الأجنبي. كما قال إن أعظم المدن صناعاً، حماة وحمص، هما مدينتان محبتان أكثر من غيرهما.

وكان لوزنس يقول إن القضية العربية قائمة على أربع وثائق هامة، ذكرها على النحو التالي: «أولاً، وعد الإنكليز الملك حسين في أكتوبر سنة 1915، شرط القيام بالثورة العربية، بأن تعترف بريطانيا العظمى باستقلال العرب في الأراضي الواقعة في الصحراء حتى جنوب الدرجة 37 من خط العرض ما عدا بغداد والمصرة، وأن تكون بريطانيا في مركز يمهّد لها العمل الحرّ دون أي تدخل في مصالح فرنسا».

ثانياً، معاهدة سايبكس - بيكو التي تمّت بين إنكلترا وفرنسا في شهر مايو سنة 1916 والتي كان من شأنها تجزئة الممالك العربية التي كانت تحت السيادة التركية إلى خمس مناطق على الوجه الآتي:

- (أ) فلسطين من الأردن إلى البحر الأبيض المتوسط هي منطقة دولية.
- (ب) حيفا وبلاد الزاادين من نكريت إلى الخليج هي أقاليم بريطانية.
- (ج) الساحل السوري من صور إلى الإسكندرية وكيليكيا، وتقريباً كل المناطق الأرمينية الجنوبية من سيواس إلى ديار بكر هي مناطق فرنسية.
- (د) المناطق الداخلية، وبالأخص حلب ودمشق وأورفة ودير الزور والموصل، هي ممالك عربية مستقلة تحت نفوذين اثنين:

(1) المنطقة الواقعة بين الحفّة والكويك، وحيفا ونكريت لا يتدخل الفرنسيون فيها تدخلاً سياسياً، وأن يكون للإنكليز الأولوية الاقتصادية والسياسية ولهم الحق في إرسال المستشارين وفقاً لرغبة العرب.

(2) المنطقة الواقعة بين حيفا - وتكريت والجزء الجنوبي من أرمينيا الفرنسية أو كردستان، ليس لإنكلترا الحق بأن تتدخل فيها سياسياً، وتكون فرنسا وحدها صاحبة السيادة الاقتصادية والسياسية، وأن يكون لها الحق في إمداد العرب بالمستشارين الفرنسيين وفقاً لما تقتضيه الحاجة».

«ثالثاً، الوثيقة التي أدلى بها البريطانيون إلى سبعة من كبار السوريين في الحادي عشر من شهر يونيو سنة 1917 والتأكيد لهم أن البلاد التي كانت عربية قبل الحرب والبلاد العربية التي تحررت من التبر التركي عنوة وبفضل اشتراك أهلها في القتال مع الأتراك أثناء الحرب الكبرى، تبقى مستقلة استقلالاً تاماً.

رابعاً، التصريح الإنكليزي - الفرنسي في التاسع من نوفمبر سنة 1918 والذي وافقت فيه الحكومتان البريطانية والفرنسية على تشجيع إيجاد حكومات وطنية في سوريا والعراق، وأن يكون للشعبيين السوري والعراقي الحق المطلق في اختيار شكل الحكم الذي يرضيهم ويوافق مصالحهم».

يقول لورنس: «قدّمت كل هذه الوثائق تحت ضغط الحاجة العسكرية الملحة لإغراء العرب حتى يقاتلوا إلى صفت».

«وأنا لا أجد أي تضارب أو مجال للمقارنة بين هذه الوثائق الأربع، وأنا أعلم أنه ما من أحد يجد ذلك. وبعاً لذلك قد يُطرح السؤال الثاني: ما هو سبب المضاعف بين البريطانيين والفرنسيين والعرب؟ يعود السبب بشكل رئيسي إلى معاهدة 1916، الوثيقة الثانية، لأنها غير قابلة للتطبيق ولا ترضي الحكومتين البريطانية والفرنسية. تعطي هذه الوثيقة بشكلها الحالي الحق للعرب في حكم دمشق وحمص وحماة وحلب والموصل لوحدها مع تزويدها بمستشارين وفقاً للحاجة التي يقرّونهاهم أيضاً، وإن مراجعة الوثيقة مسألة حساسة ولا يمكن جعلها مرضية لإنكلترا وفرنسا دون حساب لرأي العُرف الثالث، أي العرب».

كانت المسألة حساسة فعلاً وصعبة الحل، والواقع أن بريطانيا العظمى قد أوقعت

نفسها في موقف حرج جداً، فهي في الوقت الذي كانت تقطع فيه العهود للعرب كانت تعقد مع فرنسا بعض الاتفاقات الخاصة، وفي الوقت نفسه أيضاً كانت تقطع العهود للضمانات. أما الأمير فيصل فقد جاهر بعدائه لفرنسا ومقاومته القوية لها، وطالب بشدة أن تكون المملكة العربية الجديدة شاملة سوريا والعراق وفلسطين، ولكن كان جواب فرنسا أن لها حقاً قديماً في سوريا ترجع إلى عهد الفينيقيين، وأنها هي التي أسست المعاهد العربية الكبرى في كل الأنحاء السورية، وأنها أنقذت الأموال الطائلة على مد الشكك الحديدية، ولم تترك وسيلة من وسائل العزو الإسلامي البري. إلا وقامت بها، وأكدت فرنسا أنها حامية الشعب المسيحي في سوريا منذ فجر التاريخ. وكان الضمانات يتقربون من بريطانيا لتساعدتهم على إنشاء الوطن القومي بحمايتهم، ومن هنا ترى أن القضية العربية لم تكن قضية هينة، وكان من الضروري أن تنفق إنكثرا وفرنسا.

أصر الأمير فيصل، بسانده لفرنسا، على أن تكون الدولة العربية الجديدة شاملة للحجاز والعراق وسوريا وفلسطين. وأبى بشدة أن تكون فلسطين دولة يهودية، مؤكداً أنه لا يمكن فصل فلسطين عن المملكة العربية، بل يجب أن تظل جزءاً من سوريا لا يتصل عنها، ولما كان لا يوجد أية حدود طبيعية بين البلدين فإن ما يؤثر على الواحدة لا بد أن يؤثر على الأخرى. وإن فلسطين وسوريا والعراق من الناحية الجغرافية ومن الناحية العرقية إقليم واحد لا ينقسم ولا يتجزأ، من جهة أخرى، لم يعارض فيصل هجرة اليهود إلى فلسطين على أن يكون لهم الحق المطلق في الإشراف على مدارسهم بأنفسهم، وأن يؤسسوا مركزاً ثقافياً يهودياً وأن يشتركوا في حكومة فلسطين.

يقول الأمير فيصل: «إن اليهود كالعرب من الشعوب السامية، وبدلاً من أن نعتمد على دولة من الدول الغربية في نيل حقوقنا يجب أن يتعاون العرب واليهود على إيجاد دولة سامية عظيمة، وأني أقدر أعظم تقدير الأماني الصهيونية ولو كانت متطرفة. إنني أعرف أن أمنية اليهود هي الحصول على وطن لهم، ولكن عندما يتعلق الأمر بفلسطين فإن الحق يرجع إلى ساكنيها الحاليين. وإن فلسطين هي في الواقع من البلاد العربية

ويجب أن تظل عربية، بل يحتم أن تكون جزءاً لا يتجزأ من الدولة العربية الكبرى».

بطبيعة الحال كان في تصور فيصل حقوق إقليمية وسياسية للمغرب، وكان مهتماً بإنشاء دولة عربية كبرى بالرغم من كل الصعوبات التي قد تعترض نجاحها. لكن لورنس، بحاسته السادسة وفهمه لنهوض وسقوط الأمم، كان يقدر الأحداث على مدى العقود وليس السنوات. إن القضايا العربية والفلسطينية والشورية يجب أن تُمتحَن وتجرى التغييرات فيها على مدى زمن طويل.

بالرغم من كل التناقضات الدبلوماسية والروتين والإطباب التي سادت اجتماعات باريس، ثم ينخدع الأمير فيصل بالزواج الحقيقية المهيمنة على مؤتمر الصلح، وقبل أن يبدأ ولورنس حضور أحد الاجتماعات، كان يلهو بإخراج خنجره الذهبي من غمد، وشحذ عدة مرات على حذائه.

والأمير فيصل حاد البديهة، رويت قصص كثيرة عن ردوده الحادة والحاسمة في مؤتمر باريس. وبعد أن قضى عدة أسابيع يحضر جلسات المؤتمر طلب إليه أن يدي رأيه في الشاسة العصرية بعد أن رأى منهم من رأى فأجاب بصراحته المعهودة: «إنهم أقرب ما يكون للوحة العصرية، التي ينبغي تعليقها في قاعات الفن لشاهد عن بُعد!».

وكانت نتيجة معركة مؤتمر الصلح، التي كافح فيها فيصل ولورنس كفاح الأبطال، حزينة، فهما لم يتالا المطالب التي كانا جاءا من أجلها، ولم يكونا يتوقعان أن يُجابا إليها. وفي النهاية كان من نصيب فرنسا أن تأخذ بيروت والساحل السوري وأن تقبل مريطايا العظمى الانتداب على فلسطين. أما العرب فقد سُمح لهم بالاحتفاظ بمناطق سوريا الداخلية وأن تكون دمشق، الأثرية لديهم، عاصمة دولتهم العربية الجديدة.





نلّاح سوري

الفصل التاسع والعشرون

نجاة لورنس من الموت

ومغامرات فيصل وحسين

كان لورنس قد ملّ حياة الشكّون بسبب بقاءه الساعات الطويلة في غرف مؤتمر الضلح، ونافست نفسه إلى المغامرات. واتفق أنه قد ترك مذكراته وأوراقه الهامة المتعلقة بالحرب في سرداب في القاهرة، لأن البحر الأبيض المتوسط كان لا يزال مرتعاً للغواصات الألمانية عندما وقعت الهدنة مع الأتراك وعندما عاد من الشرق الأدنى. لذلك، وبعد إنجاز العمل الأولي في مؤتمر الضلح، شعر لورنس بأنه في حاجة لتلك الأوراق والمذكرات.

سمع أن هناك عشر طائرات بريطانية ضخمة من نوع هاندلي بايدج وبمحركات رولز رويس، والتي كانت قد أغارت عدة مرات ليلاً على ألمانيا، كانت ستغادر لندن إلى القاهرة، فاعتمر لورنس السفر إلى مصر دون إبطاء. نكس الطائرات كانت قديمة للغاية وكان الطيارون من النوع المتهوّر الذين يحطمون طائراتهم إلى أشلاء، وفي الواقع كان بعضهم لم يقد أبدأ هذا النوع من الطائرات. وفي الطريق من كونوبي إلى ليون اضطر الطيار إلى الهبوط خمس مرات، ويبدو أن الطائرات كانت بحاجة إلى إصلاح عدة مرات قبل الوصول إلى مصر.

أرشدت وزارة الطيران في لندن سرب الطائرات إلى مدرج للهبوط في روما، وعندما وصل الطيارون إلى المدينة الخائبة أخذوا يجربون المنطقة فطاروا فوق نهر التايسر وكنيسة القديس بطرس والكونوسيوم والفوروم وصعدوا ونزلوا فوق طريق أيبان، لكنهم لم يجدوا في أي مكان من الثلاث الشبحة مكاناً يصلح للهبوط. أخيراً رأى

فائد طائرة لورنس ما اعتقد أنه مدرج، لكنه عندما بدأ بالهبوط تبين له أنه مقطع حجارة، ولم يكتشف خطئه إلا قبل الوصول إلى المقنع بقليل مما كان منه إلا أن أدار المحرك وحاول التصعود من جديد. ونسوء الحظ لم يتمكن من الارتفاع بسرعة كافية فدرجت الطائرة على الأرض ثم اصطدمت بحافة المقنع وتحطمت فوق قمة شجرة.

كان لورنس يجلس في الحجرة المخصصة لإطلاق المدفع الرشاش، ولم يشعر الزكاب إلا وشجرة تأتي نحوهم بسرعة رهيبية، ثم سمعوا فجأة صوت انفجار. وفي لمح البصر كانت الطائرة العظيمة قد انقلبت على مقدمتها وجناحها الأيمن وتحولت إلى شظايا خشبية. قُتل الطياران على الفور، أما الميكانيكيان، اللذان كانا يجلسان مع لورنس في قمرة المدفع الرشاش، فقد ألقي بهما خارجاً على رأسيهما. أصيب أحدهما بارتجاج في المخ بينما فقد الآخر الوعي، وحالما عاد إلى رشده بدأ لورنس يخرج من بين الأنقاض. كان قد كسر لوح كتفه وبعض عظام رقبته وثلاثة من أضلاعه، وبعد إجراء فحص للطائرة استمرّ عشر دقائق صرح الميكانيكي بأن الطائرة عرضة للاحتراق في أية دقيقة، فأجاب لورنس: «حسناً، إذا حدث ذلك، سأشعر دون شك بالشفعية عندما أصل إلى العالم الآخر».

ولكن على الرغم من خطورة هذا الحادث، فقد استطاع لورنس أن يجد طائرة أخرى بعد أيام قليلة وأتم رحلته إلى مصر. وقد قال لي عندما اجتمعت به في باريس: «لا يمكن أن تنصّر الشعور الذي يستولي على الإنسان عندما يتناول طعام الإفطار في جزيرة كريت، والعشاء في اليوم عبث في القاهرة على الرغم من أن المسافة بينهما سبع مئة ميل»^١. وبعد أن جمع لورنس أوراقه عاد إلى باريس، وهو لا يزال متعباً إثر حادثة الطائرة.

انتهت جلسات المؤتمر، فرأى فيصل أن يزور لندن وأن يطوف في الجزر البريطانية. والواقع أن لورنس كان يشعر بسرور عظيم في تعريف أصدقائه العرب على المنطقة، كان من المنتظر أن يتأثر أعضاء الوفد العربي بالمناظر الفاتنة والمخترعات الحديثة، لكنهم اكتفوا بالابتسام. كان كريباً هم يمنعهم من إظهار اندهاشهم لما يرون

بامتثاء مرة واحدة أثناء تواجدهم في فندق ريتز، فقد ذهبوا عندما فتحوا صناديق الحباء واكتشفوا أن أحدها يضح ماء ساخناً بينما يضح واحد آخر ماء بارداً.

في القرآن الكريم خبرٌ عن بنائع الجنة التي تفيض بالحليب والعسل. لكنهم ثم يسمعون أبدأ عن بنابيع في الأرض كذلك التي في فندق الرّيتز. ومن ثم أخيراً الورّنس أنهم يرغبون في أخذ بعض من هذه الصّناديق ليحملوها على جمالهم فتزودهم بالماء الساخن والبارد وهم يشجّون في الضحراء.

وحدث أن دُعي الأمير فيصل إلى وليمة في «غلاسغو»، وكان قد أمضى وقته يتفرّج عنى نهر الكلايد فلم يستعد للكلمة يرد بها على الشّحنة الخطائية. لم يكن هناك من يفهم اللغة العربيّة بين الحاضرين سوى نورّنس، الذي كان يجلس إلى جانب الأمير فيصل ليقوم بدور المترجم، فما كان من الأمير إلا أن مال بجهة نورّنس وأسّر له بالأمر قائلاً: «ليس لديّ ما أقوله لذلك سأقرأ مقطعاً من القرآن من سورة البقرة، وعندما تنهض لترجم ما تحلّتُ نسطيع قول ما نشاء». أخذ فيصل يتلو الآيات انكريمة بصوت جهوري رنان وينغمه عذبة فلم يبق أحد من الحاضرين إلا تأثر بها أعظم التأثر. كانت الآيات تتدفق من فم الأمير تدفق شلالات «نيغار» ولم يخطر في بال أيّ من الحاضرين أنّه كان يقرأ القرآن.

وقبل عودة فيصل إلى الشرق الأدنى بقليل دُعي إلى حفلة ساهرة في لندن وكان اللورد بلغور من بين المدعوين. انتهز اللورد هذه الفرصة وسأل الأمير فيصل عن رأيه في الحكومة. فقال جورج واشنطن العرب: «إنّ الحكومة البريطانية تذكّرني بالقافلة في الصحراء... إنك عندما ترى القافلة من بعيد يخيّل إليك أنك لا ترى إلا جملاً واحداً، ولكنك عندما تقترب من القافلة تشاهد جملاً كثيرة كل واحد منها مربوط بذيل الآخر، حتى تصل إلى رأس القافلة فتجد حماراً صغيراً يقود القافلة كلها». حار بلغور ولم يدرك من يقصد الأمير بالحمار!

وعاد فيصل إلى سوريا وعاد الشعب السوري إلى الترحيب بمحرّره من التبر، ولم تمض بضعة أسابيع على عودته من لندن حتى نادوا به ملكاً على سوريا على أن

تكون دمشق عاصمة ملكه الجديد. ولكن شاعت الظروف أن يكون عمر هذه المملكة قصيراً، إذ لم يجد فيصل دولة أجنبية تمده بالمال لينظم أموره ويدير شؤون دولته، فأصبح وضعه سيئاً. وبعد أن أنفق فيصل أمواله الخاصة التي ادخرها لأجل انتشار البلاد من الفوضى المالية التي وقعت فيها، أُجبر على ترك دمشق واحتل الفرنسيون سوريا من أقصاها إلى أقصاها. كان الذي يبدو لأول وهلة في ذلك الحين، أن أمانى فيصل وآماله قد تحطمت، ولكن تونزس وغيره من القادة البريطانيين الذين اشتركوا في الثورة العربية لم يقطعوا الأمل، وكانوا يقولون إن ورقة من أوراق اللعب ما زالت في أيديهم، ومن يدري فقد تكون الرابحة.

وكان الملك حسين طوال المدة التي عم فيها الاضطراب سوريا يسعى سعياً حثيثاً لتقوية مركزه في الحجاز، وكثيراً ما كان البدويون رجلاً هزياً يعدو من مكة قبل الصباح الجميل، هذا هو جلاله الملك حسين، ملك العرب، في رحلته ليلاً إلى جدة التي تبعد أربعين ميلاً عن مكة. لم تكن هناك فرقة موسيقية أو أثبة تسبق موكبه، بل كان يسافر وحده على ظهر البغل.

بقي الشريف حسين يحكم كملك على الحجاز، ثم اتخذ لقب الخليفة، أو الزعيم الروحي لما يقرب من مئتي مليون مسلم، إلى أن حل محله ابن سعود الذي قدم من وسط جزيرة العرب. كان حسين ملكاً جليلاً يميل إلى البساطة ويفضل البغال على وسائل النقل الأخرى، وكان خبيراً ومولعاً بها. كان يبحث عنها في أميركا الجنوبية وأستراليا والتجربة، لكنه كان يقر بأن أفضلها هو نوع «hard-tail» الموجود في ولاية ميزوري.

وكان شديد القسوة حين يغضب، وخصوصاً لخرمات الذين. ذات مرة، بعد حملة ناجحة لنسف أحد القطارات، عاد الرجال إلى مكة وكان من بينهم ضابطان من ضباط تونزس العرب يحملان شراباً مُسكرًا من أجل الاحتفال بانهما سبة. بلغ الأمر أذني الملك فأمر بضرب الضابطين علناً، وبعدها لم يعد أحد يفكر بجعل مكة مونترال العرب.

وكان العرب مُغرّبين بالفونوغراف، لكن الملك حسين حرّم دخونه إلى مكّة، وكان يقول عن اختراع أديسون إنه من عمل الشيطان، ومع أنه كان يميل إلى حياة البداوة، ومع أنه كان يتعاطف مع البدو، فقد كان أقسى عليهم منه على عرب المدن.

كان جالماً ذات يوم تحت ظلال النخيل في واحة من الواحات وحوله جماعة من البدو يفترشون السجاجيد الصغيرة. رأى بطرف عينه بدوياً من هؤلاء البدو وقد دسّ كوفية جاره تحت طيات ثوبه الفصفاص، وتطّلع البدوي فلم يجد غطاء رأسه الجميل وأكرّ البدو جميعاً أنهم قد رأوا هذه الكوفية ومن بينهم المذنب طبعاً، فما كان من الحسين إلا أن وقف وقد استولى عليه الغضب الشديد ومشى بخطوات سريعة نحو وصرخ في وجهه:

«أيها العلامة أين كوفية رفيقك؟» فتلعثم الرجل وقد استولى عليه الفزع وقال:

«يا أبا المكرمات والمرحمة، إني لا أعرف شيئاً عن هذه الكوفية». فرمى حجر حسين صارحاً: «أيها الكاذب!» وضربه بعصاه الثقيلة ضربات قويّة هشمت ضلوعه وأفقده الحياة في اليوم التالي.

حسين هو الثامن والستون من أشرف مكّة، وهو أول ملك عربي، حاول أن يعيد لقبيلته القديمة فريش، قبيلة النبي محمّد نفسه، مجدّها السابق وعزّها القديم، وهو رجل ذكي إلى أقصى حدّ، وقد أكّد الذين اختلطوا به أنه موهوب سياسياً. لكنه نظراً لكهولته لم يكن في مقدوره أن يبسط سيطرته كخليفة على العالم الإسلامي المجرأ، كما أن من المسلمين من لم يعترفوا به خليفة. والوهابيون، وهم قوة عظيمة، أبوا الخضوع له. وأخيراً جاء ابن سعود، أمير أواسط جزيرة العرب ورعيّم الوهابيين، وأطاح بحسين وأجبره على التنازل عن مُلكه لابنته علي.

ويقول جون فيلبي: «في أوائل الحرب أرسل السير بيرسي كوكس، الذي رافق الحملة إلى بلاد الرافدين كقائد سياسي، أرسل الكاش شيكسبير ليحضّر ابن سعود وحليفه ابن رشيد على الوقوف في وجه الأتراك. انطلقت الحملة في يناير سنة 1915، ورائي أميل إلى الاعتقاد أنه لو لا وفاة شيكسبير في أول غزوة، لما كان قدّر للكونغرس

لوزنس أن يفوز بالشهرة العالمية التي فاز بها، ولما استطاع دخول دمشق دخول الفاتح المنتصر على رأس أكبر جيش حجازي.

خلف مسنر فيليبي الكابتن شيكسبير في الصحراء الوسطى التي كانت تحت حكم ابن سعود، وهو يعجب إعجاباً كبيراً بهذا الملك الحجازي. ولكن شاءت الظروف أن يقصد مسنر فيليبي أواسط صحراء العرب بلاد الوهابيين، في وقت كانت الثورة الحجازية قد وصلت إلى حذها الأقصى من الشدة، وكان الكولونيل لوزنس في طريقه إلى دمشق. قام مسنر فيليبي برحلة خارقة في مناطق مجهولة من قلب الصحراء ووصل إلى عاصمة الملك حسين، الطائف، الواقعة وسط الجبال الغربية من مكة المكرمة، فرحب به ملك العرب ودعاه بلوزنس نجد.

يحرم السلفيون التدخين، ومن سؤل أنه تنسب بأن يدخن فهو في خطر أن يفقد رأسه. وهم يريدون إلغاء الحج إلى مكة وهدم الأضرحة والكعبة المقدسة وقبر النبي في المدينة^(١). يتراأس ابن سعود قوة عظيمة من الرجال الأشداء، وقد استولى على حائل، عاصمة ابن رشيد، بعد الحرب وهو الآن الحاكم المطلق على أواسط جزيرة العرب.

كان للملك حسين أعداء آخرون أيضاً، فقد طائب أمير المغرب بالمنصب نظراً لاجتماعه من فرع من قبيلة قريش. كما طائب الأتراك بأن يصبحوا قادة للمسلمين، وعلى رأسهم غازي مصطفى كمال باشا. وتحتير الهند في الأمر، ونسب بدل علماء الأزهر بتصريح حول مسألة الخلافة.

هناك الكثير، دون ريب، من بحري وراء الكواليس. ونحن في الغرب لا نميل إلى الإسلام الذي بدأ يشيع في لندن بالإضافة إلى إفريقيا.

إن هذه الأوقات عصيبة حقاً لمن سيحكم البلاد، لكن ليس هناك من يتفوق على أحقية حسين بالسلطة.

كان طول الملك حسين خمسة أقدام وبوصتين وكان يتمتع في الستين من عمره

(١) هذا غير صحيح، ومعلومات المؤلف تعوزها الدقة في بعض مواضع كتابه.

بالعافية والقوة والطموح، على نقيص ما كنا نراه من أبناء الصحراء الجنوبية الذين يقاربونه في العمر. وكان أدل ما فيه على القوة واللباقة بدء الرقيقتان الجميلتان اللتان تشبهان أيدي الفنانين الموسيقيين.

أما فيصل فهو اليوم قبله آمال العرب، وكان يعتقد اعتقاداً جازماً أن قومه في حاجة ماسة إلى الاستعانة بالأوروبيين والأميركيين في الناحيتين العلمية والصناعية، وكان لا يذخر وسعاً في إدخال التبديلات المهمة لقلب جزيرة العرب وصبغها بالصبغة العصرية.

وفصل - كآبئه، صاحب شخصية قوية شجاعة، لولاها لما استطاع أن يوحد بدواً يستسلمون منذ أجيال للأحقاد وتاكل الضغائن قلوبهم وتقضي على كياناتهم. وفصل هو الذي قام بقيادة الثورة العربية منذ بدايتها فكان مقاتلاً ثم مساعد قائد ثم قائداً للجيش. كان لا يملك رجالاً غير البدو، وكانوا يعيشون التجربة البغيضة لإطلاق المدفعية لأول مرة في حياتهم. كان على فيصل أن يقودهم في حملات على الجمال. ويعلمهم الانسحاب وكان يدافع عنهم في أماكن جبلية ضيقة بندقته فحسب. في ذلك الوقت لم يكونوا يملكون سوى القليل من البنادق، ومقدار قليل من الذخائر الحربية، حتى إن لورنس كان يحتال بوضع الأحجار في صندوقه ويحمله على أحد الجمال ليدخل الثقة في قلوب البدو بدفعهم للاستيصال في القتال والاطمئنان لوجود الذخيرة الكافية.

يعتقد لورنس أن لدى فيصل مجموعة من الصفات تؤهله لأن يتسلم قيادة الدولة العربية الجديدة التي قد تنهض من بين رماة الإمبراطورية العثمانية الزائلة. كما يعتقد أن فيصل سيحتل مكانة في التاريخ مباشرة تحت مكانة النبي محمد وصلاح الدين، كونه أعظم عربي عرفته البلاد. كان ولا يزال العصب الرئيسي في الحركة العربية، وهو لا يعيش إلا من أجل وطنه ومبادئه. كان كل تفكير، محصوراً في مستقبل جزيرة العرب، وكان وأبوه منفتحين لاكتساب مزايا الأوروبيين، وقد فُهِل أن يكون المستشار البريطاني أشقر الشعر أميراً عربياً وشريفاً عني مكنة، وهو لقب كان مقتصرأ في الماضي على أحقاد النبي فقط، ولم يُمنح لأي إنسان مسلم أو مسيحي من قبل.





الكويتيل لوديس

الفصل الثلاثون

لورنس يهرب من لندن

وفيصل يغدو ملكاً في بغداد

احتفى لورنس بعد أن انتهت جلسات مؤتمر الصنح، وعاد فيصل إلى دمشق! وظن كثير من أصدقائه أنه عاد إلى جزيرة العرب ليستأنف دوراً جديداً من أدواره الغامضة. ولكنني أرتاب كل الارتباب في صحة هذا القول، ففي آخر مرة تحدثت إليه في باريس سأنته بصراحة إذا كان ينوي العودة إلى الشرق لمساعد العرب في بناء دولتهم الجديدة، فكان جوابه بالتقي إذ قال: «لا أتوي العودة إلا بعد مرور عدة سنوات، وقد لا أعود إليها أصلاً، وإنه خير للعرب أن لا أكون في بلادهم في مثل هذا الوقت العصيب، وليست لدي أدنى فكرة عما سأفعله. لقد أنهكتني الحرب وقد أستغرق سنوات عدة حتى أَلُمُّ شتات نفسي. في الوقت نفسه أأمل في إيجاد مكان منعزل في إنكلترا بعيد عن الحرب والسياسة والدبلوماسية، حيث يمكنني أن أقرأ عن اليونان دون أن يزعجني أحد».

كان عزمه على عدم العودة للشرق دليلاً جديداً على بُعد نظره، فإن العرب قد انصاعوا للورنس في إبان الحرب نظراً لشخصيته المحمّزة، لكن السبب الأقوى في انقيادهم إليه هو لأنه قدّم لهم بديلاً عن الاضطهاد التركي. وكان لورنس أعلم الناس حسب ما بهذه الحقيقة، وكان على يقين أنه متى انتهت الحرب العالمية ستتضاءل مكانته. قد يتساءل الإنسان ماذا يحدث لو عاد لورنس إلى الشرق الأدنى؟ وماذا ستكون النتيجة لو أنه تبوأ منصباً سياسياً مؤقتاً معادلاً للمنصب السياسي الذي احتله في جزيرة العرب؟ من المحتمل أن وضعه سيكون جيداً لبعض الوقت بفضل ما كان

له من نفوذ واسع، لكن بعد بضعة أشهر لن يستبعد سماع أحدهم يصيح: «اغرب عنا أيها الكافر!». نو أنه عاد إلى دمشق بصفته مستشاراً لفصيل، فمن شأن هذا وحده أن يضعف سيطرة فيصل على شعبه. إن العرب غيورون ومزاجيون وشكاكون بطبعهم، وسيتممون فيصلاً بأنه مجرد العوية في يد الإنكليز. ولو كان لورنس قد اعتنق الإسلام لكان في مقدوره أن يكون ديكثانوراً عربياً يتسلط كما يشاء على العرب، لكن ذلك كان أبعد مما يخطر في باله. كان عرضه الوحيد أن يهزم الألمان والأتراك، وفي الوقت ذاته أن يساعده أصدقاؤه العرب على نيل حريتهم.

وقد سمعت من كثيرين أثناء انعقاد مؤتمر الصلح أن لورنس خير رجل يمكنه تمثيل بريطانيا العظمى في الشرق الأدنى، وأن الحكومة البريطانية لا بد أن تبعه إلى سوريا وجزيرة العرب في عمل رسمي. ولكن كانت رغبة لورنس الوحيدة في ذلك الحين أن يخلع الرداء الرسمي، وأن يترك حياته انتياسية واثورية، وأن يعود إلى أعمال الحفر والتقيب عن الآثار.

سألت ذات يوم نوري باشا، وكان من رجال الأمير فيصل في باريس، عن كيفية مكافأة العرب للكونويل لورنس على الخدمات التي قام بها لبلادهم، فأجابني: «نقد قدّمت للكونويل لورنس كل ما نملك فأبى أن يقبل شيئاً. وإنما على استعداد تام، إذا قبل، لأن تمنحه حق احتكار أعمال الحفر والتقيب على الآثار في مدن الجزيرة والمدن السورية كلها». ونكس لورنس كانت له أعمال أخرى!

مرّت عدة شهور بعد انتهاء جلسات مؤتمر الصلح، ولا يعرف أحد مقر لورنس، حتى أقرب الناس إليه. وفي تلك الأثناء كنت قد عدتُ إلى أميركا لأعرض التسجيلات التي انتهيت من عملها بمساعدة مستر تشايس. لكننا دُعينا، على غير المتوقع، لتقدّم عرضاً في دار الأوبرا في لندن، وهو أمر لم نكن لنحلم به أبداً، لأن مادنا كانت مخصصة لأميركا فقط. كان أول شيء سمعته إليه فور وصولي إلى إنكلترا هو البحث عن الكونتويل لورنس. أردتُ أن أعرض عليه صورة عودة أبو تايه وغيره من الفرسان الأبطال ليري منظرهم عن الشاشة البيضاء. فسألت عنه في الدوائر الرسمية التي

أكدت جهلها مكان إقامته. يبدو أنه قد اختفى في المجهول تماماً كما كان يفعل في
البادية. ولكن حدث بعد مرور أسبوعين على عرضي الفيلم أن تلقيت منه الرسالة
الموجزة الآتية:

«عزيزي لويل توماس،

شاهدت العرض الليلة الفائقة، وأحمد الله لانطفاء الأنوار.

ت. إ. لورنس».

ولكنني اكتشفت مكان الرجل الذي تسمى لندن بشغف إلى تكريمه! إنه يقم في
غرفة مفروشة متواضعة في شارع جانبي من دوفر مسريت. كانت ربة الدار نفسها
تجهل هويته، لكنه لم يكن يستطيع الاختفاء أكثر من ذلك. وبعد أيام قليلة جاء ليشرح
القياسي عندي. وكما كانت ارتباك، وخجله عظيمين عندما رأى روجني. ثم أخذ
يتوسل إلي أن أكف عن تحديث الناس بأعماله البطولية وأن أعود إلى أميركا. لقد
مُنبت له متاعب لا يمكن أن يتحملها، فقد أصبح طريد جيوش من محرري المجلات
والمراسلين وناشري الكتب وطلاب الإحصاءات، وبعدد من القتيات والنساء اللاتي
كان يخشاهن أكثر مما يخشى استخبارات الجيش التركي. قال إنه، خلال الأسبوعين
اللتين أمصتهما أتحدث عنه في لندن، قد تلقى حوالي ثمانية وعشرين عرض زواج
بالتبريد وكان أغلبها من أوكسفورد.

عندما جاء لزيارتي لاحظت أنه كان معه كتابان، كان أحدهما مجلد قصائد فارسية،
وكان الثاني، كما هو ظاهر من عنوانه، آخر كتاب في العالم يخطر في بالك أن يقرأه
هذا الشاب الذي لُقّب بملك العرب غير المتزوج، والذي حقق ما لا يمكن لسلطان أو
خليفة تحفيقه في أكثر من خمسمئة عام، والذي رفض أعلى التشرiffs والأوسمة من
أعظم الحكومات في العالم، والذي وُضع في مرتبة الأشراف، والذي سوف يخلده
التاريخ كشخصية من أروع الشخصيات في العالم بأسره. كان الكتاب يحمل عنوان:
«مذكرات رجل يائس».

لكن عندما اتته لورنس إلى احتمال سفري الوشيك إلى أميركا، وعندما اكتشف أنه ملاحق من قبل كونتيسة إيطالية تضع ساعة معصم في كاحلها، سارع بالفرار من لندن. لم يمض وقت طويل حتى فقد الأمير فيصل ملكه في سوريا، وكانت هناك دعاية كبيرة قام الفرنسيون بها حتى يشوا الإنكليز عن مساندتهم للمقضية العربية. لذلك، وبالرغم من استقالة لورنس واعتزائه العمل السياسي، فلم يكن بإمكانه التخلي عن الدفاع عن فيصل. ودون أن يظهر شخصياً، بدأ بكتابة مقالات إلى الصحف البريطانية ميرزا الجانب العربي في الصراع. وسوف أورد شيئاً من هذه المقالات علماً نعطي فكرة واضحة عن مرونة هذا الشاب وثمكته من استخدام انظمته ببراعة تماماً كقيادته للجيش ببراعة.

يكتب لورنس: «هناك شعور في إنكلترا بأن الاحتلال الفرنسي لدمشق وإطاحتهم لفيصل من العرش الذي كان السوربون قد سأموه إياه بطوع إرادتهم، بُعد مقيلاً مزياً للعطائب التي قدمها لنا فيصل خلال الحرب، وإن فكرة خذلان صديق شرقي لنا يترك طعماً مرّاً في أفواهنا. لقد جعلت شجاعة فيصل وقيادته الحكيمة الثورة في مكة تنتشر إلى ما هو أبعد من المدن المقدسة، إلى أن قدمت مساعدة كبرى لقوات الحلفاء في فلسطين. وإن الجيش العربي الذي أنشئ على أرض المعركة قد بدأ بجماعة من البدو وانتهى بفرق عسكرية منظمة ومسلحة. لقد أسمر العرب خمسة وثلاثين ألفاً من الأتراك، واستولوا على مئة وخمسين مدفعاً ومئة ألف ميل مربع من الأراضي العثمانية. كانت تلك خدمة كبيرة لنا وشعرباً بأننا مدينون للعرب، ومدينون لقائدهم فيصل بالكثير لوفائه لتعليمات النبي التي كان يقود جيشه العربي وفقها.

«مع ذلك لا يمكننا أن نتقدم ما فعله الفرنسيون، إذ اتبعوا بأسنوبهم الوديع القتال الذي قمناه في بلاد الرافدين. نسيطر إنكلترا على تسعة أجزاء من عشرة من الوطن العربي، وهي التي وصفت المُنح الذي يجب أن ترقص عليه فرنسا. إذا اتبعنا سياسة عربية فلا بد لفرنسا أن تصبح عربية. وإذا خائنا العرب فلا بد أن يقاتلوا العرب بدورهم. وسيبدو من قلة اللباقة أن نوتخهم إن هم خاضوا معركة قرب دمشق أو نسعوا مطلب

العرب في حكم سوريا حكماً ذاتياً، بينما كنا نحن نخوض معركة قرب بغداد ونحاول منع بلاد الزاقدين من تشكيل حكومة ذاتية، وذلك بسحق أي رأس يرتفع من بين أبنائها»

كانت بريطانيا تمرّ بأوقات عصيبة في بلاد الزاقدين في الوقت نفسه اندي أطاح به الفرنسيون بفصل من العرش في سوريا. وكان نورتن يشعر بأنه لا بد من وضع مواهب فصل في بغداد، وكان هذا المقال طريقة دبلوماسية لتقديم خطة تم فيما بعد تبنيها وتطويرها.

بنايع نورتن: «قبل بضعة أسابيع، طلب من رئيس إدارتنا في بغداد أن يستقبل بعض الوجهاء العرب الذين كانوا يرغبون بالاستقلال الذاتي الجزئي. فما كان منه إلا أن رتب المفاوضات بمرشحين من عدده، وأخبر الوجهاء بأن الوقت لا يزال مبكراً ليتسلّموا مسؤولية كهذه. كانت كلمات جريئة، لكن العبء كان ثقيلاً على رجال مانستسر هذا الأسبوع في الحيلة Hillah.

كانت الانتفاضات تحدث بشكل نظامي وبدأت بشائر نجاح عربي ثم أخذت القوات البريطانية تخرج في حملات تأديبية. كانت تخرج إلى هدفها فتفجره بالسفعية والطائرات أو السفن الحربية. أخيراً تم إحراق قرية وهدأت المنطقة من الغرب أتنا لا نستخدم الغاز السام في هذه الماسبات، وكان قصف المنازل طريقة غير منظمة لقتل النساء والأطفال، وكان مشاننا يتعرضون للموت وهم يطلقون الرصاص على العرب. أما بواسطة الغاز فيمكن القضاء على كل المناطق بسهولة، ولن يكون من الناحية الأخلاقية، أموا من الأسلوب الذي تتبعه حالياً.

إنساندرك انعب الذي يسكنه الجيش في بلاد الزاقدين على الخزينة الملكية، لكننا لا نرى العبء الواقع على البلاد نفسها. يجب إطعام الناس والدواب هالك. كان عدد القوات يبلغ ثمانية وثلاثين ألفاً، بينما تكفي الحصص لثلاثة آلاف. كان هالك ثلاثة عقال لكل جندي يقومون على إطعامه وخدمته. ينتمي عشر مكان بلاد الزاقدين اليوم لجيوشا. لقد استهنت الأراضى الخضراء ولم تصح الأمور في ذروتها بعد.

طُلب إلينا أن نضاعف أعداد الجنود في الحاميات، ومن شأن هذه الزيادة، مع استنفاد الموارد المحلية، أن تؤدي إلى تضخم النفقات بحسابات خيالية.

«كان الهدف من هذه القوات هو القضاء على العناصر الذين لم يكونوا يرغبون بوجودنا في بلادهم. لم يكن أحد ليتخيل حالنا لو هاجمتنا إحدى البلدان الثلاثة المتاخمة لبلاد الزاقيدين (وكانت كلها تحبك المؤامرات ضدنا). كانت اتصالنا سيئة ونشأت مواقفنا الدفاعية ولم نعد نثق بقوانا كما كنا نفعل أثناء الحرب.

«هناك أيضاً الأعمال العسكرية، إذ كان يتوجب علينا إنشاء مدارس ومعسكرات وطرق عسكرية لمئات الأميال، وجسور ضخمة لتثقل الشاحنات في مناطق نائية كانت وسيلة النقل فيها على ظهور الدواب فقط. كانت الجسور تُصنع من مواد مزقة، وكانت أجور صيانتها باهظة. كانت غير ذات فائدة للحكومة المدنية التي توجب عليها تقويضها بتكاليف مرتفعة، وبهذا استبدت الدولة الجديدة مهامها بديون مراكمة.

«كان رجال الدولة البريطانيون، من رئيس الوزراء إلى أصغر الموظفين، يذرفون الدموع على ما نتحمله في بلاد الزاقيدين. يقول اللورد كرزون⁽¹⁾: «فقط لو نستطيع تأسيس جيش محلي، لكنهم لن يخدمونا فقط لو نستطيع إيجاد أشخاص عرب مؤهلين لتسليمهم المناصب التنفيذية».

«بهذه الغلة في الكفاءات المحلية وضحت المقارنة في سوريا، فلم يكن من الصعب على فيصل تأسيس الفرق النظامية على الرغم من أنه سواجه صعوبات في الإنفاق عليهم. على كل حال لم تكن الظروف نفسها إذ كان قد حُرم من دخله من الجمارك. لم يجد فيصل صعوبة في تشكيل إدارته التي تكوّن أفرادها الخمسة الرئيسيون من سكان بغداد الأصليين. لم تكن إدارة جيدة لكن الناس في الشرق لم يكونوا متطلّسين كما هي الحال في بلادنا. حتى في أثينا، لم يعج سولون الشعب أفضل القوانين، بل منحهم ما يمكن أن يتقبلوه.

(1) انظر الكتاب الذي نشرته عنه في هذه السلسلة: «حياة اللورد كرزون» تأليف إيرن روثالداي.

«لم يكن بمقدور البريطانيين في بلاد الزنّافدين إيجاد شخص مؤهل واحد، وإن تاريخ
الشهور القليلة الماضية قد أظهر إفلاسهم السياسي، ورأيهم لن يهتدأ أبداً. أعرف عشرة
أشخاص بريطانيين ذوي سمعة مشرّقة في السودان وسيناء وجزيرة العرب وفلسطين
ممن يمكنهم تشكيل حكومة عربية موازية للحكومة فيصل الشّهر القادم في بغداد. قد
لا تكون حكومة ممتازة أيضاً، لكنها ستكون أفضل من حكومة فيصل بالتأكيد، الذي
حُرم من المستشارين الأجانب رغبة في إزالته. كان يمكن للحكومة البريطانية في
بلاد الزنّافدين أن تستعين بشخص يدير أمور البلاد بسهولة كما أدار كرومر الأمور في
مصر، ليس لأن إنكلترا امتحنه القوة فحسب، ولا لأن المصريين يحبّوننا. وليس لأي
سبب آخر سوى أنه إسان مؤهل. لدى إنكلترا الكثير من رجال الطبقة الممتازة، لكن
الوضع هناك لم يكن يتطلّب عبقرية، بل كان المطلوب هو تقويض ما قمناه به ثم البداية
من جديد بتقديم المستشارين. ثم يكن من الجيد ترفيع الوضع الراهن، بل نحن من
القوة بحيث نعترف بالخطأ ونفتح صفحة جديدة، ويجب أن يسرّنا ذلك لأنه سيوفر
عينا مليون جنيه أسبوعياً».

حتى أثناء القتال في الصحراء كان لورنس يرى العقبات التي يمكن أن تنشأ بعد
انتهاء الحرب، ولذلك كان، كما رأينا أثناء دخوله إلى دمشق، حريصاً على دخول
رجال الأمير فيصل قبل البريطانيين والفرنسيين، لأنه أدرك أنّ ذلك الأمر سيجعل من
الضعف تجاهل الحلفاء لأصدقائهم العرب بعد أن نهذاً القوضاء وأعمال الشغب.

كتب اللورد ونترتون مقالاً في مجلة بلاكفورد، مظهراً أن لورنس كان دائماً يفكر
بالمشكلة التي نشأت في الوقت الحالي، إذ يقول:

«يرأسي إنسا مديون بالكثير في تلك الأيام للقيادة الجيدة من قبل الجنرال نوري،
مدعوماً بتصانح لورنس وعبقريّة التفكير المستقبلي». ويضيف في موضع آخر: «لم
تكن لديه النّية في أن يحتل العرب المركز الأخير في انقضاء النهائي على الأتراك، فقد
كان العرب يعلمون أنّ هناك اعتبارات سياسية وعسكرية يجب أن تؤخذ بالحسبان،
لكن لورنس كان يعزّف على الوتر الحساس، لقد نقل إلينا جميعاً عندي حماسه،

وبدأت أشعر، بالرغم من عدم مبالي للمعامرة، أنه من التوحشية بعد سقوط الأتراك أن تحصل بريطانيا على الجسم والرأس والذيل. بينما يحصل العرب، الذين ساندوهم لمدة ثلاث سنوات ونصف، على جزء صغير من القدم. لو كنا موجودين أثناء النهاية العسكرية لتركبة، لكان من الأصعب رفض إعطاء العرب حصة كبيرة من غنائم النصر».

خلال سبع سنوات قضاها توماس إدوارد لورنس متجولاً في البادية تجرّع حكمة العرب ونشرب روح أبدو، وذلك بلبه للباسهم والعيش معهم في خيامهم ومراقبة عاداتهم والتحدث بلهجاتهم واستطاء جملة عبر مساحة واسعة من الأراضي الفقيرة التي لا يغير لونها سوى خط الأفق الأرجواني الطويل، وهي تقع في العتمة تحت قبة صامتة من نجوم السماء. لم يكن سوى ثقة من الغربيين تأثير عظيم على الشعوب الشرقية، أما لورنس فقد وجد القبائل المتفرقة في جزيرة العرب ودفع بزعماء تلك القبائل إلى نسيان الأحقاد، والقتال بعضهم إلى جانب البعض من أجل قضيتهم المشتركة. لقد أنه أسراب البدو من مناطق نائية من الجزيرة ونجعت حوله كأنه نبي، وبفضل عبقرية تسكن فيصل وأتباعه من تطهير بلادهم من جور الأتراك. لقد شارك لورنس بحياته وروحه في الحركة التي سعت إلى استقلال البلاد، وقدر لنتائج حملته المتأججة أن تلعب دوراً مهماً في التعديل النهائي لشؤون الشرق الأدنى.

ومن خلال اتصاله بالحقائق، عندما كان يحاول قولبة الرأي العام لصالح العرب، نلصق وجهات نظر أبعد، إذ يقول في رسالة إلى النابحر:

«لقد تمرد العرب على الأتراك ليس لأن الحكومة التركية سيئة فحسب، بل لأنهم أرادوا الاستقلال. إنهم لم يغامروا بحياتهم في القتال ليغيروا أسيادهم، ولبحسبوا تابعين للبريطانيين أو للفرنسيين، ولكن ليربحوا معركتهم الخاصة.

«سواء أكانوا ملائمين للاستقلال أم لا فذلك أمر يستحق المحاولة، والحورية لا تستوجب وجود المؤهلات، ويملكها البلغارويون والأفغان والتهانيون. إنك تستمتع بالحرية فعلاً عندما تكون مسلحاً أو مشاعراً أو تسكن في بلد بائس. بحيث تكون نفقات احتلاله من قبل الجوار أكبر من عائدات الفوائد المرجوة».

لم يكن الكولومبيل لورنس يتوقع قدرة العرب على التنظيم والإدارة. لقد كان يعلم أن ثلث الأمور ليست من نقاط القوة لديهم، لكنه يسلك إيماناً عميقاً بهم ويقدرتهم على إيصال رسالتهم للعرب.

قال لي ذات مرة عندما كنا في جزيرة العرب: «إن التاريخ يعاكس إمكانية إنشاء إمبراطورية عربية، والفكر التسامي لا يميل إلى النظام أو التنظيم. ومن المستحيل صهر العناصر المختلفة للتساميين في دولة حديثة منسوجة بعناية. ومن جهة ثانية فإن للتساميين خصوصية فكرية تفوق الشعوب الأخرى، وقد تمثلت لي الحركة العربية كشكل من أشكال نفوذ الصحراء على العنمدتين؛ أي أن الزوج التسامي قد مارست نفوذها من جديد على شعوب حوض البحر الأبيض المتوسط. يُعد الأمير فيصل آخر نسل للأنبياء التساميين، وإن حملته من أجل الاستقلال، التي جعلت أكثر من خمسة ملايين عربي في الشرق الأدنى ينضمون إليه، ما هي إلا كالألغامات التي أثر التساميون بها على العالم الغربي.

«لا يتصف التساميون ببراعتهم في الفنون أو الهندسة المعمارية أو الفلسفة. يوجد بعض المنانين أو الفلاسفة اليهود، لكننا نجد خصوصية بين التساميين في العقائد والأديان. لقد أصبحت ثلاث من هذه العقائد، وهي اليهودية والمسيحية والإسلام، حركات عالمية. وهناك عقائد أخرى أقل أهمية متشرة في أطراف البادية.

«في الصحراء تسود فكرة واحدة وهي عالمية الإله. وعندما أثبتنا استكشاف الصحراء لم نجد سوى الرمال والرياح والشراب والفراغ. يترك البدو كل وسائل الراحة ويذهبون للعيش في البادية، وسط التجوع والحرية. تطلب البادية ثمناً مقابل الحصول على أسرارها، وهي تجعل البدو عديمي القيمة بنظر سكان المدن. ثم يخرج من البادية نبي قط بينهما ثم يكن بين التساميين نبي إلا وذهب، قبل تبليغ رسالته. إلى البادية ليلتقط من سكانها بعض القيم. إن ثقافة الحياة الدنيا المذكورة في الأديان هي من ضمن مفاهيم الصحراء، تشربها البدو قبل أن تصبح مقبولة لدى سكان المدن».

كانت محبلة لورنس الواسعة ورؤيته لقرون مضت تسهل عليه زج نفسه قلباً وقلماً

في الثورة العربية. لقد تذكر الأبيام التي سادت فيها الإمبراطورية العربية على دول البحر الأبيض المتوسط، وأثرى فلاسفتها وشعراؤها وعلمائها حضارة أوروبا. قال لي مرة عندما كنا في لندن: «هناك بعض الناس الذين يحلمون ليلاً وعندما يستيقظون يجدون أحلامهم قد ذهبت هباء، وهناك أناس يحلمون نهاراً ويتحقق أحلامهم أحياناً». ولا يزال نورنس مقتنعاً بأن لدى العرب شيئاً يقدمونه للعالم، شيئاً يحتاجه العالم وبالأخص العالم الغربي المادي. لقد كان من حظ العرب أن امثلك نورنس المقدرة على تحقيق أحلامه.

أود أن أستعمل كلمات نورنس نفسها في تعريف الحركة العربية حين يقول: «ليس هناك سبب للتوقع من الحركة العربية أية تطورات في القانون أو الاقتصاد. تكن فيصلاً نحج في استعادة مبادئ الساميين الحيوية، وستترك أفكاره أثراً عميقاً على الحركات القومية المتنامية في سوريا وبلاد الرافدين والجزيرة وفلسطين. وهي الموضع الحالي للحياة السياسية السامية».

يشبه ذلك مشاهدة أمواج المحيط الأطلسي وهي تتقدم ثم تتكسر على جروف الساحل الغربي لأيرلندا. عندما تنظر إليها تقول إن الجروف قاسية جداً والأمواج عديمة النفع، لكنك عندما تدرس الغارطة ترى الساحل كله وقد نجوف بفعل مياه البحر وتُدرك أنها مسألة وقت فقط. بأنطريقة ذاتها فإن احتجاجات الساميين المتابعة ضد العالم المادي تبدو مضبعة لنوقت، لكن الأوضاع قد تنقلب يوماً ما.

«إنني أصتف حركات فيصل كاحتجاج على عدم جدوى الأشياء المادية، وكنت أحاول قلب الموجه التي وصلت إلى ذروتها وانقلبت عند دخولنا إلى دمشق. لقد كانت قلب العرب بحمد كبير ثم تنضم إلى الأمة ككل في سباقها إلى شيء مثالي ليس له شكل أو قيمة. كنا نعتبر عن احتقارنا الكامل للشعبي وراء الأمور المادية الذي يكرسه الآخرون من خلال جمع الأموال وتشييد الثمانيات».

عبر نورنس عن اعتقاده بأن الحركة العربية لم تكن سوى احتجاج على التدخل الخارجي، وفي هذه المرة كان الاحتجاج موجهاً ضد تركية، وفي السرة القادمة قد

يتجه نحو فرنسا وإيطاليا وبريطانيا أو أية أمة غربية تعيل لأن تردري مشاعر الشعوب الأخرى.

قال لي لورنس عندما كنا في البادية: «عندما تتمكن من فهم وجهة نظر عرق آخر، فإنك إنسان متحضر، وأعتقد أن إنكلترا لم تتورط كثيرها من الأمم، إننا لا نريد لشعوب الأخرى أن يصبحوا مثلنا أو يطبقوا عاداتنا، لأننا ننظر إلى هذا التقليد على أنه عمل شائن».

ولما كنا في باريس، نُحْصِ لي لورنس الوضع في الشرق الأدنى كله بوضع كلمات. كان يرى أن فرنسا، بسلمها الوصاية على سوريا، إنما تسيطر على مرحلة مؤقتة من مراحل الحركة العربية.

«منظمة الحجاز» خلال بضع سنين إلى دولة عربية ستقوم إلى السُمان منه. لطالما كانت دمشق قبله أنظار صنّاع القرار العربي، لكن سوريا صغيرة فقيرة ولا يُتَظَر أن تكون في المستقبل دولة زراعية أو صناعية عظيمة. يتجلى دورها في كونها مفتاح كردستان وأرمينيا والعراق، وعندما تعبد رذوس الأموان الغربية آشور وبابل إلى مجدهما القديم ورخائهما الزراعي السابق وعندما تُستغل خبرات أرمينيا المعدنية ويُتَفع بنفط العراق وخيصة النُعم، عندئذ يتحول مركز العرب من دمشق في الشرق إلى الموصل أو بغداد أو أية عاصمة أخرى. في العراق ثلاثة أضعاف الأراضي القابلة للزراعة مقارنة بمصر، وفي مصر اليوم أكثر من ثلاثة عشر مليون نسمة، بينما يوجد في العراق خمسة ملايين فقط. وفي المستقبل القريب سيزداد عدد سكان العراق إلى أربعين مليوناً، أما سوريا التي يبلغ عدد سكانها الآن ثلاثة ملايين وخمسة ألف فرما يكون فيها في المستقبل خمسة ملايين فقط. يبدو أن المستقبل الشرق لن يكون من نصيب سوريا، ولكن مهما تكن عاصمة الدولة العربية قلن تتغير الصحراء العربية بعقلية سكانها أو مُثلهم العليا».

بالرغم من رغبة لورنس في التقاعد، برفقة كته فقط، فلن يرضى مواطنوه بذلك. عندما احتل ونستون تشرشل منصب رئيس الوزراء، كان أول ما فعله هو إخبار

لوزنس على مساعدة الحكومة في حل مشكلات الشرق، فرفض ما تعمل لمدة سنة واحدة كمستشار للشؤون الشرقية، وفي أثناء هذه السنة نُحِلَّت معضلة العراق وفق الطريقة التي كان لوزنس قد اقترحها، فاستدعي فيصل إلى بغداد ونُصِب ملكاً على العراق ليكون خليفة حديثاً للخليفة المستهزأ هارون الرشيد. وعليه، قد يكون فيصل قد عرّض سوريا لكنه فاز بعرش بغداد. وأصبح مؤسساً لملك جديد في العراق وملكاً للدولة أهم بكثير من سوريا. وبذلك نجح لوزنس في تحقيق طموحه برؤية الأمير فيصل يكافأ على دوره الذي قام به في هزيمة تركيا وألمانيا.



«الشريف» لوزنس

الفصل الحادي والثلاثون

سر نجاح لورنس

من بين مئات الأسئلة التي كانت الصحافة وعامة الناس في كل مكان من العالم يسألونها إياها، تكرر كثير الأسئلة التالية: «ما هي الجائزة التي نلقاها لورنس؟ هل ينوي باليف كتاب؟ أين هو الآن؟ كيف يكسب لقمة العيش؟ ماذا يحصل له؟ ما هي هواياته؟ هل سيفكر بالزواج؟ هل هو إنسان عادي ولديه حس الفكاهة؟ في الواقع هناك سؤال أهم ألا وهو: ما سر نجاح لورنس، وكيف استطاع مسيحي أوروبي أن يمتلك هذا النفوذ الكبير على المسلمين المتشددين؟»

بالطبع هناك الكثير من العوامل التي تضافرت في نجاحه وأكسبته هذا النفوذ، ومكنته من كسب احترام العرب وأعجابهم وتقديرهم بل وولائهم أيضاً. لقد احترموه لأنه كان، بالرغم من صغر سنه، محققاً حكمة، وأعجوبوا به بسبب شهامته وقدرته على التفوق عليهم في أمور يعتبرون بها كركوب الجمال والرماية، وأيضاً بسبب شجاعته ونواضعه. كان يقودهم غالباً في المعارك وكان يُظهر شجاعة فائقة عندما يحدث القتال. لقد أصيب بعدة جراح لكنها لحسن الحظ لم تكن من الخطورة بحيث تعده عن العمل. في كثير من الأحيان كان بعيداً جداً عن القاعذة ليُلقى عناية طبية، فكانت جروحه تشفى من تلقاء ذاتها. أصبح العرب مخلصين له لأنه أكسبهم الانتصارات ثم عزاء الفضل كله إلى رفاقه. لقد أسفوا لكونه مسيحياً وقالوا إنها «مشيئة الله»، لكن البعض يعتقدون أنه أرسل إليهم من السماء حتى يساعدهم في التحرر من نير الأتراك. اختلط الغرب بالشرق بشكل ودي، تكن دون انسجام. في معظم مدن الجزيرة وسوريا،

الغرب بمانه الذي ينفقه، والشرق بحته لاختران المال. لكن الأمر كان مختلفاً في البادية والمناطق النائية، فإن البدو، الذين تجول أجدادهم في الصحراء لأكثر من أربعة آلاف عام، قاموا بالأجانب الفضوليين الذين لم يشبوا أنهم أصدقاء لهم، وهم ما يزالون ينظرون إلى الأوروبيين الضالين بشك عدائي، وبحقهم في نهيبهم. أما لورنس فقد كانت لديه رؤية دقيقة بعاداتهم المتعددة ومعرفة كاملة بالقرآن وتعاليم الدين الإسلامي، مما جعلهم يعاملونه بتسامح واحترام فلما يصدران عن الشعوب المتعصبة في الشرق الأدنى وبالطبع فإن درايته بعاداتهم وفوائدهم كانت لها أهمية كبرى في حل نزاعات العرق المتخصصة.

لنوصول إلى أهدافه، كان لابد لـلورنس أن يكون ممثلاً بارعاً، فقد اضطر إلى التخلي عن أسلوب انعيش الأوروبي بشكل كامل، ولو أدى ذلك إلى انتقاد مواطنيه وسخريتهم، وكان يظهر في المدن الكبرى التي يلتقي فيها الشرق بالغرب، كالقاهرة، وهو يرتدي لباسه الشرقي. سخر النقاد منه وقالوا إنه فعل ذلك لينال السمعة فقط، لكن كان هناك سبب أقوى من ذلك. كان لورنس يعلم أنه مُراقب بشكل مستمر من قبل الأشراف والشيوخ ورجال القبائل، وكان يعلم أنهم سيعتدون تجوله، حتى بين مواطنيه، بلباس الصحراء معاملة عظيمة لهم. أثناء الأيام الأولى التي قضيتها مع لورنس في القدس كان لا يرتدي سوى العبادة البدوية، ولم يكن يأبه لغرابه منظره داخل المدينة المقدسة إذ كان دائماً مستغرقاً في تأملاته التي تبعد مئات الأميال وترجع إلى مئات القرون. وعندما يزور فلسطين ومصر أحياناً وهو باللباس العربي، يكون قادماً إلى الرملة أو القاهرة بعد إحدى حملاته مباشرة، فكان يأتي إلى لمفر الرئيسي بملابسه نفسها حتى لا يضيع الوقت في العودة إلى الجنوب، حيث القاعدة في العقبة، لجلب زيته الرسمي.

أما في الصحراء فلم يكن يلبس سوى العبادة العربية، ولم يكن لينجح في أسلوبه المدهش لو أنه ضايق العرب بلبسه اللباس الأوروبي. ثم يكن من السهل عليه أن يحمل معه ملابس عندما ينطلق في الصحراء على جملة، إذ كان مضطراً للانطلاق بخفة وسرعة. في الحقيقة لم يكن يحمل معه سوى كمية من الخبز وقليل من التوابل وفربنة ماء وحبوب الكلور وفرشاة أسنان وبتدقبة ومسدس وذخيرة،

ومجلد أريستو فانس الصغير، كان للبندقية التي حملها في كل غزوة تاريخ حافل، فقد كانت من الأسلحة البريطانية لعادية التي استولى عليها الأتراك في اندر ديل، ثم قام أنور باشا بنزينا بصمجة معدنية مشغولة بالذهب وبقي عليها إلى فصل، مع تحيات أنور، أعطاه أنور للأمير فيصل في بداية عام 1916، أي قبل اندلاع ثورة الأشرف، كدليل على أن الأتراك قد ربوا الحركة، وأعطاه الأمير فيصل فيما بعد للورنس فحملها في كل جولاته. كان يحزّ ثلماً فيها عن كل تركي يقتله، بحيث يكون الثلم كبيراً للضباط وصغيراً للجند، والبندقية الآن بحوزة الملك في لندن.

لم يكن لورنس متحدثاً، ونادراً ما كان يتكلم إلا في حالات الضرورة كإعطاء التعليمات أو لطلب المشورة أو للإجابة على سؤال. حتى في حمأة القتال كان يشد الغزلة، وكثيراً ما كنت أجده في خيمته يقرأ في مجلة للأخبار بينما يصيح المخيم بالحركة والحماسة. كان شديد الخجل لدرجة أنه عندما كان الجنرال كلايتون أو أي ضابط آخر يمدحه، كان وجهه يحمر كالفتيات ويخفض رأسه ناظراً على قدميه.

قبل بضع سنين في كالكونا، قال لي الكولونيل الطيار نورين: «ولكن إن كان لورنس متواضعاً وخجولاً، فكيف تمكنت من التقاط كل هذه الصور له؟» أجبت قائلاً: «يجب أن أفسر الأمر إصافاً للورنس، فبالرغم من أنه سهل لنا مهمة التقاط صور ثابتة ومتحركة للأمير فيصل وعودة أبو تايه وغيرهم من القادة العرب، فقد كان يدير وجهه عندما يرى العدسة متجهة نحوه. لقد انتفطنا له صوراً كثيرة من الخلف، لكن بعد استخدام كل الحيل الممكنة أقنعت لورنس أخيراً بأن يدع تشايس بأن يلتقط له صورة في وضعية الجلوس في مناسبتين. بعد ذلك، كنت أعمد إلى لفت انتباه الكولونيل بأسئلة تخص رحلتنا إلى المدينة المفقودة، والتي صدق أنها هدفنا الرئيسي في زيارتنا إلى جزيرة العرب، فيقوم تشايس بسرعة بالتقاط عشرات الصور من زوايا مختلفة. كان لورنس من أهم شخصيات الحرب لذلك صممت على ألا أغادر الجزيرة إلا وقد حصلت على الصور التي أريدها. كثيراً ما كان تشايس يلتقط الصور دون أن يدري لورنس بذلك، وحتى عندما كان يستدير ليجد نفسه أمام العدسة ويكتشف الخدعة التي قناتها، يكون الأوان قد فات وانتهى الأمر.

بعد الآن إلى سِر نجاح لورنس في اكتساب تلك السيطرة الكبيرة على العرب بلبسه
لباسهم وإتقانه لأدق تفاصيل حياتهم اليومية، وشجاعته وتواضعه وبراعته وحكمته،
ومن المسلم به أن اكتسابه ثقة أحفاد النبي والقبائل البدوية سيكون في نظر مؤرخي
المستقبل إحدى أروع إنجازات هذا العصر.

وإن إنجازات لورنس جديرة بالتقدير إذا أخذنا بعين الاعتبار أنه منذ ألف وثلاثمائة
عام، أي منذ أيام النبي محمد، لم يدخل جزيرة العرب من المستكشفين الأوروبيين
سوى القلائد، بينما اتجه معظمهم إلى استكشاف أواسط أفريقيا. كان المسلمون
القاصون في مكة والمدينة وما حولهما بمنعان المسيحيين واليهود وغير المسلمين
من تدنيس التراب المقدس، وإن من يحرق على دخول هذا الجزء من الجزيرة يكون
سعيد الحظ إن خرج حياً. لذلك تعد إنجازات لورنس أمراً خارقاً للطبيعة عندما تذكر
أنه أقر بمسيحيته علناً. ومع أنه كان يلبس ملابس أشرف مكة، فلم يظهر بملابس
الشرقيين إلا عندما كان يخترق صفوف الأتراك متنكراً في زي امرأة محلية متقبة.

بالطبع كان الذهب الذي يدفعه لأفراد جيشه ذا أهمية كبيرة، ومع أن الأتراك والألمان
حاولوا استخدام الذهب أيضاً، فقد فشلوا إذ لم يكن بينهم من هو مثل لورنس، هذا
ما صرح به مستر فيليبي الذي كان ممثلاً للبريطانيين في الصحراء الوسطى.

نعم الكولونيل لورنس دور الرجل الغامض الذي بمقدوره أن يفعل كل شيء
بمهارة عالية، والتشوق على العرب في كل الأمور من الكفاءة السياسية إلى ركوب
الجمال، وحتى استخدام الفروق البسيطة في لغتهم الأم. في الواقع كان تعلم اللغات
سهلاً بالنسبة إليه، فإلى جانب لغته الأم كان يتحدث الفرنسية والإيطالية والإسبانية
والألمانية وبعض الهولندية والنرويجية والهندوستانية، واللغات المشتقة من اللاتينية
واليونانية، وبالتالي كان بإمكانه التعامل مع اللهجات العربية في الشرق الأدنى.

كان لورنس يحرم على ألا يدخل منافسة مع البدو إلا إذا كان متأكداً من التفوق
عليهم. لقد كسب أيضاً سمعة طيبة بأنه يفعل أكثر مما يقول، متأثر في أهل البادية الذين
كانوا يتحدثون دون توقف كخبران الهند. ولما كان لورنس يتكلم كان لديه شيء مهم ليفعله

وكان يعرف تماماً عن أي شيء يتحدث. نادراً ما كان يرتكب أخطاء، وعندما كان يفعل ذلك كان يعرض على أن يعدها العرب في النهاية من أسباب انتجاع. كان يعمل دون كلل وبكرم فائق، وكان يمضي الليل أحياناً في العمل بينما ينام رفاقه من العرب. كان كثيراً ما يتجول في الصحراء على جملة أثناء الليل المعظم حيث يضع مخططاته السياسية واستراتيجياته الدبلوماسية المستقبلية. كان قصيراً ونحيلاً لكنه يبدو وكأنه مصنيع من الفولاذ، ومع ذلك فقد تركت حرب الصحراء فيه أثراً لا تمحى منها ما أسرّ لي به أحد إخوته أنه منذ عاد من جزيرة العرب وهو يعاني من اعتلال قلبي حاد.

قال لي مرة عودة أبو نايه، وهو من أكفأ الناس في حكمه على البشر:

«لم أُرَ في حياتي رجلاً ينكب على العمل انكباب لورنس، ولم تر الصحراء رجلاً يحسن ركوب النجمال مثله، واني أقسم لك أنه لرجل فوق البشر».



لورنس يتباحث مع زعيم الوطنيين
في بغداد ودمشق

الفصل الثاني والثلاثون

فن التعامل مع العرب

كان الكولونيل لورنس يؤمن بالعرب وكان العرب يؤمنون به، لكنهم لم يكونوا ليخواجه ثقة عمياء لو لم يكن يتفن عاداتهم والمظاهر الخارجية لطبيعة حياتهم العريشة. سألته ذات مرة عندما كنا نسير في الصحراء عن أفضل طريقة للتعامل مع البدو في هذا الجزء من العالم. كان هدفي من السؤال أن أسمع منه بكنماته الخاصة التي تمكنه من فعل ما عجز عنه إلا قلة من الرجال. كنت واثقاً بأنه فهم أنني أحتاج إلى المعلومات من أجل تعاملتي الحالي مع البدو، ولو أنه شك لحظة واحدة في أنني أدفعه للكلام عن نفسه لغير مجرى الحديث فوراً.

قال لي: «قد يُعَدَّ التعامل مع العرب فناً وليس علماً، مع بعض الاستثناءات التي ليس لها قاعدة ثابتة. يطلق العرب أحكامهم وفق الأمور الظاهرية التي لا يبالى نحن بها، لذلك من المهم للغريب أن يراقب كل حركة يتحركها وكل كلمة يقولها أثناء الأسابيع الأولى من مرافقته لفريقه ما لا يمكنك أبداً أن تبدأ بداية سيئة بين البدو، لكنك عندما تنجح في الدخول إلى ديارتهم وتكسب ثقتهم فعلياً بإمكانك عندها فعل ما يرضيهم وما يرضيك في الوقت نفسه دون أن يعدوك دخيلاً عليهم. إن أهم نقطة في التعامل مع العرب هي دراستهم بشكل متواصل، وضع في حسابك دائماً ألا تنموه بكلمة غير ضرورية، وعليك بمراقبة نفسك ورفاقت بشكل دائم والاستماع إلى كل ما يدور واستنتاج كل ما يحدث، عليك أن تدرس شخصياتهم وتكتشف أدواقهم ونقاط ضعفهم، واحتفظ بكل ما تكتشفه لنفسك. اختلط معهم وأبقِ انصامك منصباً على

العمل ان الذي تقوم به كي تتمكن من إتقان دورك تماماً حتى تتجنب أية هفوات قد تبطل عمل أسابيع كاملة، ونجاحك يكون بمقدار ما تبذله من جهد فكري.

والمصور لي الأهمية التي يوليها البدو للمظاهر الخارجية، أخبرني أنه في إحدى المرات جاء إلى المنطقة ضابط بريطاني ونزل ضيفاً على شيخ قبيلة الحويطات، وفي الليلة الأولى جلس على البساط وقد مدّ ساقيه إلى الأمام بدلاً من أن يطويهما تحته على عادة البدو. ولهذا لم يلاق الضابط قبولاً بين الحويطات، إذ بعد البدو إظهار أطراف الأقدام بشكل علني من الأشياء القبيحة كما هو الأمر بالنسبة لوضع الأقدام على الطاولة أثناء حفل العشاء في بلادنا. انظر إلى ذلك البدوي ذي القذبة الكبيرة في وجهه الذي يسير وراءنا، إنه زعيم قبيلة شمر. غصّ الشيخ بالطعام وهو يتعشى مع ابن رشيد، حاكم شمالي الجزيرة الوسطى، فشرع بالخزي لدرجة أنه استلّ مديته وشرّفه بجهة الشريان النسماني في وجنته، فقط ليبري مضيف أن قطعة من النعم قد علقت في أخراجه.

من سوء التربية عند العرب أن يخصص الإنسان بالطعام، فذلك لا يظهر شراعه فحسب بل يُعتقد أنه من عمل الشيطان. ومن الأمور المستحسنة لدى البدو ألا يستعملوا الشوكة والسكين أبداً بل يتناولون أنواع الطعام المختلفة بأيديهم، ومن سوء الأدب أن يأكل الإنسان بيده اليسرى.

لا يسمح البدوي الأصيل بأية تجاوزات أو إهمال لعادات الصحراء عند حكمه على العريب، إذالم تنقن الآداب البدوية، فأنت غريب وقد تكون دخیلاً من الأعداء. كان تنقن لورنس للعرب ومقدرته على فعل الأمر المناسب في الوقت المناسب، شيئاً غير عادي. بالنظر اسم يكن ليمكن من العيش كعربي في جزيرة العرب لو لم يدرس تاريخ أسرة جميع الأشخاص المرموقين في البادية، بالإضافة إلى القائمة الكاملة لأصدقائهم وأعدائهم. كان يفترض به أن يعرف أن والده هذا المرحل قد شُتق أو أن والدته هي مطلقّة شيخ مشهور. وكان من الغرابة أن يستفسر عن الدرجة لـ ما إن كان محارباً مشهوراً، وكذلك أن ينسب امرأة مطلقّة إلى زوجها الأسبق. عندما كان لورنس

ينبغي الحصول على أية معلومات كان يسلك الطريق غير المباشر، وكان يحوم حول الموضوع دون أن يسأل أسئلة مباشرة. لحسن الحظ لم يرتكب لورنس أية أخطاء قبل الحرب بالنسبة للحركة القومية العربية أو للحلفاء، وفي إحدى المرات نُصِبَ شيخاً عنى قبيلة في بلاد الزاندين.

قال لورنس: «من المهم جداً لمن يريد التعامل مع العرب أن يتحدث بلهجتهم المحلية، لا بالعربية الذارجة في بعض أنحاء الجزء الشرقي من البلاد. وإن أضمن خطوة هي أن تكون رسمياً في البداية لكي تتجنب التورط في الحديث». يتحدث معظم الضباط الذين يتعاونون مع العرب في الثورة باللهجة المصرية، لكن البدو يزودون المصريين ويعدونهم ذوي قرابة بعيدة، لذلك وجد الضباط المرسلون من قبل الحلفاء للتعاون مع أهل الحجاز أنفسهم يُعاملون بفتور. فقد نجح الحلفاء في كسب تأييد العرب لأن لورنس استطاع أن يبلور فكرة نيل الاستقلال عن الأتراك بشكل محدد، ولأنه نعت بتميز استثنائي أهله لتقبل بين معظم القبائل.

كان لورنس هو المسؤول الرئيسي عن وصول حسين وابنه فيصل وعبد الله إلى الملك. كان يؤمن بأن أفضل طريقة لثقوبة قبائل الصحراء والقضاء على أحقادها الذموية هو تأسيس حكومة من الطبقة الزاقية. لم يكن هناك شيء كهذا في جزيرة العرب من قبل، لأن البدو انشروا الأدنى يمتنعون بحرية مطلقة ويرفضون الاعتراف بسلطة تفوق سلطانهم. لكن العرب كنهم يكتون احتراماً خاصاً، وعلى مدى قرون، لأحفاد النبي، فحاول لورنس إقناع العرب بالاعتراف بحكم الأشراف واستغل بذلك أن عائلة حسين تصل في نسبها إلى النبي محمد نفسه.

منذ الأزل، لم يكن لشيوخ القبائل سلطة على أفراد القبائل الأخرى. أما الأشراف، الذين لا ينتمون إلى أية قبيلة، فكانوا قادة لسكان مكة والمدينة والمدن الكبرى فقط. ينبغي على الشريف أن يكون رجلاً متحلياً بالشرف، بحسب معنى هذه الكلمة في اللغة، ولطالما قدر سكان مكة والمدينة الشريفين حسين و فيصل عائلاً وكانوا يدعونهما بـ «سيدي»، أما بدو الصحراء فقد كانوا يدعونهما ببساطة بـ «حسين» و «فيصل» دون

آية ألقاب. لكن لورنس تمكن من إقناعهم بأسلوبه الخاص باستخدام لفظة «سيدي» للأشراف. لقد نجح في ذلك نجاحاً باهراً بحيث أطلق عليه البدو لقب نفسه بعد بضعة أسابيع نعتي وصدق تقديرهم له بالرغم من كونه غريباً ومسيحياً.

يعطينا المقدم فيكري، أحد قواد الجيش النظامي والذي لعب دوراً مهماً في الحملة وأصبح بعدها العميل البريطاني في جدة، يعطينا لمحة حية عن الحياة اليومية للشريف. كان فيكري أحد الفلّاتل من الأوروبيين الذين زاروا الطائف، العاصمة الصيفية للحجاز، وهي مدينة ليست بفداسة مكّة أو المدينة، لكنها مكان لا يعرف الناس عنه شيء الكثير.

يقول: «كان الظلام قد حلّ نما وصلنا وكان الطقس شديد البرودة، دخلنا غرفة الضيوف، وهي شقة جميلة أرضها مغطاة بسجاد عجمي فاخر، ووسادات كبيرة، جاء مضيفنا وبكل لباقة قبل كل واحد منا على وجتيه ودعا الله أن يباركنا، ورجانا بأن نعد أنفسنا في منازلنا. جلست ساعة من الزمان شرب القهوة والشاي المحلي والسجائر، ونحن نشاهد منظرأ شرقياً لم تغيره القرون. لم يكن الشريف قد تغيب سوى يوم واحد، لكن جرت العادة بأن يهتته الجميع بعودته من رحلته سالماً. كان الأقرباء والأصدقاء والخدم يدخلون الغرفة بين الفينة والأخرى بعد خلع أحذيتهم عند الباب، أما الخدم فكانوا يدخلون بسرعة فيتحنون ويقبلون يد الشريف ثم يخرجون بسرعة. أما الأتباع فكانوا يدخلون على مهل فيقبلون ظهر يد الشريف ثم يديرونها ليقبلوا ما بين الإبهام والسبابة ويخرجون بهدوء.

«ولما دخل الأصدقاء نهض الشريف وأظهر تمنعاً خفيفاً لتقبلهم يده ثم قبل وجنتهم مع التلطف بالتحية. أما بالنسبة للأقارب فكان ينهض أيضاً ويقبلهم ويقبلون يده ثم يضمّهم إلى صدره بحرارة داعياً لهم بطول العمر والسعادة».

لقد أدى احترام سكان المدن والقرى للأشراف إلى إحساس خاص لدى عرب المدن بالمسؤولية والتشريف، وهذا بالطبع ساعد لورنس كثيراً في تأسيس حكومة للطبقة الزاكية في الحجاز. ويفضل حس المسؤولية هذا تمكّن وأصدقاءه من توحيد

القبائل المتخاصمة وإيجاد رجال يمكن أن يكونوا قادة تابعين للملك حسين والأمير فيصل وإخوته. ومن أجل تنفيذ هذا الأمر كان على لورنس أن يكسب أولاً ثقة كل القبائل المتخاصمة، ثم، وبهدوء، يجعلهم يعتقدون أن الفكرة فكرتهم ويحثهم على نسيان خلافاتهم السابقة والانحد تحت قيادة حسين وأبنائه والأشراف الآخرين. لطرده الأتراك ومساعدة الحلفاء على الانتصار في الحرب، أملاً في استرجاع الخلافة ومجد إمبراطوريتهم القديمة.

كان على الملك حسين الاعتماد كثيراً على ولاء القبائل في قوته الحربية. أما أتباعه الخاصون من البدو فكانوا من قبيلتي حرب وعتيبة، وقبيلة أخرى أقل شأنًا هي جهينة. كانت هذه القبائل الثلاث تحتل أرضاً واسعة تشمل ثلاثة أرباع الحجاز وطرفاً من غرب نجد. وداخل حدود الحجاز إلى الجنوب والغرب كانت هناك ست قبائل صغيرة هي هذيل وبني سعد والبقوم Buqum ومطير وثقيف والجحادة Juhadiah. وإلى أقصى الجنوب هناك مجموعة من القبائل القوية هي المظهور Dhaur وحسن Hasan وغامد Ghamid وزهران Zahran وشهران Shahran، التي تشكل بالتحامها أفضل قوة قتالية متوافرة في الحجاز نفسها. وقد أرسلت كلها فرقاً لمساندة الملك حسين.

أما من الجهة الشمالية لنبلاء فقد أتت بتعزيزات من ثلاث قبائل تابعة للعثمانيين. انضمت قبيلة بليي Billi أولاً، الواقعة إلى الشمال من جهينة، ثم تبعها العظيمة والحويطات. كان لقبيلة الحويطات، التي تجوب المناطق الواقعة بين رأس خليج العقبة والطرف الشمالي للبحر الميت والجزيرة الوسطى، أعداء كثر وأحفاد دموية وخلافات أكثر من غيرها، وأفرادها عنيدون مشاكسون لا يتفادون بسهولة ولا بهابون شيئاً. وكانوا لا يتحدثون فيما بينهم، فما بالك مع غيرهم؟ وأنشئ الوحي المشترك بينهم هو الجراح ونفس العلامات القبلية على جمالهم. ولهذه القبيلة فرعان هما ابن جازي وأبو تايه، التي شيخها هو عودة أبو تايه، روين هود البدوي. لكن عودة زعيم بفضل شجاعته وإقدامه فقط ولا يوجد فرد من القبيلة يهتم للخضوع إلى أية سلطة.

كانت هناك حرب مستمرة بين فرعي القبيلة لسدة خمسة عشر عاماً إلى أن نجح

الشريف لورنس في توحيدهما تحت راية حسين وفصل بهدف طرد الأتراك من البلاد. مع ذلك رأى لورنس أنه من الأفضل إبقاء كل فرع في جزء مختلف من الجيش حتى لا يفضوا على رقاب بعضهم البعض. وكان الثوريان مستعدين لإطاعة أوامر لورنس طالما أنهما منفصلان، وعندما كانا يلتقيان كانت كلمة الشرف تمنعهما من البدء بالشجار. يعدّ عودة أبو تابه وقومه أن الذروز، الذين يشنون أقصى حرب في الصحراء، من الد أعدائهم، وكان لورنس يضطر في كثير من الأحيان إلى استخدام القوة لمنعهم من قتل بعضهم البعض بدلاً من قتل الأتراك. في عام 1912، أسر خمسون من هجانة عودة ثمانين خيلاً درزياً في المعركة، وهذا دليل واضح على كفاءة رجال الحويطات القتالية، إذ يكون الخيال في العادة معادلاً لرجلين على الجنائ، لأن الحصان يستطيع المناورة بسرعة أكبر. منذ تلك الحادثة والذروز متحفزون أملاً في مباغنة الحويطات وهزيمتهم. وبالنزاع من تمرّد قبيلة الحويطات، فقد غدا أفرادها بقيادة عودة أبو تابه من أفضل القوات المقاتلة في غرب جزيرة العرب، وكان الكولونيل لورنس يعدّهم العمود الفقري لجيشه الصحراوي.

ربما كان نسب القطارات هو أروع عمل أمضى به لورنس وقته، لكن لياً من أعماله لا يفرق توحيد القبائل العربية أهمية. بالنسبة إليهم كانت العارات على القبيلة المعادية هي شغلهم الشاغل وتسليتهم الوحيدة. وكم كان صعباً أن تأتي بزعمين متخاصمين إلى خيمة الأمير فيصل ليعلنا صداقتهما ووقاءهما، وبشبه ذلك أن تطلب من أحد أثرياء وول ستريت التخلي عن ثروته للتبوعين.

لتصوير دقة المشكلة إليكم المثال الآتي: في شهر يونيو من عام 1917، كنا نحصر اجتماعاً في ماحة قصر الأمير فيصل في العقبة، وهو بناء ذو طابق واحد يشبه المباني الإسبانية. كان واقعاً في بلدة صغيرة تحدها أشجار التخل، وهي البقعة الخضراء الوحيدة وسط بحر من الرمال، حيث كان في القديم ميناء الملك سليمان العظيم. كان ثلاثون من الأشراف والشيوخ جالسين في دائرة حول الأمير، كلهم من زعماء القبائل البارزين، ومن بينهم ستة من شيوخ ابن جازي الحويطات. وهجاة نمحت تغيراً في

وجه الشاب الإنكليزي لورنس الذي وقف على قدميه وانسل يهدوء من باب الباحة. رأيت يتحدث مع جماعة من العرب كانوا في طريقهم إلى اندخول ثم قادهم في اتجاه آخر. وعندما سألته لاحقاً عن سبب خروجه السريع أخبرني بأن المحاربين الذين كانوا عند الباب هم عودة وابن عمه محمد وبعض من رجال أبو نايه، ثم أضاف قائلاً إنه لو دخل عودة وصحبه إلى باحة القصر فإن معركة دامية كانت ستدور أمام عيني الأمير وقد ينتج عنها تقويض القوات العربية برمتها.

إلى أن أصبح لورنس قائداً مسلماً به، بقي على اتصال دائم بملك الحجاز وأبنائه الأربعة وبالأخص الأمير فيصل. لقد عاش مع الزعماء وأكل الطعام معهم واشترك في أحاديثهم داخل الخيام، وكان يرى أن إسماء التصح بشكل مباشر ليس له التأثير المرجو، بل من الأفضل تمرير الأفكار خلال المحادثات اليومية. يكون العربي على مسجته أثناء تناوله لوجباته ويخوض في أحاديث ودية عامة، وكلما كان لورنس يرغب في القيام بحركة جديدة أو شن غارة أو الاستيلاء على بلدة ما كان يطرح الفكرة عرضاً وبشكل غير مباشر، وقبل مضي نصف ساعة كان ينجح في إلهام أحد الشيوخ البارزين ليقترح الخطة ذاتها، وعندما يتمسك لورنس بالفكرة ويدفع الشيخ إلى تنفيذها قبل أن يخبر حكامه.

في إحدى المرات، كان لورنس يتعشى مع الأمير فيصل وبعض القادة في مكان قريب من العقبة. كان الزعماء العرب يعتقدون أنه من الأفضل الاستيلاء على درعا، الواقعة عند التقاء الشبكة الحديدية على بعد مئات الأميال بجهة الشمال، جنوبي دمشق. كان لورنس يعلم أنه من الممكن الاستيلاء على درعا، لكنها لا يمكن أن تصمد لمدة طويلة من الزمن، لذلك قال: «إنها فكرة رائعة حقاً، لكن دعونا أولاً تناقش التفاصيل». ومن ثم عقد مجلس شوري. وكلما استمر النقاش في المسألة كانت الحماسة لها تخبو. وفي الحقيقة فقد شعلت عزيمة انقادة العرب، حتى إنهم اقترحوا الانسحاب من المركز الذي كانوا يحتلونه آنذاك. اقترح لورنس بلطف أن انسحاباً كهذا قد يغضب الملك حسين كثيراً، شيئاً فشيئاً أو حتى إليهم بالمضي في الخطة الأصلية بالاستيلاء على العقبة. وهي هدفه الحقيقي.

كما أمر لي لوزنيس عندما كنا نحضر استشارة للزعماء العرب، فقال: «الجميع جتريالات في الجيش العربي، بينما يُسمح للجندال في الجيش البريطاني بأن يقرّ الأمور وفق هواه، أمّا هنا، في جزيرة العرب، فكل رجل يرغب في المشاركة بصنع القرار».

إنّ الأشراف والقبووخ العرب أناس عبيدون ولا يزعجهم أكثر من أن يسير أحداً ما إلى أخطائهم. إذا قلت: «هذا هراء»، يدير العربي ظهره لك ويحجم عن مساعدتك، ولهذا لم يرفض لوزنيس أيّ مخطط يقُدّم إليه، مع أنه كانت لديه السلطة لفعل ذلك، لكنه كان يوافق على الخطة المقترحة ثم يوجّه الحديث ببراعة بحيث يعدّن العربي نفسه الخطة وفقاً لما يريد لوزنيس الذي يعلنها فوراً أمام القادة العرب قبل أن يتسع المجال لمصاحبتها بأن يغيّر رأيه. كان يقوم بذلك بطريقة دقيقة دون أن يشعر الشخص للحظة واحدة بأنه قد ضُغط عليه.

لو أنّ لوزنيس وزملائه عملوا وحدهم دون مشورة الأشراف لكانوا ربما حققوا أهدافهم في نصف المدة، لكن لوزنيس حرص على عدم إصدار أوامر مباشرة. إلى أن أصبح قائداً أعلى برغبة العرب أنفسهم الذين أخذوا ينظرون إليه وكأنه رجل خارق. حتى اقتراحاته ونصائحه للأمير فيصل، فكان يحتفظ بها إلى أن يخلو به. ومنذ بداية الحملة ولوزنيس بنى سياسة عدم محاولة فعل الكثير بنفسه، متذكراً دائماً أنها حرب عربية، بل كان في بعض الأحيان، عندما تقتضي الضرورة، يعزّز أهمية القادة العرب لدى أتباعهم على حساب مركزه هو. من ناحية أخرى، تُعزى هزيمة الأتراك والألمان إلى محاولتهم التعامل مع العرب بطريقة مباشرة قاسية.

كلّما كان شريف أو شيخ يأتي للمرة الأولى ليضع نفسه في خدمة الملك حسين، كان لوزنيس والطباطبائيون الحاضرون يخرجون من خيمة الأمير حتى انتهاء شكليات أداء قسم الثعالب. كانوا يفعلون ذلك لأنّ الشيخ القادم قد يرتاب بالامر إذا وجد أن الأمير يولي بعض الأجانب ثقته. وفي الوقت نفسه كان لوزنيس يسعى لاقتراح اسمه بأسماء الأشراف، وحينما كان يذهب كان يُنظر إليه على أنه المتحدّث بلسان

فيصل. كان يقول: «ضع الأمير أمامك كالزابة وأخف شخصيتك وأفكارك وراءها». لكن لورنس كان يحرص على عدم البقاء عند قبيلة واحدة مدة طويلة لأنه لم يرغب في أن يفترون اسمه بقبيلة معينة وأحقادها اندفينة. والبدو كانوا يترددون في إطلاعه على أماكن وجود الآبار والينابيع والأماكن الإستراتيجية. لكن لورنس أفتنهم أن صنع الخرائط ضرورة تكل رحل مثقف، وأصبح عودة أبو نايه والكثير من الشيوخ مهتمين بالخرائط، ندرجة أنهم كانوا يقون لورنس مستيقظاً طوال الليل وهو يساعدهم في رسم خرائط. ثم تكن نها أية قيمة حرية ولم تكن تشير اهتمامه بحال من الأحوال.



صانع الملوك

الفصل الثالث والثلاثون

لورنس الإنسان

على الرغم من أن لورنس كان يُدعى لنيل كل وسام تقلّمه الحكومتان البريطانية والفرنسية، فإنه كان يفرّ منها على جُفلة أو بالطائرة أو بأية وسيلة نقل سريعة متوفرة.

أرسلت الحكومة الفرنسية رسالة إلى مندوبيها في جزيرة العرب تطلب إليه تسليم الكولونيل لورنس وسام صليب الحرب باليد. كان الكابيتين پيزاني Pisani، قائد القوات الفرنسية في العقبة، متلهفاً على جعل المراسيم ذات طابع مهيب، وأراد أن يُخرج الفرق البريطانية والفرنسية والعربية في عرض عسكري حتى يتمكن من إلقاء خطاب مديح ملانم، ثم يقدم الوسام للورنس ويقبله في وجته. فلما سمع لورنس بذلك ولّى هارباً إلى البادية، وفرّ بعدها عدة مرات من الكابتن الدؤوب، الذي ذهب يائساً إلى الميجور مارشال، رفيق لورنس في الخيمة، فما كان منه إلا أن يصحه بتطويق المخيم ذات صباح عندما يكون لورنس في العقبة، وأخذه على حين غرة. انظر پيزاني وفرقه إلى حين عودة لورنس، ثم ظهر أمامه بكامل مظهره الرسمي وحاصره ثم تلا وثيقة مؤثرة، تروي كيف أمضى لورنس أياماً دون طعام أو ماء وكيف تفوق على الأثرak وهزمهم.

في نهاية الحملة، عندما رجع لورنس إلى أوروبا مخلفاً مارشال في الجزيرة، أرسل إلى شريك خيمته بطلب منه شحن أغراضه من العقبة إلى القاهرة. لم يكن لورنس يشرب الكحول أو يدخن، لكنه كان مغرمًا بالتشوكولاتة، وكان هناك عشرات من العنب الفارغة المكوّمة في زاوية الخيمة مع كتبه، بالإضافة إلى أجهزة قياس الزوايا

وشداد جعل وبرايميل ذخيرة وبقايا مدافع رشاشة. وفي إحدى علب الشوكولاتة الفارغة وجد الميجور الوسام الذي أعطاه إياه الكايتين بيراني، فوضعه في حقيته، وعندما جاء لوزنس لمقابلة الأمير فيصل والمفاوضين العرب في مرسيليا، أخرج الميجور مارشال بالقاء خطاب يذكر بأعمال الكولونيل الرائعة في فرنسا ثم قلده وسام صليب الحرب.

عندما زار دوق كونوت فلسطين ليمنح الجنرال آلبي وسام صليب فرسان القديس جون، كان ينوي منح وسام آخر للمورنس، لكن القائد الشاب اختفى فجأة وذهب ليفجر قطارات الأتراك. أرسلت الطائرات للبحث عنه كما أرسلت رسائل إلى مختلف المضارب البدوية تسأل إذا كان أحد ما قد رأى الشريف لوزنس فليخبره بضرورة الحضور إلى القدس. وذات يوم، بينما كان لوزنس يتمشى عند حدود الأتراك غير مبالي بالعدو، كان الاحتفال في القدس قد انتهى وعاد دوق كونوت إلى مصر. كان زملاؤه في إدارة الاستخبارات يعلمون رفضه الغريب لأي نوع من المبادرات أو الأوسمة الحربية، فأغروه بالحضور إلى القاهرة وفق حجة مقنعة، وحال وصوله قام ملازمٌ بكشف الشر وإطلاعه على الأمر، فلما كان من لوزنس إلا أن توخه فوراً إلى شركة طيران هليوبوليس. دون أن يتظر لأخذ برّته وأعراضه من فندق شيفرد، واستقل أول طائرة عادت به إلى جزيرة العرب.

لم يكن لوزنس يكره الأوسمة فحسب، بل كان يتجنب لبس الأشرطة التي يملكها. يقول عنه الكايتن فرديناند توهي عندما كتب عن «الفيلق الشرقي»: «لقد منح الكولونيل لوزنس وسام Companionship of the Bath لقاء خدماته. كان مرشحاً لنيل وسام صليب فيكتوريا، لكنه لم يحصل عليه بسبب عدم وجود ضابط أعلى رتبة منه يشهد على أعماله البطولية، وهي أربعة واهية إذ كانت هناك عشرات الطرق لكشف أعماله البطولية». وفي الواقع، لم يحضر لوزنس أبداً لتسلم الوسام كما طلب من زملائه التجاوز عن المطالبة بوسام صليب فيكتوريا. ولا ننسى أنه كان قد تنحى عن رتبة الجنرال عندما كانت قواته الجناح الأيمن في جيش آلبي، أي عندما كان برتبة عقيد.

لقد رفض أيضاً لقب المفارِس، ولما سأله عن السبب قال: «لأنني أصبحت من طبقة
الفرسان لسمع خياعي بذلك وضاعف فتورتي. يكفيني غناء تسديد ما عليّ تسديده
الآن».

حسب علمي كان هناك شيء واحد يبغيه لورنس من الحرب، وهو شيء لم يحصل
عليه أبداً. سألته مرّة عن شيء يشتهي به يمكن أن يُشترى بالمال لكنه لم يتمكن من فعل
ذلك، فأجاب بلا تردّد جواباً يظهر بساطته وإنسانيته: «كنت أتمنى لو أحصل على
سيارة من نوع «رولز رويس» شريطة أن تكون مزوّدة بإطارات ووقود يكفيني بقية
عمري». كانت تلك السيارة التي يحلم بها تدعى (الضباب الأزرق) «Blue Mist»
كان يستخدمها أثناء غاراته لتخريب الشكك الحديدية حول دمشق، لكنها أصلحت
بعد الحرب وغدت للاستخدام الخاص للجنرال ألنبي في مقره بالقاهرة.

كان البعض ينتقدون لورنس لرفضه تسلّم أوسمة الشرف الممنوحة له، لكن
الحقيقة هي أنه لم يرفضها لمجرد أن يبدو غريب الأطوار. مُنح قبل الحرب مثلاً وسام
المجيدية من قبل السلطان التركي، لأنه كان قد أنقذ حياة بعض الألمان أثناء عملهم
في الشبكة الحديدية الواصلة بين برلين وبغداد عندما كان سكان المنطقة يهتجون
بالفتك بهم. وبعد قيام الثورة العربية بقليل، بينما كان لا يزال في القاهرة، تلقى عدة
أوسمة حرية من بينها وسام جوقة الشرف فقبلها. لكنه كان يرفض الجوائز التي كانت
تمنح له لقاء أعماله في جزيرة العرب، لأنه كان يعلم أن الحلفاء سيجدون من الصعب
تلبية مطالب العرب بعد انتهاء الحرب وتحقيق النصر، ولن يفرّوا بالتزاماتهم أيضاً تجاه
زعماء الحجاز. كان يدرك جيداً أن الفرنسيين مصممون على الاستيلاء على سوريا.
وعرف أنهم لن يسمحوا للعرب بالاحتفاظ بدمشق، ولهذا لم يكن يبالي بقبول أي
مقابل على قيادته لحملة مبنية على وعود لن يستطيع الحلفاء الوفاء بها، ربما كان
سيغيّر رأيه لو علم أن الأمير فيصل سيصبح ملكاً على بغداد بعد فقدانه العرش في
سوريا، ولكن في نهاية الحرب لم يكن أحد يحلم بأن يكون فيصل مؤسساً لمملكة
جديدة في مدينة هارون الرشيد بعد إجلاء الفرنسيين له من دمشق.

أما الشرف الوحيد الذي قبله نورثس وسُرت به كثيراً فهو منح زمالة الكلية أول سولز All Souls' College في أوكسفورد. تُمنح هذه الزمالة للأشخاص المتميزين بإنجازاتهم العلمية، ولم يكن عددهم يتجاوز العشرين، يكونون عادة من الشباب الذين ينجحون أعمالاً علمية أو أدبية، نذكر منهم على سبيل المثال المورّد كُرزون. كان هذا اللقب متميزاً، إذ يترافق بمنحة فخرية ومسكن في الكلية بشكل مكاناً مبهجاً للتقاعد. لم يكن هناك عمل خاص يُطلب من صاحب اللقب لكن يجب أن تتوفّر فيه أمور ثلاثة: أولها أن يكون أيقناً فآخر الشباب، وثانيها أن يكون متحدثاً لبقاً، أما ثالثها فأن يكون من ذوي خمر البورت. عندها أضاف لورثس قائلاً: «أما ثابتي فهي بغصة، وأما الطلاقة في الحديث فأن أفل الناس شأناً فيها، وأما الخمر فلم أدفها في حياتي. ولا أدري كيف تمكنت من بل هذا الشرف!»

بعد انتخابه في All Souls، قسم لورثس وقته بين الكلية وزيارة منزل أحد أصدقائه في وستمنستر يعرف بـ «المنزّل ذو الباب الأخضر»، وهو نُزلٌ صغير بساه في غابة إيسنغ Epping. قال يوّاب الكلية إنهم لم يكونوا يعلمون متى يحضر، ولم يكن يتناول الطعام مع الزملاء الآخرين وكان النور يبقى مضاء في غرفته طوال الليل. كان منهمكاً في كتابه عن جزيرة العرب دون شك، لكنه كان ينجح معظم كتاباته في المنزّل ذي الباب الأخضر حيث شغل غرفة كانت فيما مضى مكتب مهندس معماري. كان أحد أصدقائه قد أعطاه لباس طيار له أطراف من القرو كان ينسسه في أيام الشتاء حيث يرد إنكلترا القارس، ويجلس في الغرفة الكثيفة بدوّن قصة تجاربه في جزيرة العرب.

أثناء رحلاته إلى أوكسفورد كان يحمل مخطوطته في حقيبة سوداء صغيرة كنتك التي يستعملها موفدو اليك في لندن. ذات مرة، بعد أن اجتاز البوابة إلى الحنضة في محطة بادغتون، وضع الحقيبة على الأرض للحظة وذهب لشراء جريدة، وعندما عاد كانت الحقيبة قد اختفت. لم تكن تحوي على النسخة الوحيدة من مخطوطته الثمينة فحسب، بل كان فيها دفتر مذكراته الذي صحبه طوال حملته في الصحراء ووثائق تاريخية مهمة لا يمكن تعويضها. رأته بعد عدة أيام وأخبرني بقصة الحقيبة، لكنه كان يضحك وهو يقول: «لقد قرّ علي التنازل عناء كبيراً، وإن سرقة الحقيبة أمرٌ جيد إذ

وقر على العالم كتاب حرب إصافي^٤، لم تزل الحقيقة أو سمع بها أبداً بعد ذلك، وكان نورنس يعتقد أن الشارق قد رعى الأوراق في نهر التايمز، الذي خاب أمله بعد أن كان يحلم بغنيمة أفضل. لكن أصدقاءه أقنعوه بكتابة الكتاب من جديد، ومن أجل أن يعم بالوحدة هذه المرة، بعداً عن أعين المعجبين في الكلية، تطلع في القوات الجوية الملكية تحت اسم «المجدد» (برايت) روس^٥، ولكن حتى هناك لم يتمكن من إخفاء شخصيته الحقيقية وأفسى أحدهم النشر في صحيفة لندن، ووجد نفسه محطاً لأنظار من جديد. كان قبل أسابيع قليلة قد وافق على بيع حقوق النشر مقابل مبلغ كبير من المال. لكن عندما ذاع أمره رفض العقد وترك القوات الجوية واتصل بكل المحررين راجياً منهم أن يتركوه يعيش بسلام، ومن بعد ذلك اختفى ثانية.

كانت إحدى هوايات الكولونيل لورنس هي طباعة الكتب بنفسه، وكان يحب الكتب البجداسة كما كان لديه مكتبة من المجلدات المخطوطة النادرة. وفي أطراف غابة إيبينغ Hipping، على بعد عشرة أميال تقريباً من لندن، بنى كوخاً صغيراً له واجهة تشبه الكنيسة حيث وضع آلة طباعة يدوية، وعندما أنهى كتابه عن جزيرة العرب قام بعمل ست نسخ منه فذم بعضها لأصدقائه وبقيت نسخة واحدة في مكتبة المتحف البريطاني داخل القبول لمدة أربعين عاماً، ولم يستطع أحد إقناعه بنشرها. كان من بين من قرأها من أصدقاء لورنس الأدباء زديارد كينغ وجورج برنارد شو وآخرون، وأعلن أحد الكتاب المشهورين أنه بعدُها «هرم الأدب الإنكليزي».

كان لورنس يتمتع بموهبة في الكتابة وأسلوب خاص به، وكان منفرداً في كتابته لكل شيء يقوم به. منذ أن وضعت الحرب أوزارها وهو يكتب مقالات رائعة وكتب مقدمة لنسخة جديدة من كتاب "Arabia Deserta" وأجمع الكل على أنها أضافت قيمة حقيقية لهذا العمل الأدبي. لكن العمل الأكثر نيشراً كان كتاب "Travels in Arabia Deserta" لنشارلز داوتي وعنه يقول لورنس: «إن في كل كتب رحلات المشرق نقصاً ما. أمّا كتاب داوتي فهو الكمال بعينه؛ بذاته قوة وأسلوبه رائع، لكنه يتطلب قارئاً متمكناً حتى يستطيع استيعاب كلماته وعباراته».

لكن كتاب داوتي نفذ من المطبعة عدة سنوات، وكان من العسير الحصول على نسخ منه. يضيف لورنس: «إن كتاب داوتي صائب وبسيط لأنه عمل أدبي، وإن شخصية متر داوتي لا تقبل الجدل، وبفاجأ المرء عندما يعلم أنه رجل حقيقي. إن هذا الكتاب لا يمكن أن يحمل تاريخاً ما، وهو لا ينل أبدأ ولا يمكن الاستغناء عنه للاطلاع على أحوال العرب في البادية، لكنه نادر جداً ولهذا لم يقرأه كثير من الناس».

ولهذا اقترح إصدار نسخة جديدة من مجلدين على أن تباع بسبعة جنيهات، وهي نصف المبلغ الذي يطلبه التجار مقابل نسخ عن الطبعة الأصلية. كان داوتي، الذي أصبح مسنّاً الآن، قد كثر من سنوات من حياته لكتابة الشعر لقاء مرتب ضئيل، لذلك كان لدى لورنس ثلاثة أسباب على الأقل ليرى نسخة جديدة قد نُشرت وهي: أن يتعرّف العامة على الأدب القديم، وزيادة دخل صديق له وسلف لامع، ويُقدّم خدمة شخصية لإنسان يشعر بأنه مدين له بالكثير.

يقول داوتي في مقدمة الطبعة الجديدة: «نقدتم طلب إعادة طبع الكتاب، ونُفذ هذا الأمر بناء على اقتراح من صديقي المتحيز توماس إدوارد لورنس، قائد القبائل البدوية تحت لواء قبصل، أمير مَكَّة، وقد فعل ما لم يتمكن من فعله سواء إذ سار بجيشه من جدة، مينا، مَكَّة، واستطاع إنهاء النزاعات القبلية والعداوات الدفينة لتلك القبائل لتتحد ضمن جيش التصر ضد الحكم التركي المستبد في تلك البقاع، كما أنه قدّم خدمة جليلة لبلاده وحلفائها وأنجز المشروع العظيم من بلاد المشرق مجتازاً مناطق شاسعة من الصحراء العربية».

لم تكد النسخة الجديدة تغادر المطبعة حتى نفذت كلها، ونُمت طباعة نسخ أخرى وتحقق طموح لورنس بتقديم شيء لداوتي وضمان تداول أفضل لعمله الأدبي. ولا ننسى أن مبيعات الكتاب قد ازدادت بفعل كتابة لورنس مقدمة خاصة له يعزو فيها كبير الفضل للزحانة العظيم الذي مهد الطريق لمن خلفوه في ارتياد الصحراء، وإن هذه المقدمة تعطينا فكرة واضحة عن مهارة لورنس الأدبية، ولقد كتب ما يلي: «إن الرافعة هي من أهم ما يميّز الكتاب، فقد حاول داوتي أن يخبرنا بحقيقة ما شاهده. لقد

أحب العرب كثيراً وتأثر بجاذبيتهم وانعزالهم واستغلا لبتهم، وحاول إبراز فضائلهم لكن دون إخفاء أخطائهم. إذا عاش المرء مع الأعراب، فسيمتلك شعوراً بالبادية لا يزول أبداً. لقد اختبر حياة البداوة بنفسه وصوّر لنا الحقيقة بالألوان. لقد روى لنا كل الحوادث والعقبات والمشاعر التي واجهها ووصف الساميين بقوتهم وضعفهم والتناقضات في أفكارهم، التي تثير فضولنا في أول لقاء لنا معهم.

«إذا حاولنا سبر غور هذا الشعب، فعلياً أن نعيش في مجتمعه ونرى صلابته معتقداته التي ننقُرنا أحياناً. ليس لدى الساميين أنصاف حلول في تصوّراتهم وهم شعب يألوان أولية، بالأخضر الأبيض والأسود، وهم لا يفهمون تعقيداتنا الميتافيزيقية، ولكن هناك حقيقة أولاً حقيقة، اعتقاد أو لا اعتقاد، دون وجود درجات بينها.

«بالإضافة إلى التّصوّر الأسود والأبيض لدى الشعب السامي، فإنّ تكوينهم الداخلي هو كذلك أيضاً. كما أنّ أفكارهم تنحّ نحو طرفي نقبض ويبدو أحياناً أنهم جميعاً متنافرون، فهم يرفضون المصالحة ويمضون في أفكارهم إلى نهاياتها اللامنتظية دون أن يلتفتوا إلى التضارب في نتائجها. تجدهم يتأرجحون في أحكامهم وآرائهم بهدوء ورباطة جأش، وكأنهم لا يدركون طيش ما يقومون به».

إن طلاقة لورنس في اللغة الإنكليزية أمرٌ يثير الإعجاب، ويعود السبب حتماً إلى قراءته للأعمال الأدبية ومعرفته باللغات القديمة والحديثة. تحد مفرداته أكثر غنى من مفردات أيّ أستاذ مثقف ولديه قدرة وصفية فائقة كما لاحظنا عند وصفه لموت صديقه طلال الحريدين في طُلس.

ولورنس رجلٌ يحتقر المال ويعيش عيشة الفقر، مع أنه عندما كان في الصحراء كان له رصيدٌ غير محدود، وكان بإمكانه أن يسحب من الحكومة البريطانية مئات الآلاف من الجنيهات. وكان من المألوف أن تراه يحشو عشرة آلاف جنيه ذهبي في كل جهة من الخُرَج المحمول على بعيره وهو يسير بهذا المبلغ الضخم وليس معه في الصحراء كلها سوى نحو عشرة من البدو! وفي ذات يوم سحب لورنس من الميجور سكوت ستمئة ليرة إنكليزية «لشراء بعض الأشياء». كان الميجور سكوت يضع صناديق الذهب

في خيمته بمركز رئاسة الجيش في الغفبة، وسمع الميجور مينارد الذي كان يتولى الأعمال بالنيابة عن الميجور سكوت وطلب وصلاً بالمبلغ. فلما سمع لورنس بهذا الخبر استغرق في الصّحك ثم قال: «سأكتب له وصلاً»، وربما كان هذا هو الوصل الوحيد الذي وقّعه. أمّا الرسائل التي كانت تأتيه إلى الصحراء فكان يقرأها عادة ثم يحرقها دون أن يكلف نفسه عناء الرد عليها.

كانت رحلة لورنس إلى الشّرق غريبة ومليئة بالتجارب، وكان مولعاً بالسّجاد الشّرق في الدرجة أنه اشترى بعضاً منه أثناء تجواله. تجدد على أرض خيمته في الغفبة قطعتين جميلتين كان ينام على واحدة بينما كان رقيقه، الميجور مارشال يستخدم سرير التخيم. إحدى السّجّادتين موجودة الآن في منزل السيدة أنثي والأخرى لدى مارشال. ذات يوم، في سوق جدّة، رأى لورنس حلاًفاً جالساً على سّجادة صلاة أعجبه وكان فيها ثقبان يغطّر ثلاثة أو أربعة بوحسات، لذلك قدّمها الحلاق له مقابل جنيتين وقبل لورنس بشرائها. ولما أخذها معه إلى القاهرة قيمها لدى تاجر سجاد مصري مشهور فقال إنها تساوي سبعين جنية بعد ترميمها، فأرسل لورنس إلى الحلاق ورقة نقدية بقيمة خمسة جنيات. وفي منزل والدته في أوكسفورد كان لديه كومة من السّجاد والبسط الشّرقية لا تزال مغطاة بتراب الشّرق. وصادف أن تزوّج صديق للعائلة أثناء غياب لورنس فأرسلت والدته إحدى السّجاجيد كهدية زفاف، وعندما عاد الكولونيل أخبرته بالفضّة وتعلّلت بأنها اعتقدت أنها لا تساوي الكثير. فقال لورنس: «إن تلك السّجادة التي أهديتها كلّفني مئة وسبعة وأربعين جنية». لكنه لم يزعج كثيراً ونسي أمرها فوراً.

بعد انتهاء السّنة التي عمل خلالها لورنس كمستشار للشرق الأدنى في مكتب الكولونيل، غادر العمل ووجد لنفسه متفذاً آخر لطافته الرّائدة. لقد التقى بضابط عسكري لديه دراجة نارية لم يكن يستطيع التّحكم بقيادتها، فاشترىها لورنس وأخذ يجوب عليها أنحاء إنكلترا كما كان في السابق يقود سيارة البلو ميست "Bluc Mist" في الصحراء العربيّة.

عندما كان لورنس طالباً في جامعة أوكسفورد، قطع عهداً مع صديق له بأن يتصل أحدهما بالآخر إن حصل لهما أمر مهم ليحتفلا به معاً. وفي عام 1920 أبرق لورنس إلى صديقه قائلاً: «تعال على الفور، لقد فعلت شيئاً». كانت تلك أول رسالة يتبادلها الاثنان منذ أيام الجامعة، ولما وصل الصديق أطلعه لورنس على الإنجاز الذي يستحق الاحتفال، إذ كان قد أنهى بناء كوخه الصغير في طرف غابة إيبينغ Hipping واشترى بضع بقرات.

تعد غابة إيبينغ نوعاً من المحميات الطبيعية، وفيها قانون يحظر تشييد الأبنية الثابتة. وبعد أن أنهى لورنس بناء كوخه أتى رجال البوليس وأخبروه بأنه قد انتهك القانون لأن منزله كان بناءً ثابتاً. فما كان من لورنس إلا أن اشترى بعض الأنطلاء ورسم أربعة دوايب تمويهية على جوانب الكوخ. لم تعد السلطات تزججه بعدها، لكن حدث حريق بعد مدة أتى تقريباً على كل ما يملك.

أما مصير لورنس في المستقبل فالعلم عند الله وحده⁽¹⁾، لكن هناك أمراً مؤكداً واحد هو أنه لن يسمح لبلاذنه بأن تبرزه كبطل، لكنه قد يعيش ليرى الأثر الذي أحدثه هناك في الصحراء بشكل قوة جديدة مهمة في الشرق. نتيجة لحرب التحرير العربية، التي لم تكن حبراً على ورق، ونتيجة لحملة ألباني في فلسطين وسوريا، نشأت ثلاث دول عربية جديدة هي مملكة الحجاز تحت سلطة الملك حسين، ودولة الأردن المستقلة بزعامة الابن الثاني لحسين، السلطان عبد الله، ومملكة العراق في بلاد الزافدين حيث اعتلى عرشها الابن الثالث لحسين، الملك فيصل. لقد كان حلماً للثلاثة بمساندة من الابن الأكبر لحسين، الملك علي الذي ورث عرش أبيه في مكة ليؤسس ذات يوم المملكة العربية المتحدة.

كانت الأمور معونة على الملك فيصل، وكان الكولونيل لورنس قد لعب دوراً بارزاً في جعله أعظم زعيم عربي في زمانه، لكن مهام فيصل جسيمة، وهو المثل الأعلى في نظر شعبه. هل سيكون من القوة بحيث يحافظ على مركزه في بغداد ويبقى الشخصية

(1) كانت وفاته في أوكسفورد بعد حادث دراجة آلية في 19 مايو من عام 1935.

القيادية في العالم العربي؟ إن الأحداث تتحرك بسرعة الآن في الشرق الأدنى، وإذا تمكن الملك فيصل بقوة شخصيته المثيرة أن يستمر في محور النزاعات القديمة بين قبائل ومدن الصحراء، وقد ساعده لورنس في ذلك بشكل كبير، وإذا كانت دول الغرب مستعدة لإرسال مهندسي الشكك الحديدية والتعميدات الصحية وتعميدات الري والمستشارين السياسيين والعسكريين التزيهين، والمساهمة بإنشاء المدارس وتقديم الدعم المالي، عندها سيعود مجد بابل إلى بلاد الرافدين، وسيكون مستقبل فيصل وإخوته هو مستقبل جزيرة العرب. ولا يستطيع أحد معرفة نهاية القصة⁽¹⁾.

مع ذلك هناك أمرٌ مؤكد هو أن فيصل، كسلفه هارون الرشيد، هو ملك عادل ورحيم، لكن لو لمساعدة الشاب لورنس لما كان يحكم بغداد اليوم، ولما أصبح شقيقه عبد الله سلطاناً على الأردن، ولما سُنحت الفرصة للعرب ليطلبوا بالملك حسين خليفة لهم. كان هذا الشاب هو الذي قضى على الأحقاد الذموية التي يرجع تاريخها إلى ألف سنة، وهو الذي أمس الجيش العربي، ونظم الحملة من الوجهة الحربية وقاد الجيوش العربية، واكتسح الأتراك وردّهم ألف ميل عن مكة ودمشق، وكان الدماغ المفكر للثورة العربية، ودخل أسواق دمشق دخول الطائر المنتصر، وأتمس حكومة للأمر فيصل في عاصمة عمر وصلاح الدين، أقدم مدينة في العالم. ولم يكن لورنس ليوفق إلى هذه الأشياء وغيرها لو لم يُخلص للشرق والمشرقيين، ولو لم يحب سكان الصحراء محبة أتاحت له الفوز التام في السياسة الشرقية ومكنته من إحراز ثقة الشعوب العربية.

لم يكن في مخيلة لورنس، عندما كان يدرس آثار الفينيقيين، أن يلعب يوماً ما دوراً رئيسياً في بناء إمبراطورية جديدة بدلاً من تجميع قطع متناثرة لملكة بائسة مدفونة تحت الأرض. كتب الكابتن توهي Tuohy في مذكرته الموجزة عن «الميلق الشرقي» يقول: «ربما لم يسبق لمهنته المليئة بالمغامرات مثيل في هذه الحرب ولا في أية حرب أخرى».

(1) زالت مملكة الشريف حسين بتولي آل سعود السلطة في الجزيرة، وزان ملك انملك فيصل في سوريا (1918-1920)، ثم انتهى حكم أسرته في العراق (بعد حكم دام 37 سنة) بمقتل حفيده الملك فيصل الثاني بن غازي في بغداد عام 1958. ولم يبق من أعقاب الشريف حسين في الحكم اليوم سوى أحفاد الشريف عبد الله في المملكة الأردنية الهاشمية.

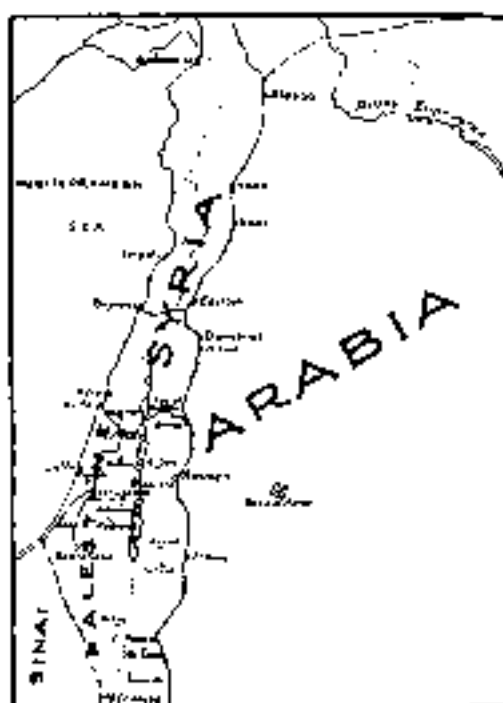
هذه صفحة خائذة من تاريخ شاعر ومفكر في الثامنة والعشرين من عمره وحصل إلى الصحراء العربية في فبراير سنة 1916 لينظم جيشاً بصحبة ثلاثة مرافقين فقط. لا أستطيع تصور مهنة أشق من مهمتهم، فلم يكونوا يملكون المال ولا وسائل نقل سوى بعض الجمال ولا وسائل اتصال سوى راكبي الجمال. كانوا يحاولون إنشاء وتجهيز جيش في بلد ليس فيه صناعة، بل ينتج القليل من الغذاء والأقل من الماء. في بقاع عديدة من جزيرة العرب كانت أماكن وجود المياه تبعد عن بعضها مسافة خمسة أيام على ظهر الجمال، ولم يكن هناك قوانين تساعدكم، وكانوا يحاولون أن يخلقوا جيشاً من رجال القبائل البدوية الذين امتلأت قلوبهم بالأحقاد منذ مئات السنوات، من البدو الذين يتقاتلون في سبيل الحصول على مياه الشرب وهي سبيل التسابق إلى المراعي وسلب الجمال، هم قوم عندما يلتقون في الصحراء يتبادلون إطلاق الرصاص وفق مبادئ الكياسة الشرقية.

تختلف أوروبا تماماً عن آسيا في العادات وطريقة التفكير، وربما تمرّ منه سنة أخرى قبل أن تنجب أوروبا رجالاً آخرين يستطيعون فهم العرب واتباع عاداتهم من أمثال ماركس يولو البنديقي، وأنجنرال تشارلز غوردون، وبأنطيم نوماس إدوارد نورنس الفارس العربي الحديث.





خريطة تمثل جزيرة العرب وبلاد الشام وتركيا



خريطة تفصيلية لبلاد الشام

فهرس الكتاب

5	سلسلة رواد الشرق العربي
7	المؤلف والكتاب
11	توماس إدوارد لورنس بين الواقع والأسطورة
21	نقاط حول الترجمة
29	مقدمة المؤلف لويل توماس
33	الفصل الأول: فارس عربي معاصر
41	الفصل الثاني: ألبحث عن حضارة مفقودة
59	الفصل الثالث: عالم آثار يتحول إلى جندي
69	الفصل الرابع: سلاله أشرف البيت النبوي
79	الفصل الخامس: سقوط جدّة ومكة
93	الفصل السادس: جمع قبائل النصحراء
103	الفصل السابع: معركة أبار أبو اللسن
111	الفصل الثامن: الاستيلاء على مرفأ المثلث سليمان القديم
119	الفصل التاسع: عبر البحر الأحمر للانضمام إلى لورنس وفصل
135	الفصل العاشر: معركة سيل الحسا
141	الفصل الحادي عشر: لورنس مدمر القطارات
151	الفصل الثاني عشر: شراب حليب الحرب
157	الفصل الثالث عشر: عودة أبو نابه، روبن هود البدوي
165	الفصل الرابع عشر: فرسان الخيام الأسود

173	الفصل الخامس عشر: متبدي الجمل
179	الفصل السادس عشر: عبد الله المجذور وقصة فزاج وداود
185	الفصل السابع عشر: العين بالعين والسن بالسن
193	الفصل الثامن عشر: مدينة وردية عمرها من عمر الزمان
207	الفصل التاسع عشر: معركة بدوية في مدينة الأنصاح
217	الفصل العشرون: «أهلي في البيت»
225	الفصل الحادي والعشرون: متخفياً بين صفوف الأتراك
235	الفصل الثاني والعشرون: أكبر خدعة بعد حصان طروادة
243	الفصل الثالث والعشرون: معركة الخيالة والبحرية وآخر حملة للورنس
251	الفصل الرابع والعشرون: انهيار الإمبراطورية العثمانية
263	الفصل الخامس والعشرون: حكم لورنس في دمشق وخيانة الأمير الجزائري
272	الفصل السادس والعشرون: قصص الفيلق السري
279	الفصل السابع والعشرون: جويس ورفاقه وفرسان سماء جزيرة العرب
287	الفصل الثامن والعشرون: فيصل ولورنس في معركة باريس
297	الفصل التاسع والعشرون: نجاة لورنس من الموت ومغامرات فيصل وحسين
305	الفصل الثلاثون: لورنس يهرب من لندن وفيصل يغدو ملكاً في بغداد
317	الفصل الحادي والثلاثون: سر نجاح لورنس
323	الفصل الثاني والثلاثون: فن التعامل مع العرب
333	الفصل الثالث والثلاثون: لورنس الإنسان



مغامرات مع لورنس في جزيرة العرب

لويس توماس كاتب وصحافي ومذيع ومؤلف أميركي شهير. ولد في وودينغتون بولاية أوهايو عام 1892 ومنذ كان في العشرينات من عمره عمل مراسلاً حربياً في أوروبا والشرق الأوسط. إنان الحرب العالمية الأولى وحروبها الطاحنة. يعود إليه الشيق في تكريس أسطورة توماس إدوارد لورنس كبطل جماهيري. باعتماد المبالغة والروايات الخيالية والحيكات الدرامية التي يخالف الكثير منها بعد شاعري. وبعد ذلك اشتهر لويس توماس بأحاديثه الإذاعية على راديو CBS وبرامجه التلفزيونية التي بدأت منذ عام 1930 ودامت لجيلين كاملين منذ بداية عصر التلفزيون. وعدا ذلك صدر له أكثر من 50 كتاباً حول رحلاته ومغامراته القيمة.

بعدما كنا نشرنا في هذه السلسلة كتاب لورنس "ثورة في الصحراء"، يسرنا أن نردفه بهذا الكتاب الشائق والمتع. الذي لم يطلع عليه قراء العربية حتى الآن. فيه يروي الكاتب بحالب شائق ولغة متعة سلسلة كيفية التفاته بلورنس في القدس. بعدما سمع عنه الكثير من الأقوال التي غدت بمثابة الأساطير. فقرر أن يرافقه في الكثير من حملاته لنسف القنارات وقتال الجيش التركي في شمالي جزيرة العرب وجنوبي سوريا. وكان يروي وقائع ما يراه بأتم العين ويدون الحدث وكأنك تراه بعينك. ولا يفوته أن يسبغ على النص مسحة من الطرافة والضحكة. وقد اعتمدنا على الطبعة الأولى التي صدرت في لندن عام 1924 وكذلك على طبعة أخرى ماثلة صدرت في نيويورك بالعام ذاته. ولقد طبع الكتاب في العشرينيات مراراً وحقق مبيعات هائلة.

السعر 55 درهماً



إصدارات
@darat

دار الكتب الوطنية



هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة
ABU DHABI TOURISM & CULTURE AUTHORITY